علم
الجغرافية القانونى

دكتور

أحمد محمد أحمد حشيش

أستاذ ورئيس قسم المرافعات

بحقوق طنطا – ووكيلها سابقاً

(طبعة ثانية)

٢٠٢٠

الناشر

دار النهضة العربية

٣٢ شارع عبد الخالق ثروت – القاهرة

إلى القارئ:

هذا المؤلف يثير «مسائل علمية» لم تسبق إثارتها منهجياً من قبل، أى يثيرها لأول مرة تاريخياً، ولو أن إثارتها تأويلياً ضرورة علمية عصرية ملحة للغاية وملحة على الدوام. وهو بهذا يفرض نفسه بإلحاح بالغ، على قاصدى التجديد في التثقيف عامة وفى التعليم خاصة، سواء التعليم العام أو التعليم الدينى، وسواء التعليم الجامعى أو قبل الجامعى، ولو في مصر على الأقل.

فرغم أن مصر بلد زراعى، لكنه لم ينظر بعد من منظور القرآن والسنة قبل القانون الوضعى، إلى الشجرة الخبيثة مثلاً (٢٦/إبراهيم)، أو الشجرة الملعونة (٦٠/الإسراء) على الأقل، أو شجرة الزقوم (٤٣/الدخان) على أقل الأقل، أى المخدرات بأنواعها التى يتنامى تباعاً التعامل فيها خفية من وراء ظهر القانون الوضعى، ولله عاقبة الأمور.

المؤلف

إسكندرية فى ٢٠٢٠/١/١

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَقُل لّعِبَادِي يَقُولُواْ الّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنّ الشّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنّ الشّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مّبِيناً)(١)

«صدق الله العظيم»

١ – تنبيه:

من أين تبدأ تعاملك مع القرآن علمياً؟. تبدأ بالتعرف على موضوعه إجمالاً، ثم التعرف على علم تأويله. **فأولاً:** القرآن، لا هو كتاب لغة، ولو نزل بلسان عربى. ولا هو كتاب مطالعة أى كتاب تدريب على القراءة، حتى لو نزل مصحوباً بطريقة «مُثلى» لقراءته شكلياً (١٨/القيامة).

فهو كتاب «شريعة» (١٨/الجاثية)، أى موضوعه التزام. وهذا الالتزام مفروض على كافة الناس (٢٨/سبأ)، أى على الناس منذ نزوله وإلى مالا نهاية مصداقاً لقوله تعالى بشأن فرضه على الرسول وعلى الناس واحداً بواحد إلى يوم القيامة:(**إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ**

---

(١) آية ٥٣/الإسراء.

إِلَى مَعَادٍ)([1]). وقوله تعالى بشأن فرضه كالتزام عليهم: **(فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا)**([2]).

وثانياً: نزل هذا الكتاب مصحوباً بطريقة أخرى «مُثلى» أيضاً، خاصة بفهمه موضوعياً. هى فهم موضوعه تأويلياً، وتأويلياً فحسب، وتأويلياً دون سواه على الإطلاق، أى وفق «مبادئ التأويل» (٧/آل عمران) منذ نشأته لأول مرة تاريخياً فى مصر قديماً (٦٥، ٧٨، ٨٢/الكهف) وإلى مالا نهاية. فالتأويل، لا هو مجرد تفسير على الإطلاق، ولا هو أحسن تفسير على الأقل، ولا هو أحسن تفسير باللغة على الأكثر، أى بالألفاظ والحروف. إنما هو أحسن تفسير بالحق مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: **(جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا)**([3])، بمعنى خير وأحسن تأويلاً (٥٩/النساء).

وثالثاً: علم التأويل نزل بنشأتيه الأولى والآخرة سلطاناً من الله فى القرآن ذاته. وهو بهذا وجه من أوجه اختلاف هذا القرآن عن كافة الشرع الإلهية السابقة عليه، والتى نزلت خالية من علم التأويل، وخالية – حتى – من طريقة مُثلى لقراءتها عدا الزبور (٥٥/الإسراء)، وبالتالى لم تكن تلك الشرع عصية على التقليد (٧٩/البقرة)، بينما القرآن عصى على التقليد كلياً (٨٨/الإسراء)، أو تقليد عشر سور على الأقل (١٣/هود)، أو تقليد سورة واحدة منه على أقل الأقل (٢٣/البقرة).

٢- إياك أن تهجر القرآن :

أياً من تكون أنت شخصياً، فإنك مُخاطب بالقرآن، وبالتالى ليس من مصلحتك مُطلقاً أن تهجره شكلاً وموضوعاً، ولا أن تهجر موضوعه على الأقل. بل العكس هو الصحيح بإطلاق، أى أن هجرك للقرآن لن يعود عليك إلا بالضرر حتماً، حتى لو كنت من قوم خاتم الرسل، وكنت ماهراً فى قراءته شكلياً، وكنت حافظاً إياه لغوياً.

([1-3]) ٨٥/القصص، ٢٦/الفتح، ٣٣/الفرقان.

لأنك تعيش عندئذ ظلوماً جهولاً (٧٢/الأحزاب)، وكأنك لم تخرج إلى الدنيا قط (٦/الزمر، ٧٨/النحل). وكأن هذا القرآن لم ينزل بعد، أو لم ينزل بالنور على الأقل. لذا حتى خاتم الرسل تشكى مسبقاً من هذا الهجر خاصة، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن:**(وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا)**([1]).

وهى شكاية من الهجر ومآله على السواء : ١- لأنه كهجر التوراة تاريخياً على الأقل، أى كهجرها الذى لم يتمخض إلا عن «استحمار» أصاب هاجريها، مصداقاً لقوله تعالى بشأن اقتران الأمرين معاً ودوماً: **(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ)**([2]). ٢- بل هو أفظع أثراً من هجر التوراة، لأنه يتمخض – حتى – عن «استكلاب» يصيب هاجرى القرآن خاصة، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)**([2]).

وكلاهما مآل طارئ على حياة القرآن، حتى مع قراءته شكلياً دون فهم موضوعه تأويلياً على الأقل. فهى عندئذ قراءة من لا يعلمون ما يقولون، وبالتالى قراءة منهى عنها أصلاً، حتى يعلموا ما يقولون (٤٣/النساء). وهى بهذا قراءة «نفاق» على الأكثر، حتى لو كانت قراءة ماهرة، وحتى لو أصبحت بعدئذ قراءة الأكثرية من أمة خاتم الرسل

([1-2]) ٣٠/ الفرقان، ٥/ الجمعة.

([2]) ١٧٥-١٧٦/الأعراف.

مصداقاً لقوله: **(أكثر منافقى أمتى قراؤها)**([1]). إذن حامل «قراءة» القرآن ليس بالضرورة حاملاً للقرآن، حتى لو كان حافظاً إياه لغوياً، بل يُخشى منه بعدئذ خشية بالغة على أمة خاتم الرسل مصداقاً لقوله: **(إن أخوف ما أخاف على أمتى كل منافق عليم اللسان)**([3]).

وهكذا فهجرك للقرآن، ولو بقراءته شكلياً دون فهم موضوعه تأويلياً على الأقل، لا هو فى مصلحتك فى دنياك ولا فى أخراك، حتى لو كنت من أصحاب خاتم الرسل مصداقاً لقوله: **(يرد علىَّ يوم القيامة رهط من أصحابى. فيجلون عن الحوض. فأقول: أى رب! أصحابى. يقول: إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك. إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى)**([4]).

٣- إياك أن تُعادى القرآن:

أنت مُخاطب بالقرآن، الذى هو آخر الكتب الإلهية تاريخياً، وأحدثها شكلاً وموضوعاً (١٠٦/البقرة)، وأحسنها حديثاً وتصنيفاً إلى قلوب وجلود المخاطبين به (٢٣/الزمر). فإياك بعدئذ أن تتخندق فى خندق أعدائه، وكأنك لم تسمع بعد عن خطتهم للتآمر على حياة هذا القرآن فى الأرض.

رغم أنها خطة واضحة، وتقوم على أمرين هما: عدم السماع لهذا القرآن من ناحية، واللغو فى هذا القرآن من ناحية أخرى، مصداقاً لقوله

([1-4])الألبانى: صحيح الجامع الصغير وزيادته – الفتح الكبير – ط٣- المكتب الإسلامى ببيروت – ١٩٨٨ – ص ٢٦٣ رقم ١٢٠٣، ص ٣٢٣ رقم ١٥٥٤، ص ١٣٤٣ رقم ٨٠٨٢.

تعالى بشأنها: **(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ)**([1]).

أو كأنك لم تعرف قط ما يقع على عاتقك من واجبات ضرورية، فى مواجهة ولإحباط تلك الخطة التآمرية. وهذه الواجبات ثلاثة، هى ما يلى:

أولاً: واجب الاستماع والإنصات لما يقوله القرآن، حال قراءته، سواء كانت قراءة من السامع أو من غيره، وسواء كانت قراءة ماهرة أو – حتى – متعثرة، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن:**(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)**([2]). وقول خاتم الرسل: **(الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذى يقرؤه ويتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران)**([3]).

وثانياً: واجب الإعراض عن اللغو كافة، مصداقاً لقوله تعالى:**(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ... وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ.)**([4]). وقوله تعالى:**(وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ)** ([5]). وقوله تعالى:**(وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا)**([6]). وقول خاتم الرسل: **(.. وأنهاكم عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال)**([7]). وقوله أيضاً **(إن الله تعالى ... يكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال)**([8]).

وثالثاً: واجب الإحاطة بمفهوم هذا اللغو كافة، وبالتالى الإحاطة بأشكاله وأنواعه، التى لا تخلو منها الحياة الدنيا، ولا تخلو منها إلا الجنة،

([1-2]) ٢٦/فصلت، ٢٠٤/الأعراف.

([3]) الألبانى: السابق – ص ١١٣٢ رقم ٦٦٧٠.

([4-6]) ١ و ٣/ المؤمنون، ٥٥/ القصص، ٧٢/ الفرقان.

([7-8]) الألبانى: السابق – ص٦٦ رقم ١٢، ص ٣٨٥ رقم ١٨٩٥.

التى تخلو منها واحدة بواحدة، مصداقاً لقوله تعالى: **(فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ. لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً)**([1]) وقوله تعالى: **(لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا)**([2]).

فهذا اللغو ليس نوعاً واحداً إنما هو جنس يضم ثلاثة أنواع: فهو يضم لغو الكلام أى «لهو الحديث» بأشكاله (٦/لقمان)، لكن لا يقتصر عليه وحده. إنما يضمه ويضم غيره من اللهو (٦٤/الإسراء) ولو اشتهرت تسميته مؤخراً «الآداب والفنون». بل هو حتى يضم غيرهما ولو لم يكن لهواً، إنما كان لعباً (٨٣/الزخرف، ٤٢/المعارج) ولو اشتهرت تسميته مؤخراً «رياضة». ويضم اللعب، حتى لو كان لعباً بالنرد على الأقل، ولو لم يكن هذا اللعب مصحوباً برهان أى لم يكن ميسراً مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(من لعب بالنرد، فقد عصى الله ورسوله)**([3])، أو كان – من باب أولى – مصحوباً برهان ولو كان الرهان كأساً أو ميدالية ... إلخ، فإنه ميسر (٩٠/المائدة).

ولهذا اللغو أهله، الذين لم ينظروا إليه بعد إلا من منظور ما فيه من منافع للناس، فيسمونه الترفيه أو التسلية أو الثقافة أو التنوير .. إلخ. لكن لم ينظروا إليه قط من منظور ما فيه من إثم كبير، رغم أن إثمه أكبر من نفعه، وأكبر بكثير جداً، لما ينطوى عليه من تآمر على حياة القرآن فى الأرض. أى لم ينظروا إليه كتنزيل، لا تنزله إلا الشياطين (٢٢١/الشعراء)، ولا تنزله على إنسان سوىٍّ على الإطلاق (٢٢٢/الشعراء)، ولا تنزله إلا على الغاوين، رغم أن هؤلاء وهؤلاء محل حوار قديم زمانياً وراسخ تاريخياً لغاية الآن (٨٢–٨٥/ص).

٤– إياك أن تُنكر شيئاً من القرآن:

([1-2]) ١٠–١١/الغاشية، ٢٥/ الواقعة.

([3]) الألبانى: السابق – ص ١١١٣ رقم ٦٥٢٩.

فأنت مُخاطب بالقرآن، الذى هو خلق من خلق الله (١٧/القيامة)، ويختلف – حتى – عن غيره من الخلائق، من حيث أوصافه على الأقل. فأوصافه خاصة مُستمدة مباشرة من «بعض» أسماء الله الحسنى، كالعظيم (٨٧/الحجر) والمجيد (١/ق، ٢١/البروج) والحكيم (٢/يس، ٤/الزخرف) والكريم (٧٧/ الواقعة) والعلى (٤/الزخرف).

وهذه الأوصاف لا تتجاوز نصف العشر من أسماء الله الحسنى، التى هى تسعة وتسعون دون زيادة أو نقصان مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(إن لله تعالى تسعة وتسعين إسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة)**([١]). وهى بهذا واردة عداً وحصراً، وبقدر عدد ما يحوزه سبحانه من الرحمة، التى يحوز منها تسعاً وتسعين رحمة دون زيادة أو نقصان، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(إن الله تعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة، وأرسل فى خلقه كلهم رحمة واحدة)**([٢]).

وبذا تتمخض أسماؤه سبحانه عن واحد هو: «الرحمن»، وبالتالى اتخذه القرآن عنواناً لسورة قائمة بذاتها هى السورة رقم ٥٥. كما أن الله هو الذى علم القرآن، لكن لم يعلمه إلا باعتباره الرحمن مصداقاً لقوله تعالى: **(الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ)**([٣]). وباعتبار هذا القرآن إذن رحمة منه سبحانه، والتى أرسل بها رسوله، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)**([٤]).

وهذا القرآن الذى نزل على خاتم الرسل، هو القرآن فى نشأته الآخرة تاريخياً، ويختلف بالضرورة عن القرآن فى نشأته الأولى تاريخياً، أى «الزبور» الذى نزل على داود فى القرن العاشر قبل الميلاد، وكان مصحوباً بطريقة قراءة خاصة به، وبالتالى كان «قرآناً» بالمعنى الدقيق، ولو أنه كان قرآناً مُخففاً للغاية، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(خُفف على داود القرآن، فكان يأمر بدوابه فتسرج، فيقرأ القرآن من قبل أن تسرج دوابه)**([٥]).

([١-٢]) الألبانى: ص ٤٣٢ رقم ٢١٦٦، ص ٣٦٣ رقم ١٧٦٣.
([٣-٤]) ١ و ٢/ الرحمن، ١٠٧/الأنبياء.
([٥]) الألبانى: السابق – ص ٦١٤ رقم ٣٢٣١.

فمن أين – إذن – يجب أن ينطلق فهمك للقرآن موضوعياً، ما لم ينطلق من «مبادئ الخلق»؟. فهى جزء لا يتجزأ من مبادئ الشريعة. وموضوعها هو «الخلق»، الذى هو موضوع قائم بذاته من موضوعات القرآن. بل هما معاً «علم» مرتبط لزوماً بواجب قراءة القرآن.

٥- محتويات المؤلف الراهن:

مبدأ الرب الخالق (١/العلق) هو مبدأ مبادئ الخلق، ولا يعنى فقط أن الله ليس خلقاً من الخلق، إنما يعنى أيضاً أن الله وحده خالق كل الخلق كافة، بل يعنى – حتى – أنه سبحانه لم يخلق الخلائق إلا لكى يُعرف من خلال وجودها، وبالتالى تتوزع محتويات المؤلف الراهن على المباحث التالية:

المبحث الأول: جغرافية ما قبل الأرض.

المبحث الثانى: جغرافية نشأة الأرض.

المبحث الثالث: جغرافية معالم الأرض.

المبحث الرابع: جغرافية العصر الحجرى.

المبحث الخامس: جغرافية القرآن.

المبحث الأول
جغرافية ما قبل الأرض

٦- تنبيه:

أنت كغيرك ممن حولك حيثما كنت، وكالناس كافة (٢٨/سبأ)، أى أنت مخاطب بالقرآن، وبالتالى مُلزم بكافة ما فيه، حتى «معياره» للتمييز بين العلم **science** وبين اللا علم **non-science**. فكل علم الإنسان مصدره الله وحده، مصداقاً لقوله تعالى: **(عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)**([1]). وكل علم مصدره الله هو علم بالمعنى الدقيق، حتى لو كان قليلاً، مصداقاً لقوله تعالى:**(وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً)**([2]).

فهذا القليل من العلم هو العلم الكافى والضرورى للبيان، الذى علمه الله للإنسان مصداقاً لقوله تعالى:**(خَلَقَ الْإِنسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)**([3]). وهو ذاته البيان الذى تكفل الله بوجوده فى القرآن مصداقاً لقوله تعالى:**(ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ)**([4]). أى هو البيان الموجود فى القرآن، الذى علمه الله، ولم يعلمه سبحانه إلا بوصفه الرحمن مصداقاً لقوله تعالى:**(الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ)**([5]). وعلم القرآن يشمل حتى علم تأويله، الذى نزل بنشأتيه الأولى والآخرة سلطاناً من الله فى القرآن ذاته، على اعتبار أنه وحده العلم اللازم لفهم القرآن موضوعياً.

فمثلاً، قصة الغلام الذى قتله الخضر، لا تقتصر تأويلياً على ما ورد بشأن «قتله» فى سورة الكهف، إنما تطال حتى «فعل» هذا الغلام، حتى ولو لم يرد فعله فى تلك السورة ذاتها، أى حتى لو ورد هذا الفعل فى سورة أخرى، هى سورة الأحقاف، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه:**(وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)**([6]). وقول خاتم الرسل بشأنه: **(الغلام الذى قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً، ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً)**([7]).

٧- ضرورة الموضوع علمياً:

([1-6]) ٥/العلق، ٨٥/الإسراء، ٣-٤/الرحمن، ١٩/القيامة، ١-٢/الرحمن، ١٧/الأحقاف.

([7]) الألبانى: السابق – ص ٧٧٠ رقم ٤١٨٣.

أنت مُخاطب بالقرآن، وبالتالى مُلزم بما فيه من معرفة رشيدة، حتى «معرفة» الجغرافية الكونية **Worldly Geography** على الأقل(١)، لكيلا يتطرق بعدئذ أى إلحاد إلى داخلك، ولو فى غفلة منك على أقل الأقل.

أى لكيلا تقع بعدئذ ضحية «القصور» الموجود لغاية الآن، ولو بشأن تلك الجغرافية على الأقل، سواء القصور الموجود فى «لتراث العلمانى» بعهديه الإغريقى والغربى حالياً، أى فى التراث العلمانى منذ منتصف الألف الأول قبل الميلاد ولغاية الآن. أو حتى القصور الموجود فى «الكتاب المقدس» بعهديه القديم والأخير(٢).

---

(١) هذه الجغرافية، لا هى من العبادات أو المعاملات أو الأخلاق بطريقة مباشرة، ولا هى – حتى – تتفق مع مقولة أن هذه العبادات والمعاملات والأخلاق على الأكثر تستنفد موضوع القرآن، ولو أن هذه المقولة الخاطئة علمياً لا تزال شائعة تقليدياً، ولا يزال يترتب على شيوعها إهمال معرفة الجغرافية الكونية فى القرآن والسنة لغاية الآن.

(٢) لم تفطن أوروبا خاصة والغرب عامة إلى وجود قصور فى الكتاب المقدس، إلا فى وقت متأخر نسبياً، أى فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى، وبالتالى نشأ فيهما وقتذاك ونما وتطور لغاية الآن، «تقليد»، مفاده: ضرورة انتقاد الكتاب المقدس، ولو كان النقد لاذعاً للغاية أحياناً، وبصرف النظر عن قداسته تاريخياً. انظر تفصيلاً توبى أ٠هاف: فجر العلم الحديث فى الإسلام والصين والغرب – بالإنجليزية ١٩٩٣ – ترجمة أحمد محمد عوض – حـ١ – ١٩٩٧ – الكويت – ص١٥٠.

فالتراث العلمانى والكتاب المقدس يشتركان فى قصور واحد بشأن تلك الجغرافية الكونية، ولو كان قصورهما ذا وجهين معاً وعلى السواء، وذلك كما يلى على سبيل المثال:

فأولاً: كلاهما خالٍ تماماً من بيان «نظام الخلق» creation science على الأقل. وخالٍ إذن من بيان الجغرافية الأولى تاريخياً، أى بيان مفردات الجغرافية التى كانت موجودة قبل خلق السموات والأرض، وستكون موجودة حتماً بعد زوالهما فى آخر الزمان. وخالٍ حتى من بيان أجل السموات والأرض، أى أجلهما المسمى، من حيث بدايته، أو من حيث مدته على الأقل، التى نهايتها يقيناً يوم القيامة.

وثانياً: كلاهما ليس خالياً من «الأسماء المكذوبة»، لأشخاص أو أماكن أو أشياء قديمة وبحسب الأحوال. ١- فلا «قايين وهابيل» هما إسما إبنى آدم. ولا «سام وحام ويافث» هى أسماء أبناء نوح٠. ولا «تارح» هو اسم والد إبراهيم. ولا حتى «يسوع» هو إسم من أسماء الله. اللهم إلا فى الكتاب المقدس وحده، أى دون القرآن والسنة على الإطلاق، وبالتالى فهما يحظران إذن ترديد تلك الأسماء الوهمية المغلوطة بإطلاق، وذلك منذ نزول القرآن (٧٦ و ٧٧/ النمل).

٢- ولا مريم وضعت إبنها عيسى فى أى مكان غير مبارك، ولا حتى وضعته فى أى مكان غرب بيت المقدس. ولا إلياس وإليسع ويونس من آل يعقوبِ. ولا إسحاق هو من فداه الله بذبح عظيم. ولا إبراهيم هو أول من وطأت قدماه مصر من الأنبياء والمرسلين. ولا أيوب أبن أحد مباشرة سوى نوح. ولا أراراط هو الجبل الذى استوت عليه سفينة نوح بعد الطوفان. اللهم إلا فى الكتاب المقدس وحده، أى دون القرآن والسنة على

الإطـلاق، وبالتـالى فهمـا يحظـران إذن ترديـد تلـك الأقـوال المرسـلة علـى عواهنها بإطلاق، وذلك منذ نزول القرآن (٧٦ و ٧٧/ النمل)([1]).

٣- ولا الهواء عنصر فى الكون، لا قبل خلق السموات والأرض، ولا بعد خلقهما. ولا هو الجو، ولا الجو هو الهواء على الإطلاق. ولا عناصر الكون أو عناصر الإنسان، أربعة هى: التراب، والماء والهواء والنار. اللهم إلا فى التراث العلمانى([2]) وحده، أى دون القرآن والسنة على الإطلاق، وبالتالى فهما يحظران إذن ترديد تلك التخمينات الخيالية القديمة، وذلك منذ نزول القرآن (٤٣/إبراهيم، ١٠/القصص، ٧٩/النحل).

وعلى أى الأحوال، هذا القصور بوجهيه هو مجرد نمط من أنماط الظلمات، التى نزل القرآن ليخرج كافة الناس منها (١/إبراهيم)، وليصحح أغلاطها لبنى إسرائيل خاصة (٧٦/النمل)، وبالتالى فإن محتويات المبحث الراهن تتوزع على المطالب التالية:

([1]) الدعوة فى العالم العربى إلى تطهير تراثه من «الإسرائيليات»، هى دعوة قديمة زمانياً، ولو لم تكن دعوة جدية يوماً، أى هى لم تتجاوز مرحلة الشعار بعد، وبالتالى لا تزال تفتقر إلى التفعيل العلمى لغاية الآن. لذا قلما تجد أحداً فى العالم العربى يعرف مثلاً، أن «معاداة» السامية شأنها شأن «محبة» السامية، أى كلتاهما بدعة إسرائيلية أصلاً ومُقننة قرآنياً، ولا تتعلق إلا بمعاداة أو محبة بنى إسرائيل هوداً أو نصارى بحسب الأحوال (١٨/المائدة).

([2]) انظر تفصيلاً، ريجار هوكاس: الدين ونشوء العلم الحديث – دراسة فى فلسفة العلوم وعلم الاجتماع الدينى – بالإنجليزية – ترجمة زيد العامرى الرفاعى – ط١ – ٢٠٠٨ – مكتبة مدبولى.

المطلب الأول: نظام الخلق.

المطلب الثانى: الجغرافية الأولى تاريخياً.

المطلب الثالث: متى تزول الأرض؟

المطلب الرابع: إسما أبنى آدم.

المطلب الخامس: دور أيوب فى سبيل الله.

المطلب السادس: دور عمران فى سبيل الله.

المطلب الأول

نظام الخلق

٨- مبدأ المبادئ :

نظام الخلق هو «نظام» على أى الأحوال، وتحكمه إذن مجموعة من المبادئ التى موضوعها هو: الخلق، ولو كانت الشرع الإلهية السابقة تاريخياً على القرآن قد نزلت خالية من هذه المبادئ، التى هى جزء لا يتجزأ من مبادئ الشريعة مؤخراً (١٨/الجاثية). لكنها جزء قائم بذاته، أى له استقلاله، حتى من حيث مبدأ مبادئه، الذى هو مبدأ: «الرب الخالق».

وهو مبدأ لم ينفصل يوماً عن واجب قراءة القرآن، أى كلاهما لازم للآخر ومتلازم معه على الدوام، وذلك منذ نشأة هذا الواجب لأول مرة تاريخياً فى نهاية العقد الأول من القرن السابع الميلادى (٦١٠م)، أى منذ أول درس قرآنى تلقاه خاتم الرسل فى غار حراء وقتذاك، مصداقاً لقوله تعالى: **(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)**(١).

---

(١) ١/ العلق.

فيجب دائماً أن يكون مبدأ: الرب الخالق حاضراً حال قراءة القرآن، وماثلاً فى الأذهان باعتباره مبدأ مبادئ نظام الخلق كافة، وأسبق حتى من **(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)**([1])، من حيث النزول تاريخياً.

٩- ماذا يعنى هذا المبدأ؟

أولاً: مبدأ الرب الخالق يعنى أن هذا الخالق ليس خلقاً من الخلق على الإطلاق، وبالتالى يستحيل أن يكون له سبحانه مثيلاً على الإطلاق (١١/الشورى)، كما يستحيل أن يكون له نظيراً على الأقل (٤/الإخلاص)، بل يستحيل - حتى - مُعاينته مُعاينة بصرية (١٤٣/الأعراف) مصداقاً لقوله تعالى: **(لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ)**([2])، وقول خاتم الرسل: **(حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)**([3]).

ولا محل بعدئذ للسؤال عنه سبحانه باعتباره خلقاً من الخلق، كالسؤال عن كيفية خلقه، أو السؤال - من باب أولى - عمن خلقه مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(يوشك الناس يتساءلون حتى يقول قائلهم: هذا الله خالق الخلق، فمن خلق الله؟. فإذا قالوا ذلك فقولوا: «الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفواً أحداً». ثم يتفل عن يساره ثلاثاً، وليستعذ من الشيطان)**([4]).

وثانياً: مبدأ الرب الخالق يعنى أن هذا الخالق أكبر من كافة خلقه جملة وتفصيلاً، وأكبر منهم بكثير جداً، وبالتالى يجب دائماً أن نُكبره (٣/المدثر)، ولو لم يكف أن نُكبره فحسب، إنما يجب أن نُكبره تكبيراً (١١١/الإسراء).

([1-2]) ١/ الفاتحة، ١٠٣/الأنعام.

([3-4]) الألبانى: السابق - ص ٣٨٠ رقم ١٨٦٠، ص ١٣٥٩ رقم ٨١٨٢.

أى يجب أن نُكبره دائماً وأبداً، كما يجب أن نُكبره كثيراً جداً، وبالتالى فمبدأ الله أكبر حاضر فى أذان كل صلاة وفى أذان إقامتها وفى الدخول فيها وفى ركوعها وسجودها وفى القيام منهما، وحاضر حتى فى التسبيح فى أعقابها. فهو يعنى أن السيادة لله وحده مصداقا لقول خاتم الرسل: **(السيد الله)**([1])، وقوله أيضاً عقب أذان إقامة الصلاة: **(قوموا إلى سيدكم)**([2]). ومن ثم فله وحده العزة جميعاً (١٣٩/النساء) والقوة جميعاً (١٦٥/البقرة).

وثالثاً: مبدأ الرب الخالق يعنى أن هذا الرب وحده خالق كل الخلائق بإطلاق، ولم يخلقها إلا لكى يُعرف من خلال معرفة تلك الخلائق، مصداقاً لقوله تعالى فى حديث قدسى: **(كنت كنزا مخفيّا، فأردت أن أُعْرَف، فخلقت الخلق فبى عرفوني)**([3]).

١٠- مقتضيات هذا المبدأ:

إذن الرب الخالق لا يُعرف بطريقة مباشرة، أى لا يُعرف بطريق مُعاينته معاينة بصرية، إنما يُعرف بطريقة غير مباشرة، أى يُعرف سبحانه عن طريق معرفة خلقه، وبما يترتب على ذلك من آثار كما يلى:

فأولاً: لا يجب التفكير فى الذات الإلهية من قريب أو من بعيد، وبالتالى يجب دائماً أن يقتصر التفكير العلمى على الخلائق كلها ووحدها، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(تفكروا فى خلق الله، ولا تفكروا فى الله)**([4]).

([1-2]) الألبانى: السابق – ص ٦٨٩ رقم ٢٧٠٠، ص ٨١٥ رقم ٤٤٢٧.

([3]) مشار إليه لدى عبد الصبور شاهين: أبى آدم – ٢٠٠١ – دار أخبار اليوم – ص٥.

([4]) الألبانى: السابق – ص ٥٧٢ رقم ٢٩٧٦.

وثانياً: لا يجب حتى التفكير فى الخلائق، إلا باعتبارها «آلاء» على وجود الخالق وربوبيته وألوهيته وقدرته وحده على خلق ما يشاء، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(تفكروا فى آلاء الله، ولا تفكروا فى الله)**([1]).

وثالثاً: يجب إذن التفكير فى كافة الخلائق، حتى تلك التى لم يشهد أحد خلقها قديماً، كخلق السموات والأرض وخلق البشر ملكاً وجناً وإنساً، مصداقاً لقوله تعالى: **(مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ)**([2]).

ومن ثم، فلا يجب أن يقتصر التفكير على بعض الخلائق، دون بعضها الآخر، خاصة أن الله قد تكفل ببيانها كافة مصداقاً لقوله تعالى: **(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)**([3]).

١١- كيفية التفكير فى الخلق:

أولاً: تمييزاً لذات الخالق عن كافة مخلوقاته خلقاً بخلق، فإنه سبحانه لم يخلق من أى خلق، واحداً فحسب، ولا حتى أكثر من اثنين على الإطلاق، أى أنه سبحانه قد خلق من كل خلق اثنين دون زيادة أو نقصان مصداقاً لقوله تعالى: **(وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)**([4]).

وثانياً: بل إنه سبحانه لم يخلق من أى خلق اثنين متعاصرين زمانياً، إنما خلقهما متعاقبين زمانياً ومتباعدين تاريخياً، لكى يتسنى للمخاطبين بالقرآن التمييز بينهما، سواء التمييز بينهما فى القرآن أو التمييز بينهما فى الخلائق.

([1]) الألبانى: السابق – ص ٥٧٢ رقم ٢٩٧٥.

([2-4]) ٥١/ الكهف، ٥٣/فصلت، ٤٩/الذاريات.

فمثانى الخلائق مثنى بمثنى مذكورة فى القرآن ذاته، مصداقاً لقوله تعالى بشأنها: **(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ ...)**([1]).

وثالثاً: ما على المخاطبين بالقرآن سوى التمييز بين مثانى الخلائق مثنى بمثنى، والتمييز بين مثنى كل خلق خلقاً بخلق مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ. قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)**([2]).

ورابعاً: لا تجوز الاستعانة فى هذا الشأن بالشرع الإلهية السابقة تاريخياً على القرآن. فحتى التوراة، لم تنزل خالية من «علم التأويل» فحسب (٦٠-٨٢/الكهف)، إنما نزلت خالية أيضاً من «علم الخلق». لذا، عندما سأل فرعون موسى عن القرون الأولى، لم يكن أمام الأخير سوى إحالة فرعون إلى «كتاب» الذكر المحفوظ فوق عرش الرحمن، مصداقاً لقوله تعالى بشأنهما: **(قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى. قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى)**([3]).

فالقرون الأولى كالقرون الآخرة، وإن كانتا غيباً بالنسبة للإنسان لغاية نزول القرآن، إنما كلتاهما أصبحت علماً ميسوراً للإنسان منذ نزول القرآن وإلى مالا نهاية، وعلماً مصدره الله مباشرة.

فهذا العلم الذى لا يعلمه إلا الله وحده، ولا يوجد إلا فى «كتاب القدر» المحفوظ لديه سبحانه، قد أنزله سبحانه مؤخراً فى القرآن، مصداقاً لقوله تعالى: **(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)**([4]). وقول خاتم الرسل: **(كتاب الله به نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل)**.

([1-4]) ٢٣/الزمر، ١٩-٢٠/العنكبوت، ٥١-٥٢/طه، ٩/الحجر.

وبهذا، فلا الذكر هو والقرآن مترادفان ولو لغوياً على الأقل، ولا الذكر يستغرق القرآن كله، ولا القرآن يستنفده الذكر وحده، الذى هو مجرد «أداة بيانية» موجودة فى القرآن.

فالذكر لم ينزل فى القرآن، إلا كأداة بيانية للناس، أى أداة يُبين للناس بها ما أنزل إليهم من القرآن، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)**([1]).

وبهذه الأداة البيانية التى خص الله بها القرآن وحده، أصبح هذا القرآن ذاته ميسراً للذكر من جانب المخاطبين به، ولمن شاء منهم أن يتذكر فعلاً، مصداقاً لقوله تعالى أربع مرات متتاليات فى سورة القمر: **(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ)**([2]).

على أن الذكر ليس أداة بيانية من حيث موضوعه فحسب، إنما أيضاً من حيث أشخاصه، الذين هم «أهله»، أى «أهل الذكر» على مر التاريخ، لكيلا ينتحل أحد بعدئذ صفتهم دون حق، ولكى يسألهم الناس عما لا يعلمونه مباشرة من هذا الذكر (٤٣/النحل، ٧/الأنبياء).

١٢ – معرفة نظام الخلق:

هذه المعرفة تؤدى دوراً ثلاثياً للمخاطبين بالقرآن، وذلك كما يلى:

أولاً: التثبت من أن «الرب» و «الخالق» وجهان لشئ واحد هو الله، الذى لا يجوز مطلقاً الإشراك به بعدئذ، مصداقاً لقوله تعالى مرة تلو مرة: **(إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء)**([3]). وقول خاتم الرسل: **(يا معاذ بن جبل، هل تدرى ما حق الله على عباده وما حق**

([1-3]) ٤٤/ النحل، ١٧و ٢٢ و ٣٢ و ٤٠/القمر، ١١٦/النساء وكذا ٤٨/النساء.

العباد على الله؟. فإن حق الله على العباد أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً. وحق العباد على الله أن لا يُعذب من لا يشرك به شيئاً)([1]).

وثانياً: التثبت من أن الله وحده خالق كل شئ فى الكون بإطلاق، مصداقاً لقوله تعالى: **(قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ)**([2]). وقوله تعالى: **(ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ)**([3]).

وثالثاً: التثبت من أن كل القرآن صادر عنه وحده سبحانه، وذلك على نحو ما هو ثابت فى «صيغة إصداره»، الموجودة فى أول آية قرآنية من سورة الفاتحة، التى تتصدر باقى سور القرآن، أى **(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَـنِ الـرَّحِيمِ)**([4]). وهى تعنى تأويلياً أن كل القرآن: **(تَنزِيـلٌ مِّـنَ الـرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)**([5]).

وقد أشرنا من قبل، أنه حتى «القرآن» كخلق من خلق الله، قد خضع لنظام الخلق عامة، وسنرى من بعد كيف أن مفردات «الجغرافيا الأولى» كخلق من خلق الله، تخضع لنفس النظام.

المطلب الثانى

الجغرافية الأولى تاريخياً

١٣- البحر المسجور والدخان:

الجغرافية التى لم تكن قبلها جغرافية على الإطلاق، ولم يكن قبلها تاريخ على الإطلاق، هى الجغرافية الأولى تاريخياً، التى استنفدت زمنياً الخمسين ألف سنة الأولى تاريخياً، بدءاً من خلق القلم (٤/العلق) وانتهاء بتمام خلق السموات والأرض فى ستة أيام (٧/هود)، وكان بينهما خلق البحر المسجور والدخان تباعاً.

وكلا من الكتاب المقدس والتراث العلمانى لا يخلو فقط من بيان مفردات الجغرافية الأولى تاريخياً، إنما يخلو أيضاً من بيان عصرها الزمنى، الذى يُشار إليه فى الغرب بـ «العصر الجليدى» Ice age، بمعنى العصر

([1]) الألبانى: السابق – ص ١٣١٩ رقم ٧٩٦٨.

([2-5]) ١٦/الرعد، ١٠٢/الأنعام، ١/الفاتحة، ٢/فصلت.

المجهول والغامض والمبهم علمانياً. ومن ثم تتوزع محتويات المطلب الراهن على الفروع التالية:

الفرع الأول: البيئة المائية الأولى.

الفرع الثانى: نشأة أولى للبحر المسجور.

الفرع الثالث: نشأة آخرة للبحر المسجور.

الفرع الأول
البيئة المائية الأولى

١٤- الماء :

خلق السماوات والأرض، ليس أول الخلائق تاريخياً، ولا هو إذن أقدم خلق الله، وذلك بصرف النظر عما في الكتاب المقدس (تك ١: ١ و ٢). فالعكس هو الصحيح، أى أن خلقهما أحدث في الوجود تاريخياً من خلق «الماء» على الأقل. فالماء إذن أسبق في الوجود تاريخياً من خلق السماوات والأرض، وذلك بمراعاة ما يلى في هذا الشأن:

فأولاً: كان عرش الرحمن موجوداً على هذا الماء، وقبل خلق السماء والأرض، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء)**([1]).

وثانياً: كان هذا الماء موجوداً قبل خلق السماوات والأرض، بخمسين ألف سنة، أى كان موجوداً وقت أن قدر سبحانه مقادير الخلائق قبل أن يخلقها، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(قدر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة)**([2]).

إذن كان هذا الماء موجوداً وعليه عرش الرحمن، قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، أى وقت كتابة مقادير الخلائق فى «كتاب القدر» مصداقاً لقول خاتم الرسل **(كتب الله تعالى مقادير**

([1]) ٧/ هود.

([2-2]) الألبانى: السابق – ص ٨٠٨ رقم ٤٣٨٠.

الخلائق، قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وعرشه على الماء)([1]).

وثالثاً: كان هذا الماء موجوداً فى الخمسين ألف سنة «الأولى» من تاريخ الكون، أى فى فترة زمنية مماثلة تماماً للخمسين ألف سنة «الآخرة» من تاريخ الكون (٤/المعارج) والتى ستنتهى حتماً – وقريباً – يوم القيامة (٦ و ٧/المعارج).

وهكذا حتى «تاريخ الكون» هو خلق من خلق الله، وله إذن نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات) ويجب التمييز بين نشأتيه (٢٠/العنكبوت): فهو فى نشأته الأولى، تاريخ الخمسين ألف سنة الأولى منذ خلق الله القلم (٤/العلق). وهو فى نشأته الآخرة، تاريخ الخمسين ألف سنة الآخرة منذ خلق الله الملائكة (٤/المعارج).

١٥- ماء بحر:

الماء الموجود آنذاك، لم يكن مجرد ماء، إنما كان ماء بحر جغرافياً. وهذا البحر، وإن كان أسبق فى الوجود تاريخياً من خلق الأرض، لكنه بدوره لم يكن أول الخلائق تاريخياً، ولا هو إذن أقدمها.

فأول الخلائق بإطلاق هو «القلم» الذى خلقه الله لكى يستكتبه مقادير الخلائق فى كتاب القدر، وبالتالى صار هذا القلم مرتبطاً – حتى – بواجب قراءة القرآن، وذلك منذ نشأة هذا الواجب لأول مرة تاريخياً فى نهاية العقد الأول من القرن السابع الميلادى (٦١٠م)، أى منذ تلقى خاتم الرسل أول درس قرآنى فى غار حراء وقتذاك، مصداقاً لقوله تعالى:(**اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ**)([2]).

([1]) الألبانى: السابق – ص ٨٢٦ رقم ٤٤٧٤.

([2]) ٣-٤/العلق.

وهو نفس الواجب الذى ارتبط منذ ذاك التاريخ، بمبدأ: الرب الخالق، مصداقاً لقوله تعالى: **(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)**([1]). وبهذا صار ذاك القلم مرتبطاً بالرب الخالق، وبكتابة كتاب القدر، وبقراءة القرآن، على السواء.

فهو أول خلق خلقه الله، واستكتبه الله مقادير الخلائق بإطلاق، وقبل أن يخلقها سبحانه، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(إن أول شئ خلقه الله القلم. فأمره فكتب كل شئ يكون)**([2]). وقوله أيضاً: **(إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. قال: يارب ما أكتب؟. قال: اكتب القدر، ما كان وما هو كائن إلى الأبد)**([3]).

١٦- ماء بحر قائم بذاته:

ماء البحر الموجود آنذاك لم يكن موجوداً إلا كخلق قائم بذاته، أى له استقلاله من ناحيتين على الأقل. فله استقلاله عن كتابة القدر مداداً وقلماً باعتبارها خلقاً سابقاً عليه تاريخياً، كما له استقلاله عن خلق السموات الأرض باعتباره خلقاً لاحقاً عليه تاريخياً. وذلك بما يترتب عليه من آثار:

أولاً: ماء هذا البحر على انفراد أو بمدد من غيره، لم يكن مداداً للقلم الذى استكتبه الله مقادير الخلائق، إنما كان لهذا القلم مداداً آخراً لا ينفد بطبيعته، مصداقاً لقوله تعالى: **(قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)**([4]).

([1]) ١/العلق.

([2-3]) الألبانى: السابق – ص ٤٠٥ رقم ٢٠١٦، ص ٤٠٥ رقم ٢٠١٧.

([4]) ١٠٩/ الكهف.

وثانياً: والقلم الذى استكتبه الله مقادير الخلائق، لم يكن قلماً أو أقلاماً من شجر الأرض التى لم تكن قد خلقت بعد، بل كان قلماً لا تحل محله كافة أقلام شجر الأرض، ولا يحل إذن محل مداده ماء ثمانية أبحر متصلة ببعضها، مصداقاً لقوله: **(وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ)**(١).

وثالثاً: ماء هذا البحر، وإن لم يكن له أى دور فى كتابة مقادير الخلائق، أى فى كتابة «كتاب القدر»، لكنه العامل المشترك فى خلق كافة الكائنات الحية بإطلاق، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن:**(وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)**(٢).

فالإنسان مثلاً ، وإن كانت مادته الأولية هى التراب مصداقاً لقوله تعالى: **(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ)**(٣). لكن خلقه لم يبدأ إلا بمزيج من التراب والماء، أى من الطين، مصداقاً لقوله تعالى:**(وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ)**(٤).

ولأن دور الماء أن يكون عاملاً مشتركاً فى خلق الكائنات الحية، فإن خلقه متقدم تاريخياً عن خلقها، بل هو حتى ثالث الخلائق ترتيباً وأقدمية من الوجهة التاريخية، أى جاء خلقه بعد خلق القلم وبعد خلق كتاب القدر، أى بعد كتاب الذكر المحفوظ فوق عرش الرحمن.

الفرع الثانى

نشأة

أولى للبحر المسجور

١٧- أول الجغرافية البحرية:

الماء الذى كان موجوداً آنذاك، وإن كان ماء بحر بالمعنى الدقيق، لكنه لم يكن ماء بحر عادى على الإطلاق، إنما كان بحر خاص

(١-٤) ٢٧/ لقمان، ٣٠/الأنبياء، ٢٠/ الروم، ٧/السجدة.

بإطلاق، أى خاص من حيث تكوينه، وخاص من حيث دوره، وخاص من حيث مسماه اصطلاحياً، وذلك على التفصيل التالى:

فأولاً: كان هذا البحر يتكون من الماء، والماء فحسب، والماء دون سواه على الإطلاق، أى كان – حتى – دون شطآن أرضية ودون قاع أرضى، لأن الأرض لم تكن قد خلقت بعد، وبالتالى لم تكن هناك حدوداً أرضية تحد هذا البحر على الإطلاق.

ولأن ماؤه لم يكن مختلطاً بالأرض على الإطلاق، كان عليه عرش الرحمن (٧/هود)، ومن ثم، فلا محل بعدئذ للمقارنة بين وضع هذا العرش الإلهى على الماء قديماً قبل خلق الأرض، وبين وضع إبليس عرشه على الماء حالياً، أى بعد خلق الأرض، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى شأنه: **(إن أبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة...)**(١).

وثانياً: هذا البحر هو أول بحر تاريخياً، فلا كان قبله أى بحر، ولا كان معه أى بحر آخر، أى هو أسبق البحار وجوداً من الوجهة التاريخية، وبالتالى فهو الأصل التاريخى للبحار، بل حتى أصل الجغرافية تاريخياً، والتى هى بهذا أسبق فى الوجود تاريخياً من خلق الأرض.

وبذا، لا يجوز أن يخلو بعدئذ أى تأريخ للبحر أو البحار أو للجغرافية، من البحر المسجور، وإلا كان هذا التأريخ مغلوطاً وخاطئاً من الوجهة العلمية، ولو لم يلتفت المؤرخون والجغرافيون إلى هذه الحقيقة.

وثالثاً: هذا البحر له مُسمى اصطلاحى خاص به، أى ينفرد هذا البحر بمسمى خاص يستأثر به وحده، بل حتى لم يخلعه عليه إلا خالقه

---

(١) الألبانى: السابق – ص ٣١٨ رقم ١٥٢٦.

سبحانه، الذى سماه «البحر المسجور»، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: **(وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ)**(١). وهو سيظل بحراً مسجوراً حتى خلق الأرض بعدئذ.

١٨- بعد خلق السماوات الأرض:

لم يعد البحر المسجور موجوداً منذ خلق الأرض، التى تفجر فيها هذا البحر ذاته بحاراً عدة، لكنها بحار عادية، أى ليست بحاراً مسجورة على الإطلاق، إنما بحار لها شطآن أرضية وقاع أرضى على السواء. وهى البحار والمحيطات الموجودة لغاية الآن وإلى مالا نهاية، مصداقاً لقوله تعالى بشأن نشأتها لأول مرة تاريخياً: **(وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ)**(٢).

وليس معنى بالبداهة، أن البحر المسجور لم يعد هو أصل البحار التى تفجرت فى الأرض بعد خلقها، لأن العكس هو الصحيح، أى سيظل هذا البحر المسجور هو الأصل التاريخى للبحار والمحيطات، حتى ولو لم تكن بحاراً مسجورة، وبما يترتب على ذلك من آثار:

فأولاً: ماء البحر المسجور هو «أصل» ماء بحار الأرض، حتى لو أصبحت هذه المياه بعدئذ ماء الأرض، مصداقاً لقوله تعالى للأرض بعد طوفان نوح: **(وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ)**(٣). فهى فى الأصل ماء البحر المسجور لكنها حالياً موجودة فى الأرض.

وثانياً: بحار الأرض، ليست أرضاً بالمعنى الدقيق، إنما هى بحسب الأصل ماء، وماء فحسب، وبما يترتب على ذلك من آثار: ١- فهذه البحار لا تصلح أن تكون حدوداً مادية أو فواصل جغرافية بين أجزاء الأرض، لأنها مجرد ماء. ٢- قاع تلك البحار كافة هو قاع أرضى أصلاً، أى أرض. ٣- والأرض ممتدة تحت ماء البحار كافة، ومتصلة

(١-٣) ٦/ الطور، ٣/ الانفطار، ٤٤/ هود.

ببعضها البعض، أى أن هذه الأرض ممتدة بصرف النظر عن وجود أو عدم وجود بحار فوقها، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ)**([1]).

وثالثاً: البيئة البحرية أسبق فى الوجود تاريخياً من البيئة الأرضية، ولو أن فساد البيئة الأولى أحدث فى الوجود تاريخياً من فساد البيئة الثانية. لكن كلاهما فساد على أى الأحوال، ومن صُنع الإنسان وحده، الذى هو إذن المسئول عنه وهو ضحية له فى نفس الوقت، لكى يرجع عن الإفساد فى الأرض، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)**([2]).

وهذا الفساد لا يقتصر على الفساد المادى وحده دون غيره، ولا الفساد المادى يقتصر على التلوث وحده دون غيره، لكن هذا الفساد يقتصر على الفساد فى البر والبحر وحدهما، أى دون «الجو» الذى لا يتبعهما على الإطلاق، إنما هو يتبع السماء دائماً، مصداقاً لقوله تعالى بشأن مسماه اصطلاحياً: **(جَوِّ السَّمَاء)**([3]). وهو جو السماء، ولو اشتهرت تسميته اختصاراً بلفظ «الجو» فحسب.

وهكذا بعد خلق السماوات والأرض، ماء البحر المسجور موجود لكن دون البحر المسجور ذاته، الذى حلت محله بحاراً ومحيطات غير مسجورة، ولو أنها لم تحل محله إلا بصفة مؤقتة.

الفرع الثالث

نشأة

آخرة للبحر المسجور

([1-3]) ٣/ الرعد، ٤١/ الروم، ٧٩/ النحل.

١٩- نشأتا البحر المسجور:

البحر المسجور خلق من خلق الله، وله إذن نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)، ويجب التمييز بين نشأتيه (٢٠/العنكبوت). فله نشأة أولى تاريخياً وذلك على نحو ما بيناه آنفاً. حيث كانت هذه النشأة قبل خلق الأرض، وقبلها بخمسين ألف سنة.

أما نشأته الآخرة تاريخياً"، فهى بعد زوال الأرض فى آخر الزمان. فآنذاك تعود البحار والمحيطات غير المسجورة، بحراً واحداً، وبحراً مسجوراً فى نفس الوقت، أى بحراً من الماء ومن الماء فحسب، بدون شطآن أرضية وبدون قاع أرضى على الإطلاق، مصداقاً لقوله تعالى بشأن نشأة هذا البحر الآخرة تاريخياً: **(وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ)**([1]).

إذن لا يستنفد البحر المسجور نشأتيه تاريخياً إلا وقتذاك، أى وقت زوال السماوات والأرض فى آخر الزمان. وإذا كان الناس لم يشهدوا نشأته الأولى تاريخياً، لكنهم سوف يشهدون نشأته الآخرة تاريخياً يوم القيامة، ويشهدوا حتى النشأة الآخرة للدخان.

٢٠- أسبقية الماء على الدخان:

لم يكن الماء (البحر المسجور) أسبق تاريخياً من خلق السماوات والأرض فحسب، إنما هو أيضاً أسبق من خلق «الدخان»، وهو خلق قائم بذاته، أى له استقلاله، وبالتالى اتخذه القرآن «عنواناً» لسورة قرآنية قائمة بذاتها، هى السورة رقم ٤٤، أى «سورة الدخان».

وهذا الخلق بدوره له نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)، ويجب التمييز بين نشأتيه (٢٠/العنكبوت)، وذلك كما يلى: **فأولاً:** فى نشأته الأولى تاريخياً كان الدخان موجوداً بعد نشأة الماء (البحر المسجور)، وقبل خلق

([1]) ٦/ التكوير.

السموات والأرض، مصداقاً لقوله تعالى بشأن نشأة هذا الدخان: **(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا)**(١).

والإنسان أحدث تاريخياً من خلق السموات والأرض، وبالتالى لم يشهد خلقهما ولم يشهد إذن تلك النشأة الأولى للدخان.

وثانياً: نشأة الدخان الآخرة تاريخياً، ستكون حتماً بعد زوال السموات والأرض فى آخر الزمان، أى يوم القيامة. ويومئذ يشهد الناس كافة نشأة الدخان الآخرة، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ. يَغْشَى النَّاسَ ...)**(٢).

وهكذا سيواكب زوال السماوات والأرض يوم القيامة، أن يستبدل بهما الماء (البحر المسجور) والدخان فى نشأتهما الآخرة تاريخياً، مصداقاً لقوله تعالى بشأن هذا الاستبدال التاريخى: **(يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)**(٣). فيومئذ تستبدل البيئة المائية بالبيئة الأرضية، كما يستبدل الدخان بالسماوات، وذلك عوداً إلى بدء الخلق، الذى لم يشهد الناس نشأته الأولى تاريخياً.

٢١ – أسبقية القلم على الماء :

لم يكن القلم أسبق وجوداً من الماء (البحر المسجور) والدخان فحسب، إنما كان أسبق وجوداً من كافة الخلائق، أى هو أول وأقدم خلق خلقه الله. وهو خلق قائم بذاته، أى له استقلاله، وبالتالى اتخذه القرآن «عنواناً» لسورة قرآنية قائمة بذاتها، هى السورة رقم ٦٨، أى « سورة القلم».

(١-٣) ١١/ فصلت، ١٠ و ١١/ الدخان، ٤٨/إبراهيم،

لكـن القلـم خلـق علـى أى الأحـوال، ولـه إذن نشـأتان تاريخيـاً (٤٩/الذاريات)، ويجب التمييز بين نشأتيه (٢٠/العنكبوت)، وذلك كما يلى:

فـأولاً: نشأة القلم الأولى تاريخياً، كانت قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وذلك على نحو ما بيناه آنفاً. وقد استكتبه الله «كتاب القدر» مصداقاً لقوله تعالى: **(وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ)**([1]). وقول خاتم الرسل: **(إن أول ما خلق الله القلم. فقال له: أكتب. قال: يارب ما أكتب. قال اكتب مقادير كل شئ حتى تقوم الساعة. من مات على غير هذا فليس منى)**([2]). وهذا الكتاب هو الذكر المحفوظ (٩/الحجر)، أى اللوح المحفوظ (٢٢/ البروج) فوق عرش الرحمن، وبالتالى هو الكتاب المكنون (٧٨/الواقعة).

وليس لأحد أن يُنكر بعدئذ «القدر» على الأقل، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(لو أنفقت مثل أُحدٍ ذهباً فى سبيل الله ما قبله الله منك، حتى تؤمن بالقدر، فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك. وما أخطأك لم يكن ليصيبك. ولو مت على غير هذا، لدخلت النار)**([3]).

ولا لأحد أن يُجادل فى هذا القدر، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(آخر الكلام فى القدر لشرار أمتى فى آخر الزمان)**([3]). ولا لأحد أن يُكذب بهذا

([1]) ٣ و ٤/العلق.

([2-3]) الألبانى: السابق – ص ٤٠٥ رقم ٢٠١٨، ص ٩٣٠ رقم ٥٢٤٤.

([3-5]) الألبانى: السابق – ص ١٠٥ رقم ٢٦٢، ص ٦٨٤ رقم ٣٦٦٩، ص ١٠٣ رقم ٢١٥، ص ١٥٥ رقم ٥٤٥، ص ٨١٨ رقم ٤٤٤٢.

([6-7]) ١/القلم، ١٢/يس.

([8]) الألبانى: السابق – ص ٦٥٩ رقم ٣٥١٢.

القدر، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(سيكون فى أمتى أقوام يُكذبون بالقدر)**[٢]. وقوله أيضاً: **(أخاف على أمتى من بعدى خصلتين: تكذيباً بالقدر، وتصديقاً بالنجوم)**[٣].

فقدر الله لا يحتمل إذن الكلام فيه على الأقل، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(إذا ذكر القدر فأمسكوا)**[٤]. فما بالنا إذن بالقدريين، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(القدرية مجوس هذه الأمة. إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم)**[٥].

وثانياً: نشأة القلم الآخرة تاريخياً، كانت بعد خلق السموات والأرض، وكان القلم للملائكة لكى يسطروا به ما أنيط بهم تسطيره مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)**[٦]. وهم يسطرون ما قدمه الناس وآثارهم مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ)**[٧]. وما يكتبوه إذن هو الكتاب المسطور (٢/الطور)، أى الرق المنشور (٣/الطور) بعدئذ يوم القيامة.

وهذا القلم ممنوع من التسطير فى حق ثلاثة، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(رفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون المغلوب على عقله حتى يبرأ. وعن النائم حتى يستيقظ. وعن الصبى حتى يحتلم)**[٨].

المطلب الثالث

متى

تزول السموات والأرض؟

٢٢- قابليتهما للزوال:

رؤيـة النـاس للبحـر المسـجور والـدخان فـى نشـأتهما الآخـرة تاريخيـاً، هـى رؤيـة متوقفـة علـى زوال السـموات والأرض، اللتين تقبلان الـزوال ولـو قبـل يـوم القيامة، لولا أن الله يمسكهما فيمنعهما من الزوال مصداقاً لقولـه تعالى: **(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا)**(١).

لكـن سـبحانه يمسـكهما ويمنعهمـا مـن الـزوال قبـل انقضـاء أجلهمـا المسـمى، لكـيلا تـزولا إلا بعـد انتهـاء هـذا الأجـل المسـمى، وعندئـذ لـن يمسكهما أو يمنع زوالهما أحد بعده سبحانه، مصداقاً لقولـه تعالى: **(وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ)**(٢).

٢٣- أجلهما المسمى:

السموات والأرض خلق من خلق الله". وهذا الخلق له أجل زمنى، أى أجل مُعين زمنياً من حيث بدايته ومن حيث مدته ومن حيث نهايته، مصداقاً لقولـه تعالى بشأن أجلهما: **(أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ... وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ)**(٣).

فالله لم يترك خلقاً من خلقه سبحانه دون أجل مسمى، حتـى لـو كـان هذا الخلق هو السموات والأرض، وبالتالى جعل الله لهما أجـلاً مسمى، أى أجلاً مُعيناً من حيث بدايته ومدته ونهايته، مصداقاً لقولـه تعالى مرة: **(مَـا خَلَـقَ اللَّهُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَـا بَيْنَهُمَـا إِلَّا بِـالْحَقِّ وَأَجَـلٍ مُّسَـمًّى)**(٢). وقولـه تعـالى مرة أخرى: **(مَـا خَلَقْنَـا السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَـا بَيْنَهُمَـا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى)**(٢).

٢٤- أجل حياتهما:

(١-٣) ٤١/فاطر، ٤١/فاطر، ٩٩/ الإسراء.

(٢-٢) ٨/ الروم، ٣/ الأحقاف.

المقصود بالأجل المسمى للسموات والأرض، هو أجل حياتهما بعد خلقهما، وبالتالى هذا الأجل المسمى بدون أجل خلقهما، الذى هو ستة أيام استغرقها خلقهما (٧/هود)، حتى لو كان اليوم عند الله كألف سنة مما نعده (٤٧/الحج).

إذن أجل خلقهما، أى الستة أيام، لا تدخل مطلقاً فى حساب أجلهما المسمى، الذى هو أجل حياتهما بعد خلقهما. أى أن هذه الستة أيام تتجاوز أجلهما السمى، لتدخل فى الخمسين ألف سنة «الأولى» من تاريخ الكون، الذى لم يبدأ إلا بخلق القلم ثم خلق الماء (أى البحر المسجور) ثم خلق الدخان، ثم خلق السموات والأرض.

٢٥- أجلهما وآجال أمم الأرض:

أجل السموات والأرض يستنفد كافة آجال أمم الأرض، إنما العكس ليس صحيحاً على الإطلاق، حتى لو كانت هذه «الأمم» كثيرة ومتباينة، نوعياً وكمياً وتاريخياً، وذلك كما يلى:

فأولاً: هذه الأمم لا تقتصر على أمم الإنس وحدهم دون غيرهم، إنما تطال كافة أمم الأرض بإطلاق، سواء كانت هذه الأمم دابة فى الأرض أم طائرة، مصداقاً لقوله تعالى بشأنها: **(وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ... ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ)**([1]).

وثانياً: أمم الإنس لا تقتصر على «الأمة الأمية» وحدها التى هى أمة خاتم الرسل، والتى هى آخر أمم الإنس تاريخياً أى الأمة السبعون فى

([1-2]) ٣٨/ الأنعام، ١١٠/آل عمران.

([3-4]) الألبانى: السابق – ص ٤٥٦ رقم ٢٣٠٦، ص ٥٤٥ رقم ٢٨٢٥.

([5]) ٢٤/ الأعراف وكذا ٤٩/ يونس.

سلسلة تعاقب أمم الإنس تاريخياً، حتى لو كانت هذه الأمة خير أمم الإنس نوعياً، مصداقاً لقوله تعالى بشأنها: **(كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)**(٢).

وقول خاتم الرسل بشأنها: **(إنكم تتمون سبعين أمة، أنتم خيرها، وأكرمها إلى الله)**(٣). وهى وإن كانت آخر الأمم السبعين عددياً، لكنها أولهم حساباً يوم القيامة، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(نحن آخر الأمم، وأول من يُحاسب، يقال: أين الأمة الأمية ونبيها. فنحن الآخرون الأولون)**(٤).

وثالثاً: أمم الإنس، التى هى سبعون عددياً وتاريخياً، ليست متساوية من حيث آجالها، إنما آجالها متباينة، بل حتى لكل أمة منها أجل خاص بها، من حيث بدايته ومدته ونهايته، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ)**(٥).

لكن الله لن يُعجز نبيه الخاتم فى أمته الأمية، فيؤخرها سبحانه نصف يوم على الأكثر، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(إن الله تعالى لن يُعجزنى فى أمتى، أن يؤخرها نصف يوم)**(١)، أى يؤخر أجلها نصف «ألف» سنة مما نعده (٤٧/الحج)، أو بالأحرى يؤخر أجلها خمسمائة سنة.

٢٦- بداية ومدة أجلهما المسمى:

لا مشكلة هناك فى معرفة طريقة سريان هذا الأجل، ولا فى معرفة نهايته: ١- فهذا الأجل يسرى تباعاً وتنازلياً، أى لا يسرى متقطعاً ولا

---

(١) الألبانى: السابق – ص ٣٧٢ رقم ١٨١١.

تصاعدياً. ٢- وهو ينقضى بانقضاء اليوم الأخير منه، والذى تعددت وتباينت مسمياته اصطلاحياً، أى هو اليوم الآخر ويوم القيامة (١١٣/البقرة) ويوم الدين (٤/الفاتحة) ويوم الحساب (١٦/ص~) ومرسى الساعة (١٨٧/الأعراف) .... إلخ وبحسب الأحوال.

٣- ولأن هذا الأجل يسرى تباعاً وتنازلياً، فإن اليوم الأخير منه آت حتماً، مصداقاً لقوله تعالى مرة: **(إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا)**(١). وقوله تعالى مرة أخرى: **(وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا)**(٣).

لكن المشكلة فى مدة وبداية هذا الأجل، وبالتالى لا يزال يكتنفهما الغموض والإبهام والتجهيل لغاية الآن، رغم أن القرآن لم يُفرط فى بيانهما، وذلك كما يلى: ١- فمدة هذا الأجل هى الخمسون ألف سنة «الآخرة» من تاريخ الكون. ٢- وهذه المدة لا تبدأ من خلق السموات والأرض، إنما تبدأ من بعد خلقهما فى ستة أيام، أى تبدأ من تاريخ خلق البشر. ٣- بل هى – حتى – لا تبدأ إلا من تاريخ خلق أول وأقدم بشر بإطلاق، أى من تاريخ خلق البشر السماوى أو النورانى وهم الملائكة.

فالملائكة، ليسوا فقط أسبق البشر وجوداً من الوجهة التاريخية، إنما هم أيضاً البشر الذى بمقدوره أن يعرج فى معارج الله، سواء معارجه فى السماء أو معارجه فى الأرض، وباعتبار تلك المعارج هى السبل إليه سبحانه، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن جملة وتفصيلاً: **(سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ. لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ. مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ. تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ. فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا. إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا. وَنَرَاهُ قَرِيبًا)**(٢).

(١-٣) ٥٩/غافر، ٧/الحج.

(٢-٤) ١-٧/ المعارج، ١٥/ طه، ١٨٧/الأعراف، ٤٢-٤٤/النازعات.

كل ما هناك أن تاريخ خلق الملائكة، هو أمر خفى على البشر كافة ملكاً وجناً وإنساً، وبالتالى فإن اليوم الآخر من الأجل المسمى آت حتماً لكنه لن يأت إلا خفية على هؤلاء، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(إِنَّ السَّاعَةَ أَتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا)**(٢).

فتاريخ خلق الملائكة بمثابة غيب للبشر ملكاً وجناً وإنساً على السواء. وغيب لا يعلمه إلا الله وحده، وبالتالى يظل اليوم الآخر من الأجل المسمى بمثابة غيب للبشر، حتى لو سألوا عنه، مصداقاً لقوله تعالى مرة: **(يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً)**(٣). وقوله تعالى مرة أخرى: **(يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا. فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا. إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا)**(٤).

٢٧- مدى انقضاء أجلهما المسمى:

وعلى أى الأحوال، أوشكت الخمسون ألف سنة الآخرة من تاريخ الكون، على الانقضاء، أى انقضى منها الكثير ولم يبق إذن إلا القليل، وبالتالى أصبح اليوم الأخير منها قريباً، مصداقاً لقوله تعالى: **(اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ)**(١). وقول خاتم الرسل: **(بُعثت بين يدى الساعة)**(٢). وقوله أيضاً: **(بُعثت فى نسم الساعة)**(٣). وقوله كذلك: **(بُعثت أنا والساعة كهاتين)**(٤).

المطلب الرابع

---

(١) ١/القمر.

(٢-٤) الألبانى: السابق- ص ٥٤٥ رقم ٢٨٣١، ص ٥٤٦ رقم ٢٨٣٢، ص ٥٤٥ رقم ٢٨٢٩.

إسما إبنى آدم

٢٨- مدى مشكلتهما:

لا يزال شراح القرآن وقصصه ينهلون من «الكتاب المقدس»، دون القرآن والسنة، ولو فى شأن إسمى إبنى آدم على أقل القليل، أى إبنى آدم اللذين قدما قرباناً حال حياته (٢٧-٣١/المائدة).

وأصبح القرآن يبدو من ناحية، وكأنه قد فرط فى بيان إسميهما، حتى ولو لم يُفرط فى بيان أسماء «الأصنام»، سواء أصنام قوم نوح (٢٣/نوح)، أو أصنام أهل مكة وقت نزوله (١٩-٢٠/النجم). كما أصبح القرآن يبدو من ناحية أخرى، وكأن به أحاجى أو ألغاز فى شأن بعض «عناوين» السور القرآنية، كطه ويس وص~ على أقل الأقل.

بينما القرآن برئ من أى عوج (٢٨/الزمر)، خاصة لو كان العوج موجوداً فى الشراح، أو موجوداً - حتى - فى الكتاب المقدس (٧٦/النمل)، وبالتالى تتوزع محتويات هذا المطلب الراهن على الفروع التالية:

الفرع الأول: من هو طه؟

الفرع الثانى: من هو يس؟

الفرع الثالث: ما هى ص~؟

الفرع الأول

من هو طه؟

٢٩- لفظ «طه» :

هذا اللفظ، ليس مجرد لفظ لغوى، إنما هو «إصطلاح» فى القرآن كشريعة، وبالتالى «عنوان» سورة قرآنية قائمة بذاتها هى السورة رقم (٢٠)

أى «سورة طه». فضلاً عن كونه موضوع آية قرآنية قائمة بذاتها، هى الآية الأولى من تلك السورة، مصداقاً لقوله تعالى: **(طه)**([1]).

وهذا الاصطلاح هو «اسم» على أى الأحوال، وإسم «خلق» من خلق الله. وهذا الخلق ليس إنسياً فحسب، إنما أيضاً له نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)، ويجب إذن التمييز بين نشأتيه (٢٠/العنكبوت)، وذلك كما يلى:

٣٠- طه فى نشأته الأولى تاريخياً:

طه هو إسم أحد إبنى آدم اللذين قدما قرباناً، وإسمه قبل وقوع القتل. بل هو حتى إسم القاتل منهما، والذى تكلم أولاً منتوياً القتل مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: **(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ... فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ)**([2]).

لذا حتى السورة القرآنية التى حملت إسمه كعنوان لها، جاءت متقدمة عن نظيرتها التى حملت إسم القتيل كعنوان لها، وبالتالى فطه لم يكن إسم القتيل، الذى لم يكن أول من تكلم وقتذاك، إنما هو إسم القاتل.

٣١- طه الأخير تاريخياً :

طه هو إسم القاتل من إبنى آدم، قبل وقوع القتل، وحتى وقوعه. أما بعد القتل، فقد صار لهذا القاتل إسماً آخراً، جنباً إلى جنب إسمه الأول تاريخياً، وذلك تمييزاً له باعتباره أول من سن القتل تاريخياً.

إذ صار إسمه «طه ذو الكفل»، واختصاراً «ذو الكفل» (٨٥/الأنبياء، ٤٨/ ص~). بمعنى الذى يقع عليه دائماً «كفل» من دم كل نفس تقتل

([1-2]) ١/ طه، ٢٧ و ٣٠/ المائدة.

ظلماً بعدئذ وإلى يوم القيامة، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى شأنه: **(لا تُقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه أول من سن القتل)**([1]).

٣٢- بعثته :

على أن ذنب ذى الكفل لم يحل دون بعثته بعدئذ نبياً ورسولاً، ولو كان ذنبه هو قتل نفس، مثلما ذنب موسى وهو قتل نفس أيضاً لم يحل دون بعثته بعدئذ بعشر سنين، مصداقاً لقوله تعالى على لسان موسى: **(قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ)**([2]).

لكن بعثة أيهما لن تمنع عنه كفله، حسناً كان هذا الكفل أو سيئاً بحسب الأحوال، مصداقاً لقوله تعالى:**(مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا)** ([3]).

فذنب موسى مثلاً، سيكون مانعاً له من الاستشفاع للناس يوم القيامة، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: **(فيأتون موسى، فيقولون: يا موسى، أنت رسول الله، فضلك الله برسالاته وبكلامه على الناس. إشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟. فيقول: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله. ولن يغضب بعده مثله. وإنى قتلت نفساً لم أومر بقتلها، نفسى نفسى نفسى، إذهبوا إلى غيرى)**([3]).

([1]) الألبانى: السابق – ص ١٢٣٢ رقم ٧٣٨٧.

([2-3]) ٣٣/ القصص، ٨٥/النساء.

([3]) الألبانى: السابق – ص ٣٠٨ رقم ١٤٦٦.

وهكذا حتى «النبى» الذى قتل قبل بعثته، نفساً بغير نفس، هو خلق من خلق الله، وله إذن نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)، ويجب التمييز بين نشأتيه (٢٠/العنكبوت): ففى نشأته الأولى تاريخياً، هو «طه ذو الكفل» واختصاراً «ذو الكفل». أما فى نشأته الآخرة تاريخياً، فهو «موسى» بن عمران. وهما متعاقبان زمانياً، ومتباعدان تاريخياً، وبينهما قرون طوال للغاية. ولو أن أولهما قتل خارج مصر وحال حياة آدم، بينما الآخر قتل فى منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد فى مصر.

٣٣- دوره فى سبيل الله:

زامل ذو الكفل إدريس، وأقاما لأول مرة تاريخياً، أول بيت للناس ببكة، ثم بيت المقدس، ثم تمثال رأس آدم بالجيزة أى أبو الهول، وذلك فى غضون القرن الأول من الثلث الأخير من عمر آدم، وسنزيد هذا الموضوع تفصيلاً من بعد.

٣٤- ظاهرة الإسمين فى القرآن:

هذه الظاهرة لا تقتصر على طه وحده، الذى هو أيضاً ذو الكفل. إنما هى تطال أيضاً إل ياسين الذى هو إسماعيل. كما تطال إسحق الذى هو شعيب، وكذا إسرائيل الذى هو يعقوب، وكذا المسيح الذى هو عيسى، وحتى إسم خاتم الرسل:

فإسمه فى نشأته الأولى تاريخياً: هو «أحمد»، مصداقاً لقوله تعالى على لسان عيسى: **(وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم ... وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ)** ([1]).

([1-3]) ٦/ الصف، ١٤٤/آل عمران، ٢/محمد.

([4]) الألبانى: السابق – ص ٣١٠ رقم ١٤٧٣.

وإسمه فى نشأته الآخرة تاريخياً هو: «مُحمد» مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: **(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ)** (٢). وقوله تعالى: **(وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ)**(٣). هذا ولو أضاف خاتم الرسل إليهما جانباً من أدواره الموضوعية، وذلك بقوله: **(أنا محمد، وأحمد، والمقفى، والحاشد، ونبى التوبة، ونبى الرحمة، ونبى الملحمة)**(٤).

وعلى أى الأحوال، لا إسم خاتم الرسل هو طه، ولا هو يس، لا على الحقيقة ولا على المجاز، ولا إسما ابنى آدم هو «قايين وهابيل» على الإطلاق، وبصرف النظر عما فى الكتاب المقدس (٧٦/النمل).

الفرع الثانى

من هو يس؟

٣٥- لفظ «يس»:

هذا اللفظ، ليس مجرد لفظ لغوى، إنما هو «اصطلاح» فى القرآن كشريعة، وبالتالى «عنوان» سورة قرآنية قائمة بذاتها هى السورة رقم (٣٦)، أى «سورة يس». فضلاً عن كونه موضوع آية قرآنية قائمة بذاتها، هى الآية الأولى من تلك السورة. مصداقاً لقوله تعالى: **(يس)**(١).

وهذا الاصطلاح هو «إسم» على أى الأحوال، وإسم «خلق» من خلق الله. وهذا الخلق، ليس إنسياً فحسب، إنما له أيضاً نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)، ويجب إذن التمييز بين نشأتيه (٢٠/العنكبوت)، وذلك كما يلى:

(١-٢) ١/ يس ، ٢٧-٢٩/المائدة.

٣٦- يس فى نشأته الأولى تاريخياً:

يس هو إسم أحد إبنى آدم اللذين قدما قرباناً، بل هو حتى إسم من تكلم مؤخراً منهما، وبالتالى جاءت السورة التى تحمل إسمه كعنوان لها متأخرة ترتيباً عن نظيرتها التى حملت إسم الآخر وهو طه باعتباره القاتل.

إذن هو إسم القتيل الذى تكلم مؤخراً آنذاك، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ. لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ. إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ)**([٢]).

ورغم أن يس لم يكن نبياً أو رسولاً وقت قتله، فإن الله قد «ترك» عليه فى الآخرين، شأنه فى ذلك شأن الأنبياء والمرسلين الذين ترك الله عليهم فى الآخرين، كنوح (٧٨/الصافات) وإبراهيم (١٠٨/الصافات) وموسى وهارون (١١٩/الصافات) .... إلخ.

فسبحانه ترك على «يس» فى الآخرين، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه وعقب قصتهما مباشرة: **(مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا)**([١]).

كما أن سبحانه ترك عليه فى بنى إسرائيل أيضاً، مبدأ: المقاصة فى الدماء، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ**

([١-٤]) ٣٢/المائدة، ٤٥/المائدة، ١٧٨-١٧٩/البقرة، ٣١/المائدة.
([٥]) الألبانى: السابق – ص ١٠٨ رقم ٢٤٩.
([٦]) ١٢٩-١٣٢/الصافات.

بِـالنَّفْسِ وَالْعَـيْنَ بِـالْعَيْنِ وَالأَنـفَ بِـالأَنفِ وَالأُذُنَ بِـالأُذُنِ وَالسِّـنَّ بِالسِّـنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ)(٢).

وأيضاً، سبحانه ترك عليه – حتى – فى الأمة الأمية، القصاص والمقاصة فى الدماء، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ... وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِـيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)**(٣).

بل إنه سبحانه ترك عليه أيضاً، وجوب دفن موتى الإنسان فى الأرض، ودفن القتلى على حالهم أى دون غسل، مصداقاً لقوله تعالى: **(فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ)**(٤). وقول خاتم الرسل: **(إدفنوا القتلى فى مصارعهم)**(٥).

٣٧- يس الآخر تاريخياً:

هو «إل ياسين» الذى كان نبياً ورسولاً، وترك الله عليه فى الآخرين، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: **(وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ. إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)**(٦).

وإل ياسين بالعربية الجامعة والذى ترك الله عليه فى الآخرين (١٢٩/الصافات)، هو «إسماعيل» بالعربية الخاتمة، والذى ترك الله عليه فى الآخرين، شأنه فى ذلك شأن أبيه إبراهيم من قبل، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: **(وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاء الْمُبِينُ. وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ. وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ**

فِي الْآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ. كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)([1]).

فكلاهما لم يترك الله عليه فى الآخرين فحسب، إنما عليه أيضاً سلام، أى سلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً (١٥/مريم، ٣٣/مريم). بل حتى كان كلاهما حليماً (١١٤/التوبة، ١٠١/الصافات).

والله لم يترك على إسماعيل فى الآخرين، الفداء بالذبح فحسب، إنما أيضاً الصلاة والزكاة اللتان كان يأمر بهما أهله بعد أن كذبه قومه، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه **(وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا)**([2]).

ولفظ «الصلاة» لم يرد على لسان أحد من الأنبياء والمرسلين قبل إبراهيم، الذى بدوره لم يذكر هذا اللفظ إلا بمناسبة توطين إبنه إسماعيل رضيعاً مع أمه، فى واد غير ذى زرع لكى يقيموا الصلاة بعدئذ فى بيت الله، مصداقاً لقوله تعالى على لسان إبراهيم: **(رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ ...)**([3]).

بل سبحانه ترك على إسماعيل فى الآخرين، حتى العربية الخاتمة، التى كان إسماعيل أول من تلقاها مباشرة من ربه وهو إبن أربع عشرة سنة، أى قبل أن يولد إسحاق، وقبل أن يولد – حتى – يعقوب.

٣٨- آل ياسين:

إسماعيل أسبق فى الوجود تاريخياً، ليس عن إسحق فحسب، إنما عن يعقوب أيضاً، الذى له آل هم «آل يعقوب» (٦/مريم)، كالأسباط ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان وذكريا ويحيى وعيسى ومريم وعمران ... .

([1-3]) ١٠٤-١١١/الصافات، ٥٥/مريم، ٣٧/إبراهيم.

فلا يجوز بعدئذ إنكار وجود «آل إسماعيل»، أى «آل ياسين»، وهم إلياس وإليسع ويونس وخاتم الرسل مصداقاً لقوله: **(منهم أربعة من العرب: .... و .... و .... ونبيك يا أبا ذر)**([1]). هذا ولم يتضمن الحديث تعدادهم الصحيح كاملاً وذلك بخطأ الراوى، الذى لم يكن يُدرك – حتى – أن شعيب هو إسحاق، وإسحاق هو شعيب، الذى ليس إذن من آل ياسين.

الفرع الثالث

ما هى ص~؟

٣٩- لفظ « ص~»:

هذه الصاد، ليست مجرد «حرف» أبجدى عربى، إنما هى لفظ قائم بذاته، ولو أن هذا اللفظ ليس مجرد لفظ لغوى، إنما هو «اصطلاح» فى القرآن كشريعة، وبالتالى «عنوان» سورة قرآنية قائمة بذاتها هى السورة رقم (٣٨)، أى «سورة ص~». فضلاً عن كونه أول اصطلاح فى أول آية قرآنية فى تلك السورة، مصداقاً لقوله تعالى: **(ص~ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ)**([2]).

ولولا وجود هذه الصاد فى مقدمة الآية، ما استقامت هذه الآية نحوياً. إنما بوجودها صار معنى هذه الآية تأويلياً ونحوياً هو: أن لغة الصاد العربية جزء لا يتجزأ من لغة القرآن «ذى» الذكر، أو أن لغة الصاد إحدى لغات القرآن «ذى» الذكر. أما بدونها، فهو القرآن «ذو» الذكر.

وألفاظ لغة الصاد العربية فى القرآن، واردة عداً وحصراً، ومنها طه ويس و ق .... إلخ. وهى لغة عربية، ولو لم تكن لغة ضاد، بل هى حتى أسبق فى الوجود تاريخياً من لغة الضاد العربية.

([1]) مشار إليه لدى ابن كثير: قصص الأنبياء – ط ١- مكتبة الإيمان بالمنصورة – ص ٧٧ و ص ١٦٢ على التوالى.

([2]) ١/ ص~.

٤٠ – لغة الصاد العربية :

إذن لفظ «ص~» هو إسم على أى الأحوال، واسم «خلق» من خلق الله، ولو أن هذا الخلق هو لغة. وهذه اللغة ليست عربية فحسب، إنما هى أيضاً أول وأقدم لغة عربية تاريخياً، بل هى حتى لغة عربية قائمة بذاتها، أى لها استقلالها. فهى لغة الصاد العربية، واللغة العربية الفاتحة تاريخياً.

وهى لم تنشأ لأول مرة تاريخياً قبل خلق آدم فحسب، إنما أيضاً قبل خلق الجان، وبالتالى كانت لغة الملائكة. وهى لم تكن تقوم إلا على أربعة عشر حرفاً أبجدياً على الأكثر، وليس من بين حروفها حرف «الضاد» على الإطلاق، وبالتالى فهى ليست لغة ضاد ولو أنها لغة عربية، أى هى لغة عربية ولو أنها لغة الصاد.

وهى بهذا تختلف عن لغة «الإنسان» العربية بنوعيها، سواء العربية الجامعة أى لغة آدم تاريخياً (٣١–٣٣/البقرة)، أو العربية الخاتمة أى لغة إسماعيل تاريخياً، وكلتاهما تقوم على ثمانية وعشرين حرفاً أبجدياً، ومن بين حروفها حرف الضاد، الذى يميزها عن العربية الفاتحة من ناحية، وعن أى لغة أخرى للإنسان من ناحية أخرى، أى يميزها عن أى لغة أعجمية.

٤١ – لغات القرآن العربية :

وهكذا لم ينزل القرآن بلغة عربية واحدة، ولا حتى باثنين من اللغات العربية، إنما نزل بجمع من اللغات العربية مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: **(فُضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم و ....)**([1]).

([1-2]) الألبانى: السابق – ص ٧٧٨ رقم ٤٢٢٢، ص ٢٤١ رقم ١٠٨٥.

إذ نزل القرآن بكل اللغات العربية تاريخياً، وهى ثلاث كما يلى: العربية الفاتحة تاريخياً والعربية الجامعة تاريخياً والعربية الخاتمة تاريخياً، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: (**أعطيت فواتح الكلام، وجوامعه، وخواتمه**)([٢]).

وبعبارة أخرى، نزل القرآن بلغة الصاد جنباً إلى جنب لغة الضاد، وبلغة الضاد الجامعة جنباً إلى جنب لغة الضاد الخاتمة، وبالتالى فالقرآن لم ينزل بلغة عربية واحدة كما يعتقد اللغويون عامة والعرب خاصة وحتى المصريون الذين لم يجدوا إسماً يليق بالعربية الفاتحة سوى «الكلام العاطل» فى القرآن([٣])، أى العاطل من حيث معناه ومن حيث دوره فى القرآن.

٤٢ – قابلية لغة الصاد للتأويل:

لغة الصاد العربية، وإن كانت لغة الملائكة تاريخياً، لكنها لغة عربية على أى الأحوال، وبالتالى ليست عصية على التأويل، أى لا حروفها الأربعة عشر ولا ألفاظها الأربعة عشر عصية على التأويل، الذى هو أحسن تفسير بالحق (٣٣/الفرقان):

فأولاً: من حروفها الأربعة عشر ثلاثة منقوطة هى: النون والقاف والياء، ومنها أحد عشر غير منقوطة هى: أ ، ح ، د ، س ، ص ، ط ، ع ، ك ، ل ، م ، هـ. ولو رُتبت هذه الحروف فى شكل قاعدة واحدة، فإنها تتمخض عن قاعدة تتعلق بمفهوم القرآن كشريعة أو بمفهوم الشريعة كقرآن، أى كلاهما هو «نص حكيم قاطع له سر».

([٣]) انظر مثلاً، عبد العظيم المطعنى: الكلام العاطل – مقالة في مؤلف جماعى صادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بعنوان «حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين» – ٢٠٠٢ – ص ٥٨ – ٦٢.

وهكذا فلغة الصاد ليست أصل لغة القرآن أو الشريعة فحسب، إنما هى أيضاً أصل مفهومه تأويلياً، الذى بدوره يوجب البحث علمياً عن سره، أى يوجب البحث عن سره العلمى، الذى يتمثل فى «علم التأويل» بنشأتيه الأولى والآخرة اللتين نزل بهما سلطاناً من الله فى القرآن ذاته.

٤٣- وثانياً: لا يوجد من ألفاظ لغة الصاد فى القرآن، سوى أربعة عشر لفظاً هى: الر، الم، المص، المر، حم، ص~، حم عسق، طس، طسم، ق، كهيعص، ن، يس، طه. وإذا كانت ألفاظ: يس وطه و ص~ ذات معانى مفهومة تأويلياً وذلك على نحو ما بيناه آنفاً، لكنها ليست وحدها التى تقبل التأويل.

فلفظ «ق» مثلاً، له معنى مفهوم تأويلياً وذلك على نحو ما سنعرضه من بعد. وكذا لفظ «الر» الوارد فى مفتتح خمس سور هى: يونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر. فهو نصف لفظ «الرحمن» بلغة الضاد، والذى اتخذه القرآن عنواناً لسورة قرآنية قائمة بذاتها، هى «سورة الرحمن»، كما اتخذه موضوعاً لأول آية فى تلك السورة.

وكذا لفظ «المر» الوارد فى مفتتح سورة الرعد. فهو نصف لفظ «المرسلات» بلغة الضاد، والذى اتخذه القرآن عنواناً لسورة قرآنية قائمة بذاتها هى «سورة المرسلات».

وكذا لفظ «حم» الوارد فى مفتتح ست سور قرآنية هى: غافر، وفصلت، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف. فهو نصف لفظ «حميد» بلغة الضاد، والذى هو توأم لفظ «مجيد».

٤٤- الخلاصة:

من يتعامل مع تلك «الألفاظ» وكأنها ألغاز وأحاجى موجودة فى القرآن، فإنه يضع نفسه إزاء ثلاثة خيارات خاطئة للغاية، بشأن طه ويس على أقل الأقل: فإما أن يستبدل بهما «قايين وهابيل» فى الكتاب المقدس([1]). وإما أن يخلعهما أو أحدهما على خاتم الرسل. وإما أن يتجاهلهما كما لو كانا غير موجودين فى القرآن، حتى لو كانا عنوانين فى سورتين قرآنيتين. وهى كلها خيارات خاطئة خطأ لا يُغتفر قرآنياً.

المطلب الخامس

دور أيوب

٤٥- نسبه :

أيوب ليس من ذرية آدم مباشرة، وبالتالى ورد ذكره فى «قائمة» ذرية نوح وإبراهيم الواردة فى سورة الأنعام، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وأيْوب)**([2]).

ولا هو إذن من ذرية إبراهيم مباشرة (٨٤/الأنعام)، إنما من ذرية نوح مباشرة. بل هو – حتى – الابن الوحيد لنوح بعدما أغرق إبنه الآخر فى الطوفان (٤٣/هود). وقد ورد ذكر أيوب فى القرآن أربع مرات (١٨٦/النساء، ٨٤/الأنعام، ٨٣/ الأنبياء، ٤١/ص~).

([1]) أكثر الأفكار تحريضاً على الرجوع إلى الكتاب المقدس بعد نزول القرآن، والرجوع إليه كدليل من الأدلة الشرعية في ظل وجود القرآن والسنة، هى فكرة «شرع من قبلنا» التى ترددها مؤلفات أصول الفقه لغاية الآن، دون مراعاة لما أحدثه القرآن لبنى إسرائيل خاصة (٧٦/النمل)، وما استحدثه للناس كافة (١٠٦/البقرة)، وما تضمنه من بيان لكل شئ بإطلاق (٨٩/النحل) ودون تفريط في أى شئ على الإطلاق (٣٨/الأنعام).

([2]) ٨٤/الأنعام.

وهو بهذا، ليس من الأنبياء والمرسلين فحسب، إنما أيضاً أسبق فى الوجود تاريخياً من إبراهيم ولوط وكلاهما ليس من ذرية نوح مباشرة، إنما من شيعته على الأكثر مصداقاً لقوله تعالى فى شأن نوح وإبراهيم: **(وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ)**([1]).

وليس فى القرآن ولا فى السنة أشخاصاً باسم «قايين وهابيل» كذرية لآدم، ولا بإسم «سام وحام ويافث» كذرية لنوح، ولا بإسم «تارح» كوالد لإبراهيم، وبالتالى فهى أسماء وهمية ولو كانت موجودة فى الكتاب المقدس (٧٦/النمل).

٤٦ – وجهته بعد الطوفان :

أيوب إذن من أهل نوح الذين نجاهم الله مصداقاً لقوله تعالى: **(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ. وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ)**([2]). لكن بعد نجاته من الطوفان، لم يعد أيوب إلى حيث كان موجوداً هو ووالده قبل الطوفان، أى لم يعد إلى الأحقاف.

أما الشخص الذى نجاه الله من الطوفان وعاد إلى الأحقاف حيث كان موجوداً قوم نوح قبل الطوفان، فهو «عاد»، الذى لم يُصبح عاداً إلا لأنه عاد. ونشأت به بعدئذ «عاد الأولى» تاريخياً (٥٠/النجم)، التى أرسل إليها هود، مصداقاً لقوله تعالى بعد قصة نوح: **(ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ. فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ)**([3]).

([1-2]) ٨٣/الصافات، ٧٥–٧٦/الصافات.

([2-3]) ٣١–٣٢/المؤمنون، ٦٩/الأعراف، ٢١/الأحقاف.

([4-5]) ٤١/ص~، ٨٣/الأنبياء.

([6-7]) الألبانى: السابق – ص ٧٣٢ رقم ٣٩٥١، ص ٧٣١ رقم ٣٩٤٦.

وقوله تعالى على لسان هود: **(أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)**(٢)، وقوله تعالى: **(وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ)**(٣).

أما أيوب الذى زامل «عاد» فى السفينة، فإنه إذن أسبق فى الوجود تاريخياً من هود الذى أرسل إلى عاد، وأسبق منه بكثير جداً. وكان أيوب قد توجه إلى «بكة» آنذاك حيث يوجد البيت العتيق الذى تهدمت جدرانه بالطوفان.

٤٧ – مرضه :

أصيب أيوب فى بكة بمرض جسدى على يد الشيطان، مصداقاً لقوله تعالى على لسانه: **(وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ)**(٤). وكان مرضه بهذا مرضاً عضالاً مصداقاً لقوله تعالى على لسانه: **(وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)**(٥).

إذ كان أيوب مصاباً بالطاعون مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(الطاعون وخز أعدائكم من الجن)**(٦). وقوله أيضاً فى هذا الشأن: **(الطاعون ... وخز أعدائكم من الجن. غدة كغدة الإبل تخرج فى الآباط والمراق ..)**(٧).

وهذا المرض صار رحمة بعد أن كان عذاباً، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(الطاعون كان عذاباً يبعثه الله على من يشاء. وأن الله جعله**

رحمة للمؤمنين)([1]). فهو رحمة لمن مات منه، حيث يموت شهيداً لو كان مسلماً، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(الطاعون شهادة لكل مسلم)**([2]).

والطاعون مرض معدى، وبالتالى يوجب عزل المرض عن الأصحاء، كغيره من الأمراض المعدية مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(لا يوردن ممرض على مصح)**([3]). كما يوجب – حتى – عزل الأصحاء عن المرضى، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوا عليه. وإذا وقع وأنتم بأرض فلا تخرجوا فراراً منه)**([4]). وهو بهذا لا يوجب وجود المشافى لعزل المرضى فيها فحسب، إنما يوجب أيضاً وجود الحجر الصحى عامة.

٤٨ – زمزم طعام وشفاء :

لفظ «زمزم» هو إسم على أى الأحوال، وإسم «خلق» من خلق الله. وهذا الخلق، ليس «ماءً» فحسب، إنما أيضاً له نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)، ويجب إذن التمييز بين نشأتيه (٢٠/العنكبوت)، وذلك كما يلى:

فأولاً: كانت نشأة زمزم لأول مرة تاريخياً، فى عصر أيوب ببكة آنذاك، حيث كان يسكن – حتى – فى «واد» غير ذى زرع عند بيت الله الحرام، أى عند البيت العتيق، الذى هدم الطوفان جدرانه ولم تتبق منه إلا قواعده وقتذاك، ولو لم تكن إقامة جدرانه من شأن أيوب، الذى كان من شأنه تفجير ماء زمزم.

([1-4]) الألبانى: السابق – ص ٧٣٢ رقم ٣٩٤٩، ص ٧٣٢ رقم ٣٩٤٧، ص ١٢٨٨ رقم ٧٨١٠، ص ١٦٧ رقم ٦١٦.

فأيوب مريضاً وواهناً ووحيداً وطريحاً على ظهره، هو أول من فجر ماء زمزم برجله، وذلك بأمر ربه، مصداقاً لقوله تعالى إلى أيوب: **(ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ)**(١). وكان فى هذا الماء الطعام والشفاء على السواء، لأيوب المريض وقتذاك، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ)**(٢).

وآنذاك، لم تكن زمزم مجرد عين بئر على نحو ما هى عليه الآن، إنما كانت أكثر من ذلك، أى كانت «مغتسلاً»، لكنها لا تزال لغاية الآن طعاماً وشفاء على السواء، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(زمزم طعام طعم، وشفاء سقم)**(٣).

وثانياً: كانت نشأة زمزم لآخر مرة تاريخياً، فى عصر إسماعيل ببكة، حيث كان يسكن هو وأمه فى نفس الواد. فإسماعيل طفلاً رضيعاً ووحيداً وطريحاً على ظهره، فجر ماء زمزم برجله، ولو أن أمه هاجر لم تصبر عليها حتى تصبح مغتسلاً كما كانت، إنما حوطت عليها واغترفت منها بيديها لكى تسقى رضيعها، وبالتالى صارت مجرد عين بئر، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(يرحم الله أم إسماعيل، لولا أنها عجلت لكانت زمزم عيناً معيناً)**(٤). وقوله أيضاً: **(يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم، أو قال لو لم تغرف من الماء، لكانت عيناً معيناً)**(٥).

٤٩- رجم إبليس الرجيم :

(١-٢) ٤٢/ص~، ٨٤/الأنبياء.

(٣-٥) الألبانى: السابق – ص ٦٦٨ رقم ٣٥٧٢، ص ١٣٤٣ رقم ٨٠٨٠، ص ١٣٤٢ رقم ٨٠٧٩.

أيوب لم يُطعن بالطاعون إلا على يد الشيطان (٤١/ص~)، الذى هو العدو المبين للإنسان (٥٣/الإسراء). بل هو حتى العدو غير المرئى للإنسان، الذى هو مرئى للشيطان وقبيله، مصداقاً لقوله تعالى: **(يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ)**(١).

بل هو أيضاً العدو الذى يجب رجمه، مصداقاً لقوله تعالى إليه قديماً: **(قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ)**(٢). ولفظ «الرجم» هو اسم على أى الأحوال، وإسم «خلق» من خلق الله. وهذا الخلق له نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات) ويجب إذن التمييز بين نشأتيه (٢٠/العنكبوت)، وذلك كما يلى:

فأولاً: رجم الشيطان لأول مرة تاريخياً، كان على يد أيوب، الذى أقسم حال مرضه، أن يضرب المتسبب فى مرضه بالطاعون أى يضرب الشيطان، لو أن الله شفاه من مرضه، وبالتالى بيَّن الله له كيف يضربه لكيلا يحنث فى قسمه بالله، مصداقاً لقوله تعالى إلى أيوب: **(وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ)**(٣).

وأيوب أسبق فى الوجود تاريخياً من إبراهيم، الذى هو أول من أذن فى الناس بالحج (٢٧/الحج)، وبالتالى لم يكن رجم إبليس فى عصر أيوب قد أصبح بعد من شعائر الحج، أى أن هذا الرجم بدوره كان أسبق فى الوجود تاريخياً من الحج ذاته.

وثانياً: رجم الشيطان لآخر مرة تاريخياً، كان على يد خاتم الرسل، وبمناسبة حجة الوداع، حيث صار الرجم من شعائر الحج، ولو لم يتجاوز هذا الرجم مجرد الضرب بضغث، الذى لا يتجاوز سبع حصوات، يُرمى

(١-٣) ٢٧/الأعراف، ٧٧/ص~، ٤٤/ص~.

بها الشيطان فى منى، ويُرمى رمياً متتالياً فى يوم النحر وما يليه من أيام. ولا يُغنى عن هذا الرجم، مجرد سب الشيطان كلاماً، بل إن هذا السب منهى عنه، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(لا تسبو الشيطان، وتعوذوا بالله من شره)**([1]).

٥٠- دور أيوب فى سبيل الله:

هو دور مزدوج، أى يتعلق بتفجير ماء زمزم من جانب، وبرجم إبليس من جانب آخر، وكلاهما ارتبط بـ «بكة» بلغة آدم الجامعة أو «مكة» بلغة إسماعيل الخاتمة، ارتباطاً تاريخياً سابقاً على عصرى إبراهيم وإسماعيل، وممتداً لغاية الآن وإلى مالا نهاية.

فلا زمزم ولا رجم لإبليس إلا فى مكة، باعتبارها عاصمة الأرض، وبالتالى بها أول بيت وضع للناس، أى البيت العتيق.

المطلب السادس

دور عمران

٥١- تقديم:

بالله عليك، كيف تستعذب قراءة سورة «آل عمران» مثلاً، إذا كنت لا تعرف من هو «عمران» هذا الذى له «آل» هم آل عمران، ولا تعرف إذن دوره شخصياً فى سبيل الله، حتى لو كنت تعرف أدوار آله واحداً بواحد؟

على أى الأحوال، لفظ «عمران» هو إسم، وإسم خلق من خلق الله. وهذا الخلق ليس إنسياً فحسب، إنما له أيضاً نشأتان تاريخياً

([1]) الألبانى: السابق – ص ١٢٢٣ رقم ٧٣١٨.

(٤٩/الذاريات) ويجب إذن التمييز بين نشأتيه (٢٠/العنكبوت): وذلك على التفصيل التالى.

٥٢- عمران الآخر تاريخياً:

عمران فى نشأته الآخرة تاريخياً، هو والد مريم أم المسيح عيسى، والذى لم يكن نبياً أو رسولاً أو حكيماً أو واعظاً، ولا له آل. ولا يُعرف عنه شيئاً سوى أنه لم يكن سيئاً على الأكثر، مصداقاً لقوله تعالى: **(يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ)**(١).

ومريم بهذا لم تكن من «آل موسى» (٢٤٨/البقرة) على أى الأحوال. إنما هى كوالدها ووالدتها من قبلها وكإبنها من بعدها، من «آل هارون» (٢٨/مريم) على الأقل. وبذا فإبنها عيسى شأنه شأن هارون، أى كلاهما من ذرية إبراهيم (٨٤-٨٦/الأنعام) على أى الأحوال.

وهى لم تسمى بمريم ولا أبوها سمى بعمران، إلا كتقليد يهودى، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(إنهم كانوا يُسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم)**(٢). فهى مسماة على إسم مريم أخت موسى وهارون، وأبوها مسمى على إسم عمران والد الثلاثة، وذلك رغم انقضاء ألف وخمسمائة سنة عليهم، ورغم أنهم كانوا فى مصر وليسوا فى فلسطين.

وأمها كنيت قرآنياً بـ «امرأة عمران» (٣٥/آل عمران). بينما كنيت هى بـ «أخت هارون» (٢٨/مريم). كما كُنى عيسى بـ «ابن مريم» (٣٤/مريم).

٥٣- عمران الأول تاريخياً:

---

(١) ٢٨/ مريم.

(٢) الألبانى: السابق – ص ٤٧٩ رقم ٢٤٤٢.

نشأة عمران لأول مرة تاريخياً، كانت فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وفى مصر، حيث تزوج وأنجب وزوجته أولاده هارون وموسى وأختهما مريم، أى جميعهم من مواليد مصر، وشأنهم فى ذلك شأن المسيح عيسى. ولو أنهم من مواليد مشارق مصر، بينما المسيح من مواليد مغاربها المباركة، وذلك على نحو ما سنعرضه من بعد.

وقد أفاض القرآن فى بيان أعمال «آله»، سواء أعمال زوجته أو إبنته أو إبنيه، بل حتى خصهم على استقلال بعنوان سورة قرآنية قائمة بذاتها، هى السورة رقم (٣)، أى «سورة آل عمران».

ثم أفاض القرآن بعدئذ فى بيان دور عمران على استقلال، بل حتى خصه بعنوان سورة قرآنية قائمة بذاتها، هى السورة رقم (٣١)، أى «سورة لقمان». فلقمان هو إذن عمران، وعمران هو لقمان.

وهو الذى تلقى مباشرة من ربه علم الحكمة، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: **(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)**(١). وقد أوتى بهذا خيراً كثيراً، مصداقاً لقوله تعالى:**(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)**(٢). أى أوتى خيراً أكثر كثيراً من مجرد التفقه فى الدين، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين)**(٣).

لذا يُصبح من يُؤت الحكمة مثاراً لحسد مشروع، وكاستثناء على الحسد عامة، إذا وظفها فى القضاء وفى التعليم على السواء، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(لا حسد إلا فى اثنتين: رجل .... ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضى بها، ويُعلمها)**(٤).

٥٤- دور لقمان أو عمران :

(١-٢) ١٢/لقمان، ٢٦٩/البقرة.

(٣-٤) الألبانى: السابق – ص ١١٢٤ رقم ٦٦١١، ص ١٢٤٦ رقم ٧٤٨٨.

عمران أو لقمان أسبق فى الوجود تاريخياً من التوراة واليهودية والمحاريب، ومن الإنجيل والنصرانية والكنائس، وبالتالى لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولا كان – حتى – نبياً أو رسولاً أو راهباً أو كاهناً.... إلخ.

لكنه «أول» الدعاة فى سبيل الله من خارج إطار الأنبياء والمرسلين، وذلك بفضل الحكمة التى أوتيها مباشرة من ربه. فهذه الحكمة، ليست فقط من لوازم الدعوة إلى سبيل الله، إنما هى أيضاً أكثر لزوماً لها حتى من الموعظة الحسنة، التى تليها إذن فى ترتيب لوازم هذه الدعوة قانوناً (١٢٥/النحل).

ولذا كان لقمان أو عمران يعظ إبنه على الأقل، سواء إبنه الأكبر هارون، أو إبنه الأصغر موسى، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ ...)**([1]).

إذن لقمان أو عمران هو أول الدعاة إلى سبيل الله تاريخياً، ولو لم يكن نبياً أو رسولاً، بينما آخرهم تاريخياً هو خاتم الرسل، الذى كان مأموراً بمباشرة هذه الدعوة، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: **(ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ...)**([2]).

أما من يُنكر بعدئذ أن لقمان هو عمران والد هارون وموسى، وأن عمران هو لقمان، فليتفضل ببيان ماذا كان دور عمران فى سبيل الله من ناحية؟. وبيان من هو لقمان من ناحية أخرى([3])؟. وبيان من هو إبنه الذى وعظه من ناحية ثالثة؟. وبيان متى وأين كان لقمان وإبنه موجودين من ناحية رابعة؟. وبيان ما هو موضوع قصة لقمان من ناحية خامسة؟

([1-2]) ١٣/ لقمان، ١٢٥/النحل.

([3]) انظر جدلاً خيالياً حول ما إذا كان لقمان نبياً أم راهباً في أنطاكية مع بولس بعد موت المسيح، على جمعة: حتى لقمان نبى – مقالة في المؤلف الجماعى الصادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – السابق – ص٥١٥.

٥٥- موضوع قصة عمران أو لقمان:

قصة عمران أو لقمان فى القرآن، ستظل هى قصة «الخطبة الدعوية المثالية»، فى نشأتها الأولى تاريخياً فى مصر فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، أى قصة «الخطبة الدعوية النموذجية»، ولو خارج دور العبادة.

وحتى خاتم الرسل لم يكن يتجاوز هذا «النموذج» فى خطبه، التى كان يستهلها بحمد الله، وذلك نزولاً على قوله تعالى: **(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)**(١). لذا ستظل هذه الحكمة بمثابة المعنى التأويلى لاصطلاح «الحمد لله» حيثما وجد فى آيات القرآن، أى معناه الاصطلاحى.

وكان هذا النموذج للخطبة خالياً من لغو الكلام أى لهو الحديثِ، وذلك حتى من قبل أن يحظر القرآن لهو الحديث حظراً مطلقاً (٦/لقمان)، فأصبح محظوراً فلسفة كان هذا اللهو أو شعراً أو قصصاً خيالياً، ولهواً كان فى دور العبادة أو فى خارجها.

وحسبك فى أثر هذه الخطبة الدعوية على الموعوظين بها، أن تتمعن فى موقف موسى من جريمته قبل بعثته، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: **(وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ. قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ)**(٢).

٥٦- خلاصة المبحث الأول:

---

(١) ١٢/ لقمان.

(٢-٣) ١٥-١٧/القصص، ٤٨/إبراهيم، ١٤٦/الصافات.

لا ريب أن هناك «خطأ» ما فى تعاملك شخصياً مع القرآن، إذا لم تكن قد أدركت منه مباشرة أن يوم القيامة مثلاً، هو «اليوم الآخر» فى أجل السموات والأرض. ولا أدركت منه إذن أجلهما «المسمى» من حيث بدايته ومدته ونهايته. ولا أدركت منه – حتى – الجغرافية التى كانت موجودة قبلهما تاريخياً والتى ستكون موجودة حتماً بعد زوالهما فى آخر الزمان، وبالتالى لم تعرف شيئاً بعد عن «الأرضية» التى ستقف عليها فى اليوم الآخر مصداقاً لقوله تعالى بشأنها: **(يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)**(٢).

أولم تكن تقرأ «فهرس» عناوين السور القرآنية مثلاً. ولم تُدرك منه إذن تأويل هذه العناوين على استقلال، حتى تلك التى هى – فى نفس الوقت – موضوعات الآيات الأولى فى سورها، كطه ويس وصاد وقاف والطور والتين على الأقل، وبالتالى لم تعرف شيئاً بعد عن تلك «الألفاظ» والتى لها أدوارها فى تأويل القصص القرآنى.

فمثلاً، تأويل هذا الفهرس يمنعك وغيرك من استبدال «الدُباء» أى «القرع» بشجرة التين، ولو بشجرة التين فى نشأتها الأولى تاريخياً حيث كانت «شجرة اليقطين» مصداقاً لقوله تعالى بشأن يونس: **(وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ)** (٣). أما هذه الشجرة فى نشأتها الآخرة تاريخياً، فهى «شجرة التين»، التى هى عنوان سورة قرآنية قائمة بذاتها، هى السورة رقم (٩٥)، أى «سورة التين»، كما هى موضوع الآية الأولى من تلك السورة.

المبحث الثانى
جغرافية
نشأة الأرض

٦- تنبيه:

أنت كغيرك، وبالتالى لا تختلف عن كافة الناس عامة وفرادى (٢٨/سبأ)، أى أنت مخاطب بالقرآن، ولو أنهم خلقوا لأنفسهم مشكلة مؤخراً. فهم المسئولون عنها وهم ضحاياها فى نفس الوقت.

أما المشكلة، فهى تكذيبهم للصادقين وتصديقهم للكاذبين، وتخوينهم للأمناء، واستئمانهم للخائنين، وترئيسهم للتافهين ملوكاً وأباطرة وسلاطين ورؤساء وأمراء ووزراء وحكوميين وحكماء وعلماء وأئمة، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأنها: **(سيأتى على الناس سنوات خداعات، يُصدق فيها**

الكاذب، ويُكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويُخون فيها الأمين. وينطق فيها الرويبضة. قيل: وما الرويبضة؟. قال: الرجل التافه يتكلم فى أمر العامة)([1]).

فلا تكن جزءاً من سببها على الأقل، الذى هو حتماً قراءة القرآن شكلياً على الأكثر، أى دون فهم موضوعه تأويلياً على الإطلاق، وبما يترتب على ذلك من آثار سلبية وخيمة للغاية، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأنها: **(سيكون بعدى من أمتى قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز حلاقيمهم، يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية، ثم لا يعودون فيه. هم شر الخلق والخليقة، سيماهم التحليق)**([2]).

ولا تكن – من باب أولى – من مروجى الكذب فى الآفاق على أقل القليل، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأنهم واحداً بواحد: **(رأيت ... رجل جالس، ورجل قائم على رأسه بيده كلوب من حديد، فيدخله فى شدقه فيشقه حتى يخرجه من قفاه. ثم يخرجه فيدخله فى شدقه الآخر، ويلتئم هذا الشدق، فهو يفعل ذلك به، فقلت ما هذا؟ قال: .... أما الذى رأيت، فإنه رجل كذاب، يكذب الكذبة فتحمل عنه فى الآفاق. فهو يُصنع به ما رأيت إلى يوم القيامة، ثم يصنع الله تعالى به ما شاء ...)**([3]).

٥٨ – تقديم:

لا تزال الأرض Earth غامضة ومبهمة ومجهولة لغاية الآن، هى ومشاكلها التى تنعقد وتنفض لحلها المؤتمرات الدولية بصفة دورية من المؤتمرين، الذين لم يعرفوها من القرآن والسنة بعد، وبالتالى لم يعرفوا ما يلى على الأقل:

فأولاً: لم يعرفوا أن للسموات والأرض أجل مسمى (٨/الروم، ٣/الأحقاف١-٧/المعارج)، وذلك باعتبارهما خلقاً من خلق الله. وهذا

([1-3]) الألبانى: السابق – ص ٦٨١ رقم ٣٦٥٠، ص ٦٨٣ رقم ٣٦٦٢، ص٦٥٠ رقم ٣٤٦٢.

الخلق له نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)، ويجب إذن التمييز بين نشأتيه (٥٧/غافر)، وليس أكبر ولا أوسع من «كرسى الله» إنما العكس هو الصحيح (٢٥٥/البقرة).

وثانياً: لم يعرفوا أن تلك الأرض، لا هى كروية (٣٠/النازعات، ولا هى جامدة فى مكانها (٨٤-٩٨/الكهف)، ولا هى كاملة فى أطرافها (٤١/الرعد، ٤٤/الأنبياء)، ولا ما بها من بحار ورواسى وأنهار يعوق حركتها أو يميد بها (١٥/النمل، ٣١/الأنبياء، ١٠/لقمان). ولا ما بها من شجرة خبيثة (٢٦/إبراهيم) هى تلك التى أخرجت أبوينا من الجنة فحسب دون تلك الملعونة فى القرآن (٦٠/الإسراء).

وثالثاً: لم يعرفوا – حتى – أن تلك الأرض ليست مستقراً للإنس وحده دون الجن (٣٨/البقرة، ٢٤/الأعراف). ولا الإنس كانوا أحسن مردوداً من الجن حال سماعهم سورة الرحمن قديماً. ولا الإنس والجن لم ينفذوا بعد من أقطار السماوات والأرض، ولو لم ينفذوا إلا بسلطان من الله (٣٣/الرحمن) الذى خلق السموات والأرض.

وهذه المسائل يخلو منها الكتاب المقدس بعهديه والتراث العلمانى بعهديه على السواء، وبالتالى تتوزع محتويات المبحث الراهن على المطالب الأربعة التالية:

المطلب الأول: نشأتا السموات والأرض.
المطلب الثانى: بنيان الأرض شكلياً.
المطلب الثالث: رؤية ملكوت السماوات والأرض.
المطلب الرابع: النفاذ من أقطار السموات والأرض.

المطلب الأول
نشأتا السموات والأرض

٥٩- واجب التمييز بين نشأتيهما:

هـذا التمييـز واجـب قرآنيـاً (٢٠/العنكبـوت)، خاصـة أن الكتـاب المقدس يخلو تماماً من بيان نشأتى الأرض تاريخياً، كما يخلو تماماً من بيان نشأتى السماء تاريخياً، ولو أن هذا الكتاب لم يُنكر أن السموات والأرض خلق من خلق الله، وذلك فى مستهل أول أسفاره بإطلاق حيث قيل: «فى البدء خلق الله السموات والأرض»([1]).

الفرع الأول
أول نشأة
للسموات والأرض

٦٠- نشأتهما الأولى تاريخياً:

فـى بداية خلق السموات والأرض، كانتا رتقاً معاً، أى كانتا كتلة واحدة، أتت طوعاً لأمر الله وقد استوى سبحانه إلى السماء، التى لم تكن قد خُلقت بعد ومن ثم كان مكانها أثيراً أو دخاناً آنذاك، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)**([2]). وينبغى إذن مراعاة أمرين فى هذا الصدد:

أولاً: الدخان، أسبق فى الوجود تاريخياً من السموات والأرض. وهو ليس موجوداً فى الكون، إلا كخلق من خلق الله. وهذا الخلق، ليس قائماً بذاته أى له استقلاله فحسب، إنما له أيضاً نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات) ويجب إذن التمييز بين نشأتيه (٢٠/العنكبوت): ١- نشأته الأولى تاريخياً، والتى لم يشهدها الإنسان (٥١/الكهف) الذى لم يكن قد خلق

([1]) تك ١ : ١.

([2-2]) ١١/ فصلت، ٣٠/ الأنبياء.

([3]) الألبانى: السابق – ص ٤٠٥ رقم ٢٠١٧.

بعد. ٢- نشأته الآخرة تاريخياً بعد زوال السموات والأرض فى آخر الزمان. وهذه النشأة سيشهدها الإنسان يوم القيامة (٩-١٠/الدخان).

وثانياً: السماء والأرض أتيتا لأول مرة تاريخياً، من العدم وليس من انفجار كونى كما يزعم العلمانيون لغاية الآن. وأتيتا طوعاً، وليس كرهاً عنهما. وأتيتا بأمر الله، وليس تلقائياً من جانبهما كما يزعم العلمانيون لغاية الآن. وأتيتا رتقاً واحداً، أى كتلة واحدة، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا...)**(٢).

٦١- خلق ناطق:

وهذا الخلق هو خلق ناطق، ولو لم ينطق «لغة» بالمعنى الدقيق، إنما كان ناطقاً بالمنطق، أى هو من الناطقين بالمنطق، الذى هو أسبق فى الوجود تاريخياً من اللغة، ويؤرخ علمياً لهذا المنطق منذ «منطق» القلم (٤/العلق) الذى خلقه الله واستكتبه «كتاب القدر»، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأنه: **(إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. قال: يارب ما أكتب؟ ...)**(٣).

وبدهى أن المنطق حكر على الناطقين به فيما بينهم من ناحية وفيما بينهم وبين الله الذى علمهم إياه، ولم يعلمه بعدئذ للبشر ملكاً أو جناً أو إنساً، الذين علمهم سبحانه اللغة، وبالتالى فهم لا يفهمون حتى تسبيح الناطقين بالمنطق، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ .. وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)** (١).

---

(١) ٤٤/ الإسراء.

فالله لم يُعلم إذن هذا المنطق للإنسان، إلا كاستثناء، كتعليم سليمان منطق الطير (١٦/النمل) وكذا منطق النمل (١٩/ النمل). وكتعليم خاتم الرسل قبل بعثته منطق الحجر الأسود مصداقاً لقوله: **(إنى لأعرف حجراً بمكة، كان يُسلم علىَّ قبل أن أبعث)**([1]). وكذا تعليمه منطق جذع النخل الذى كان يقف عليه كمنبر فى مسجده، مصداقاً لقوله بشأن هذا الجذع: **(إن هذا بكى، لما فقد من الذكر)**([3]).

وهكذا فالسماوات والأرض خلق ناطق منذ نشأته لأول مرة تاريخياً، ولو لم يكن ناطقاً بلغة البشر الذى لم يكن قد خلق بعد آنذاك، إنما هما خلق ناطق بالمنطق، الذى لن يفهمه بعدئذ البشر كقاعدة عامة.

٦٢- خلق بكاء:

بل حتى هذا الخلق هو خلق بكاء، وذلك عند اللزوم، أى فى حالة الضرورة التى تقتضى هذا البكاء، وبأمر من الله، كما فى طوفان نوح مثلاً حينما فُتحت أبواب السماء بماء منهمر وفجرت الأرض عيوناً. لكن بكاء هذا الخلق لمن يكن لازماً، حال غرق فرعون وجنده مثلاً، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاء وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ)**([2]).

وكلتاهما كانت حالة إغراق للكافرين تاريخياً، لكن كان البحر وحده كافياً لأداء هذه المهمة بالنسبة لإغراق فرعون وجنده، أى أن هذا البحر شأنه شأن السموات والأرض من الجنود الإلهية التى لا يعلمها إلا الله، باعتبارهم جنوده سبحانه.

٦٣- خلق مُلتزم بقدره :

([1-3]) الألبانى: السابق – ص ٤٨٨ رقم ٢٤٨٧، ص ٤٤٨ رقم ٢٢٥٦.

([2]) ٢٩/الدخان.

كما أن هذا الخلق يُقدر نفسه حق قدرها. فهو يعلم أولاً أنه ليس مُيسراً إلا لما خلق له على الأكثر مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(كل مُيسر لما خلق له)**([1]). كما يعلم ثانياً أنه ليس ميسراً لحمل الأمانة مطلقاً، وبالتالى أشفق على نفسه منها لو حملها ومن ثم رفض حملها حينما عرضت عليه من ربه قبل عرضها على الإنسان بل حتى قبل خلق الإنسان، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ...)**([2]).

الفرع الثانى

آخر نشأة

للسموات والأرض

٦٤- نشأتهما الآخرة تاريخياً:

فى هذه النشأة الآخرة للسموات والأرض، لم تعودا كتلة واحدة كما فى نشأتهما الأولى تاريخياً، إنما أصبحتا مفتوقتين عن بعضهما، أى منفصلتين تماماً، وكل واحدة منهما على استقلال عن الأخرى، أى كل منهما قائمة بذاتها، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن:**(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ...)**([3]).

بل حتى لم تصبحا مفتوقتين عن بعضهما فحسب، إنما أصبحتا أيضاً مفتوقتين داخلياً، أى من داخلهما، وبالتالى صارت كل واحدة منهما سبعاً من الداخل، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ)**([2]).

([1]) الألبانى: السابق – ص ٨٣٧ رقم ٤٥٦١.

([2]) ٧٢/الأحزاب.

([3-7]) ٣٠/الأنبياء، ١٢/ الطلاق، ٥/الشمس، ٣/ الملك، ١٠/الدخان، ١٥/ نوح، ٤٠/الأعراف.

٦٥- سبع سماوات :

تمخض خلق السماء بنشأتيه الأولى والآخرة تاريخياً، عن بنيان سماوى قائم بذاته، أى له استقلاله، وبناه الخالق سبحانه مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا)**(٣).

وهذا البنيان مكون من سبع سماوات متدرجة فى طبقات يعلو بعضها بعضاً، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا)** (٤). وهى بهذا السماء إجمالاً مصداقاً لقوله تعالى: **(فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ)**(٥) والسماوات تفصيلاً مصداقاً لقوله تعالى: **(أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا)**(٦)، وبحسب الأحوال.

وليلة عُرج بخاتم الرسل إلى هذه السماوات، وجد أن لكل سماء بابها على استقلال. وهى أبواب لا تفتح إلا لمن صدق بآيات الله والتزم بها طوعاً وقبل بها رضاءً، مصداقاً لقوله تعالى: **(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء)**(٧).

كما لا تُفتح هذه الأبواب إلا بالطرق عليها، حتى لو كان القادم ممن صدقوا بآيات الله والتزم بها طوعاً وقبلها رضاءً، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَالسَّمَاء وَالطَّارِقِ)**(١). وقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: **(ثم عرج بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل، فقيل من أنت؟. قال: جبريل. قيل: ومن معك؟. قال: محمد. قيل: أو قد بُعث؟. قال: بُعث إليه؟. ففتح لنا)**(٢).

---

(١) ١/ الطارق.

(٢) الألبانى: السابق – ص ٨٦ رقم ١٢٧.

وليلتها قابل خاتم الرسل آدم فى السماء الأولى، وعيسى ويحيى فى السماء الثانية، ويوسف فى السماء الثالثة، وإدريس فى السماء الرابعة، وهارون فى السماء الخامسة، وموسى فى السماء السادسة، وإبراهيم فى السماء السابعة، وبمراعاة أن السماء الأولى هى السماء الدنيا مصداقاً لقوله تعالى: **(وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا)**(١).

كما رأى ليلتها الملائكة بكثرتهم البالغة، مصداقاً لقوله: **(أطت السماء ويحق لها أن تئط. والذى نفس محمد بيده، ما فيها موضع شبر إلا وفيه جبهة ملك ساجد يسبح الله بحمده)**(٢).

٦٦- مدة الخلق :

نشأتا السموات والأرض لم تستنفدا زمنياً أكثر من ستة أيام مصداقاً لقوله تعالى: **(وَهُوَ الَّذِي خَلَق السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)**(٣). وذلك على التفصيل التالى:

أولاً: نشأتا الأرض على استقلال، استنفدتا أربعة أيام، منها يومين فى خلق الأرض مصداقاً لقوله تعالى: **(خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ)**(٤). أما إعدادها وتمهيدها فقد استنفدا يومين آخرين، وبإجمالى أربعة أيام، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ)**(٢).

---

(١) ١٢/فصلت.

(٢) الألبانى: السابق – ص ٢٣٥ رقم١٠٢٠.

(٣) ٧/هود.

(٤-٣) ٩/ فصلت، ١٠/فصلت، ١١-١٢/فصلت.

وثانياً: أما نشأتا السماء على استقلال، فقد استنفدتا يومين، مصداقاً لقوله تعالى: **(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء ... فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)**(٣).

وهذه المدة سابقة تاريخياً على «أجل» السماوات والأرض، وبالتالى لا يسرى هذا الأجل من خلقهما أول مرة تاريخياً ولا من خلقهما لآخر مرة تاريخياً، إنما يسرى بعد تمام خلقهما، أى أن هذا الأجل يفترض تمام خلق السماوات والأرض.

ومن ثم فإن مدة الستة أيام لا تدخل فى حساب أجل السماوات والأرض، إنما تدخل فى الخمسين ألف سنة «الأولى» من تاريخ الكون والتى تحسب من تاريخ خلق القلم كأول خلق تاريخياً وتنتهى بتمام خلق السموات والأرض. بينما أجلهما هو الخمسون ألف سنة «الآخرة» من تاريخ الكون، وذلك على نحو ما بيناه آنفاً.

٧٦- خلق الملائكة :

لم يخلق الله الملائكة إلا بعد خلق السموات والأرض، واستوائه سبحانه على العرش يُدبر الأمر، مصداقاً لقوله تعالى: **(إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ)**(١).

ولم يخلقهن سبحانه لأداء دور واحد، إنما خلقهن لأداء أدوار متعددة ومتباينة عن بعضها، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا. وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا. وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا. فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا. فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا)**(٢).

(١-٢) ٥٤/ الأعراف وكذا ٣/ يونس، ١-٥/النازعات.

(٣) الألبانى: السابق – ص ٦١٦ رقم ٣٢٣٨.

لذا لم يخلقهن من الأرض بطريقة مباشرة أى من طين الأرض كالإنس، ولا من الأرض بطريقة غير مباشرة كالجان الذين من نار شجر الأرض، إنما خلقهن على استقلال عن الأرض، وبالتالى خلقهن من النور مباشرة، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(خلقت الملائكة من نور)**(٣). لكن سبحانه خلقهن كبشر على أى الأحوال، وجعل لهم لغة، هى لغة عربية، التى فى نشأتها الأولى تاريخياً هى لغة الصاد وذلك على نحو ما بيناه آنفاً.

وبذا فالملائكة، ليست فقط أول البشر تاريخياً، إنما هى أيضاً ليست من البشر الأرضى كالجن والإنس، بل هى حتى بشر سماوى، وبالتالى له أجنحة مثنى أو ثلاث أو رباع أو أكثر بمشيئة الله (١/فاطر).

وهذا البشر السماوى لا يأكل ولا يشرب (٧٠/هود)، ولا يتناكح ولا يتناسل (٣٧/القمر)، ولا له إذن ذرية، ولا يُصنف – حتى – إلى ذكور وإناث، ولا يعرج فى السماوات دون الأرض، ولا يعرج فى الأرض دون السماوات كالجن والإنس، إنما يعرج فيهما معاً، وبالتالى يسرى «أجل» السماوات والأرض منذ خلق الملائكة، ولو لم يعرف البشر ملكاً وجناً وإنساً متى خلقت الملائكة وبالتالى يجهلون يوم القيامة (١-٧/المعارج).

المطلب الثانى
بنيان الأرض شكلياً

٦٨- تمهيد:

ليست السموات كالأرض، ولو من الوجهة الشكلية على الأقل، فلا هى بيضاوية، ولا هى غير جامدة فى مكانها، ولا هى ناقصة الأطراف، ولو أن كلتاهما «سبع» من الوجهة العددية على أى الأحوال، وسبع

يسعهم «كرسى الله» باعتبارهم جزءاً من «ملكوت الله»، وبالتالى تتوزع محتويات المطلب الراهن على الفروع التالية:

الفرع الأول

سبع أرضين

٦٩- خلق الأرض:

تمخض خلق الأرض بنشأتيه الأولى والآخرة تاريخياً، عن سبع أرضين، أى أن الخالق سبحانه قد مد الأرض، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ)**(١). وسبحانه لم يمدها أفقياً فحسب، ولا رأسياً فحسب، إنما مدها أفقياً ورأسياً على السواء.

فمدها أفقياً، أى بسطها بسطاً مصداقاً لقوله تعالى: **(وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا)**(٢). كما مدها رأسياً، أى جعلها سبعاً بعضها فوق بعضها، مصداقاً لقوله تعالى: **(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ)**(٣).

وألقى سبحانه فيها البحر المسجور الذى تفجر فيها بحاراً ومحيطات (٣/الانفطار). وكذا الرواسى أى الجبال، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ)** (٢). وقوله تعالى: **(وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا)**(٢).

(١-٣) ٣/ الرعد،. ٦/ الشمس، ١٢/ الطلاق.

(٢-٣) ١٩/ الحجر وكذا ٧/ق ، ٣٢/ النازعات، ٣/ الرعد.

(٤) الألبانى: السابق – ص ٢١٢ رقم ٨٧٦.

(٥) انظر مثلاً، على جمعة: القرآن يتناقض مع العلم – مقالة فى المؤلف الجماعى الصادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – السابق – ص ٤٤٩-٤٥١.

(٦-٧) الألبانى: السابق – ص ١٣٤٦ رقم ٨١٠١، ص ٢٠٨ رقم ٨٥٣.

وكذا الأنهار مصداقاً لقوله تعالى: **(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا)**([3]). وقول خاتم الرسل: **(أربعة أنهار من أنهار الجنة: سيحان، وجيحان، والنيل، والفرات)**([4]).

٧٠- ما مدى قابلية الأرضين للإنكار؟

البعض يُنكر مؤخراً، وإنكاراً صريحاً([5])، وجود أكثر من أرض واحدة، على الرغم مما يلى: ١- قوله تعالى فى الآية ١٢ من سورة الطلاق. ٢- وقول خاتم الرسل بشأن «الأرضين» يوم القيامة: **(يطوى الله السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوى الأرضين، ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟)**([6]).

٣- وقول خاتم الرسل بشأن «الأرض السفلى» على استقلال، أى الأرض السابعة على الأقل: **(أذن لى أن أحدث عن ملك من حملة العرش، رجلاه فى الأرض السفلى، وعلى قرنه العرش، وبين شحمة أذنيه وعاتقه خفقان الطير سبعمائة عام. يقول ذلك الملك سبحانك حيث كنت)**([7]).

أما منكرو وجود أكثر من أرض واحدة، إنكاراً ضمنياً، فهم كثيرون، بل منهم من يبحثون عبثاً عن «سد» أقامه ذو القرنين على هذه الأرض، ويبحثون حتى عن «السدين» اللذين بلغهما ذو القرنين على هذه الأرض، وذلك على الرغم من أمرين: **أولاً:** لم يبن ذو القرنين سداً على الإطلاق، إنما وضع «ردماً» فحسب، مصداقاً لقوله تعالى على لسانه: **(قَالَ ... فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا)**([1]).

([1-3]) ٩٥/ الكهف، ٨-١٠/ يس.

وثانياً: ما أحدثه يأجوج ومأجوج من ثقب جرى ردمه، لم يكن سوى ثقب فى سد أفقى يعلو سد أفقى آخر، وبينهما يوجد هؤلاء أصلاً، مصداقاً لقوله تعالى بشأن هذين السدين: **(إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ. وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ. وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ)**([٢]).

وهكذا فإنكار وجود سبع أراضين، ليس خطأ فحسب، إنما هو أيضاً خطأ لا يُغتفر قرآنياً أو سنة، سواء كان إنكاراً صريحاً أو إنكاراً ضمنياً.

٧١- خلق الجان:

ذو القرنين (٨٣/الكهف) والقوم الذين وجدهم عند العين الحمئة (٨٦/الكهف)، والقوم الذين لم يجعل الله لهم من دون الشمس ستراً (٩٠/الكهف)، والقوم الذين وجدهم لا يكادون يفقهون شيئاً (٩٣/الكهف) ويأجوج ومأجوج ليسوا إنساً من الإنس، إنما هم جان، وبالتالى شأنهم شأن إبليس باعتباره أول الجان تاريخياً، أى كلهم من ذوى القرنين.

وهم بشر على أى الأحوال، إنما بشر غير مرئى للإنسان وشأنهم فى ذلك شأن الملائكة، لكنهم ليسوا ملائكة، ولا كانوا يوماً طائفة من الملائكة([١]).

وهم أحدث فى الوجود تاريخياً من الملائكة، وأسبق فى الوجود تاريخياً من الإنسان، وبالتالى فلا هم من النور كالملائكة، ولا هم من

([١]) انظر العكس، محمد عمارة: حول عصيان إبليس وهو من الملائكة – مقالة في المؤلف الجماعى الصادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – السابق – ص٢٧٤-٢٧٦.

الطين كالإنسان، إنما هم من «النار» مصداقاً لقوله تعالى: **(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ. وَالْجَآنَّ خَلَقْنَـــاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُـــومِ)**([1]). وقول خاتم الرسل فى شأن التمييز بين أنواع البشر نوعياً وتاريخياً: **(خلقت الملائكة من نور. وخلق الجان من مارج من نار. وخلق آدم مما وصف لكم)**([2]) فى القرآن.

لكنهم بشر أرضى على أى الأحوال، ولو أنهم بشر أرضى بطريقة غير مباشرة، أى ليسوا من الأرض مباشرة كالإنس، إنما من الأرض بطريقة غير مباشرة ، أى من نار شجر الأرض، مصداقاً لقوله تعالى: **(الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا)**([3]).

وهكذا تأخر خلق الإنسان تاريخياً، ليس عن خلق الملائكة فحسب، إنما أيضاً عن خلق الجان، مصداقاً لقوله تعالى فى شأن عدم وجود الإنسان آنذاك: **(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا)**([4]).

وفى عصر ما قبل الإنسان، أخبر الله الملائكة بعزمه على جعل خليفة فى الأرض، دون أن يعلموا وقتذاك بعزمه سبحانه على خلق نوع ثالث من البشر، وبالتالى لم ينصرف ذهنهم آنذاك بشأن تلك الخلافة سوى كونها من نصيب الجان أو من نصيب الملائكة بحسب الأحوال، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ**

([1]) ٢٦-٢٧/ الحجر.

([2]) الألبانى: السابق – ص ٦١٦ رقم ٣٢٣٨.

([3]) ٨٠/يس.

([4-3]) ١/ الإنسان، ٣٠/البقرة، ٣٣/ الأحزاب.

فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)([٢]).

فعصر الجان فى الأرض قبل وجود الإنسان، هو «عصر الجاهلية الأولى» تاريخياً، والذى يتسم بالإفساد فى الأرض وسفك الدماء، وتبرج الجنيات، والإباحية المطلقة، وبالتالى حظر القرآن هذا التبرج خاصة على إناث الإنس عامة، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى)**([٣]).

الفرع الثانى

ملامح الأرض

٧٢- أولاً: الأرض بيضاوية:

بالكاد عرف الإنسان أن الأرض «كروية» شكلاً، وغير جامدة فى مكانها، وبالتالى لم يعرف ذلك إلا فى وقت متأخر للغاية، أى فى القرن السادس عشر الميلادى على الأكثر. ولا يزال الوسط العلمى ينظر إلى هذه المعرفة الضئيلة باعتبارها «ثورة علمية»، لأنها تجاوزت الكتاب المقدس، أى كأنها ثورة على الكتاب المقدس.

لكن الأرض ليست كروية كما يقال عادة لغاية الآن، أى ليست مثل «كرة اللعب» على الأقل. فلا الأرض خلقت للعب بها، ولا للعب فيها، ولا خلقت لعباً على الإطلاق، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)**([١]).

فالأرض من حيث شكلها الجغرافى، «بيضاوية» أى فى شكل بيضة أو «دحية» بالمعنى الدقيق، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن

([١-٢]) ٣٨/ الدخان، ٣٠/ النازعات.

تحديداً:(**وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا**)([٢])، أى جعلها سبحانه فى شكل دحية، وهى البيضة.

ولم يتأخر الإنسان فى معرفة بيضاوية الأرض بعد نزول القرآن، إلا لكونه قد سعى وراء مسألة شكل الأرض بمعزل عن القرآن، وكأن هذا القرآن كالكتاب المقدس يخلو من بيان هذه المسألة، رغم أن القرآن نزل تبياناً لكل شئ ولم يُفرط فى بيان أى شئ. لذا فإن معرفة الإنسان هذه المسألة هو مجرد تحصيل حاصل بالنسبة للقرآن. بل إن هذه المعرفة، لم تكن فى حاجة إلى تلكسوب أو تجارب، التى لا تعدو أن تكون محاولة كائن داخل دحية أن يكتشف بنفسه شكل هذه الدحية من الخارج، بينما هذا الشكل مجرد بيان موجود فى القرآن.

٧٣- الأرض غير جامدة فى مكانها:

الأرض متحركة، ومتحركة فى مكانها دون أن تغادره، ومتحركة حركة مزدوجة فى نفس الوقت. حركة حول نفسها مرة كل يوم، فيتعاقب الليل والنهار واليوم والأيام، مصداقاً لقوله تعالى: (**إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا**)([١]). وحركة أخرى حول الشمس مرة كل سنة، فتتعاقب الفصول والسنون، فصلاً بفصل وسنة بعد سنة.

([١-٢]) ٥٤/الأعراف، ١-٤/الشمس.

([٣]) قارن العكس، محمد عمارة: حول غروب الشمس فى عين حمئة ومخالفة ذلك للحقائق العلمية – مقالة بالمؤلف الجماعى الصادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – السابق – ص ٢٩٦-٢٩٨ حيث يقول «العين الحمئة، هى عين الماء ذات الحمأ، أى ذات الطين الأسود المنتن».

وبذا فالشمس يتبعها القمر هى «الساعة» بمعناها الاصطلاحى، مصداقاً لقوله تعالى بشأنهما: **(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا. وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا. وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا. وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا)**(٢). وهذه الساعة هى الأداة المسخرة للعد التنازلى تباعاً لعمر السماوات والأرض، والذى ينتهى بـ «مرسى الساعة»، أى آخر يوم من هذا الأجل.

فالشمس، لا هى السموات ولا هى الأرض، إنما هى خلق قائم بذاته، أى له استقلاله، ويطلع ويغرب بحسب الأحوال، لكنه لا يطلع من السماء ولا يغرب فى السماء، كما لا يطلع من الأرض ولا يغرب فى الأرض على الإطلاق(٣).

فهى تغرب – ابتداءً – فى عينها ذاتها، أى فى عين الشمس، ولو كانت عيناً حامية بطبعها، أى عين حمئة، مصداقاً لقوله تعالى بشأنها: **(حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ)**(٤). وقول خاتم الرسل بشأنها: **(هل تدرون أين تغرب هذه؟. تغرب فى عين حامية)**(١).

لكن ينتهى بها غروبها تحت عرش الرحمن يومياً، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(أَتَدْرُونَ أَيْنَ تَذْهَبُ هذِهِ الشَّمْسُ؟. إِنَّ هذِهِ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَىٰ مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَخِرُّ سَاجِدَةً. فَلاَ تَزَالُ كَذٰلِكَ حَتَّى يُقَالَ لَهَا: ارْتَفِعِي، ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَرْجِعُ. فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا، ثُمَّ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَخِرُّ سَاجِدَةً.**

---

(٤) ٨٦/ الكهف.

(١-٢) الألبانى: السابق – ص ١١٧٧ رقم ٧٠٢٦، ص ٧٨ رقم ٨٤.

(٣-٥) ٨٨/ النمل، ٢٠/النبأ، ١٤/المزمل.

وَلاَ تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقَالَ لَهَا: ارْتَفِعِي، ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَرْجِعُ. فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا. ثُمَّ تَجْرِي لاَ يَسْتَنْكِرُ النَّاسُ مِنْهَا شَيْئا حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا ذَاكَ، تَحْتَ الْعَرْشِ. فَيُقَالُ لَهَا: ارْتَفِعِي، أَصْبِحِي طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِكِ. فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِهَا. أَتَدْرُونَ مَتَى ذَاكُمْ؟ ....)([٢]).

وعلى أى الأحوال، تدور الأرض حركتيها، ولا تدورهما إلا وهى حاملة البحار والأنهار والرواسى، أى الجبال التى بدورها تدور ولو بدت للعيان جامدة فى مكانها مصداقاً لقوله تعالى: **(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ)**([٣]). فيبدو دورانها مع الأرض إذن بمثابة سراب على الأكثر، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا)**([٤]). بينما هى تدور مع الأرض يومياً وسنوياً.

وهذه الجبال خلق من خلق الله. وله إذن نشأتان تاريخياً، ويجب التمييز بين نشأتيه، فهى فى نشأتها الأولى كثبان، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا)**([٥]). وهى فى نشأتها الآخرة أوتاد جذورها فى الأرض خمس عشرة مرة قدر طولها على الأرض، مصداقاً لقوله تعالى: **(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا. وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا)**([١]).

لكن هذه الجبال ليست نوعاً واحداً، إنما هى أنواع متعددة ومتباينة مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا)**([٢]).

٧٤- ثالثاً: الأرض منقوصة الأطراف :

([١-٥]) ٦-٧/النبأ، ٢٧ فاطر، ١٠/لقمان، ٢/الرعد، ٦٥/الحج.

رغم أن السماء جامدة فى مكانها، ولا تتحرك على الإطلاق، فهى ليست منقوصة الأطراف، فلها أرجل تقف عليها، أو بالأحرى تقف فى مكانها على عمد، ولو لم تكن هذه العمد مرئية بصرياً مصداقاً لقوله تعالى بشأنها مرة: **(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)**[٣]، وقوله تعالى بشأنها مرة أخرى: **(اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)**[٤].

وهذه العمد، لا تكفل فقط رفع السماء فوق الأرض، إنما تكفل أيضاً عدم وقوع السماء على ما تحتها، أى عدم وقوعها على الأرض، مصداقاً لقوله تعالى:**(وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ)**[٥].

بينما الأرض منقوصة الأطراف، أى ليس لها ما تقف عليه ولو فى مكانها، رغم أنها متحركة ولو كانت متحركة فى مكانها، ومتحركة حركة مزدوجة، فليست لها عمداً تقف عليها، ولو حتى عُمد غير مرئية بصرياً، مصداقاً لقوله تعالى مرة: **(أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا)**[١] وقوله تعالى مرة أخرى: **(أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا)**[٢].

إذن الرواسى الملقاة فى الأرض، أى الجبال، ليست أطرافاً للأرض، ولا من أطرافها، ولا شأن لها بحركة الأرض على الإطلاق، إنما هى موجودة لكيلا تميل الأرض فى مكانها على الأكثر، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ)**[٣]، وقوله

([١-٥]) ٤١/ الرعد، ٤٤/ الأنبياء، ١٥/ النحل وكذا ١٠/ لقمان، ٣١/ الأنبياء، ٥٧/غافر.

تعالى فى هذا الشأن مرة أخرى: **(وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ)**([٤]).

وبذا فالجبال، وإن كانت رواسى مُلقاة فى الأرض، لكنها ليست زوائد زائدة عليها، إنما هى جزء لا يتجزأ منها، أى عضو من الأرض يؤدى وظيفة ضرورية لها، وبالتالى لا يمكن الاستغناء عنه. بل حتى سنرى من بعد أن جبل قاف أو الطور مثلاً، قد أدى أدواراً متعددة ومتباينة عبر التاريخ الإنسانى.

الفرع الثالث

ملكوت الله

٧٥- الأرض أضيق وأصغر من كرسى الله :

خلق السموات والأرض «أكبر» من خلق الناس منذ أولهم إلى آخرهم (٣/البلد)، حتى لو كانت هذه الحقيقة مجهولة لدى أكثرهم، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)**([٥]).

وهؤلاء يجهلون – من باب أولى – أن خلق السموات والأرض، ليس أكبر من خلق «كرسى الله»، ولا أوسع منه على الإطلاق، بل إن العكس هو الصحيح بإطلاق. أى أن هذا الكرسى أكبر من السموات والأرض، وبالتالى يسعهما معاً على السواء، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا)**([١]).

([١-٨]) ٢٥٥/ البقرة، ٥/الطور، ٣٢/الأنبياء، ٤١/فاطر، ١٣٣/آل عمران، ٢١/الحديد، ٢٢/الحاقة وكذا ١٠/الغاشية، ٢٠/الزمر.

وبذا يسع هذا الكرسى الأرضين السبع، كما يسع معهم وفوقهم السموات السبع كسقف يعلوهم، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ)**[٢]، وقوله تعالى: **(وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفًا مَّحْفُوظًا)**[٣]. وخالقهم وحده متكفل بحفظهم معاً، مصداقاً لقوله تعالى: **(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا)**[٤].

بل إن هذا الكرسى يسع – حتى – غيرهم معهم وفوقهم، كالجنة بعرضها المُقنن قرآنياً، أى بعرض السماوات والأرض، مصداقاً لقوله تعالى بشأنهما: **(وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ)**[٥]، وقوله تعالى مرة أخرى: **(وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْضِ)**[٦].

وهى بهذا «الجنة العالية» مصداقاً لقوله تعالى مرتين: **(فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ)**[٧]. وقوله تعالى فى شأن تكوينها: **(غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)** [٨] وقول خاتم الرسل فى شأنها: **(إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله. مابين الدرجتين كما بين السماء والأرض. فإذا سألتم الله، فسلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة)**[١].

وهكذا حتى عرش الرحمن، الذى كان على ماء البحر المسجور فى نشأته الأولى تاريخياً (٧/هود)، صار فوق الفردوس باعتباره أعلى الجنة فى وضعه الأخير، وبالتالى فهو يعلو الجنة التى تعلو السماوات السبع

---

(١) الألبانى: السابق – ص ٤٢٧ رقم ٢١٢٦.

باعتبارها سقفاً للأرضين السبع، وسبحان الله إذن **(رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ)**[1]، أى **(فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ)**[3].

٧٦- نوعا ملكوت الله :

كرسى الله، كما يسع الجنة على نحو ما بيناه آنفاً، فإنه يسع أيضاً نار السعير، وبالتالى فإن هذا الكرسى أكبر وأوسع نطاقاً من السماوات والأرض، ولو أنه يسعهما داخله (٢٥٥/البقرة). لكنه يسعهما ويسع غيرهما معهما، وبالتالى يجب التمييز بين نوعين من «ملكوت الله»، وذلك كما يلى:

أولاً: ملكوت كلى، أى يشمل كل ما فى كرسى الله، مصداقاً لقوله تعالى بشأن هذا الملكوت: **(فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)**[4]. وقوله تعالى مرة أخرى: **(قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ)**[5].

وثانياً: ملكوت جزئى، يشمل السموات والأرض وحدهما دون غيرهما مما فى كرسى الله، مصداقاً لقوله تعالى بشأن هذا الملكوت: **(أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)**[2]. وقوله تعالى مرة أخرى: **(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)**[2].

([1-5]) ١٥/ غافر، ١١٦/ المؤمنون، ٨٣/يس، ٨٨/المؤمنون.

([2-6]) ١٨٥/الأعراف، ٧٥/الأنعام، ١٠٧/البقرة، ١٨/المائدة، ٢٨٤/البقرة، ٦٦/يونس.

وبذا فإن هذا الملكوت الأخير، ليس قابلاً للنظر فيه فحسب، إنما هو أيضاً قابل للرؤية بمشيئة الله، وذلك بحسب الأحوال، لكن للتيقن من أن السموات والأرض ملك لخالقهما وهو الله، مصداقاً لقوله تعالى: **(أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)**(٣).

وسبحانه ليس مالكاً لهما دون ما بينهما، إنما العكس هو الصحيح بإطلاق، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا)**(٤). بل حتى سبحانه ليس مالكاً لهما ولما بينهما دون «ما» فيهما، إنما العكس هو الصحيح بإطلاق، مصداقاً لقوله تعالى: **(لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ)**(٥). كما أنه سبحانه ليس مالكاً لهما ولما بينهما ولما فيهما دون «من» فيهما، إنما العكس هو الصحيح مصداقاً لقوله تعالى: **(أَلا إِنَّ لِلّهِ مَن فِي السَّمَاوَات وَمَن فِي الأَرْضِ)**(٦). أى يشمل البشر ملكاً وجناً وإنساً.

فمن ذا الذى حظى تاريخياً بهذه «الرؤية»، ما لم يكن هو: «إمام للناس» و «خليل لله» على السواء؟

المطلب الثالث

رؤية

ملكوت الله

٧٧ – تقديم :

هذه الرؤية بدورها خلق من خلق الله، وله إذن نشأتان تاريخياً، أى تمخض عن رؤيتين للملكوت. وكلتاهما رؤية إمام للناس وخليل لله على السواء، وبالتالى يجب التمييز بينهما.

الفرع الأول

نشأتا

رؤية الملكوت

٧٨- الرؤية الأولى تاريخياً:

هى رؤية إبراهيم للملكوت، ولم تكن رؤية للإيمان، إنما كانت رؤية للتيقن أى بلوغ اليقين، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)**([1]).

فأراه سبحانه أن الله ليس الكوكب أو القمر أو الشمس، وبصرف النظر عن تباينها حجماً. لأن الله أكبر منها، وسبحانه لا يأفل (٧٦-٧٨/الأنعام). ولأنه سبحانه هو الخالق لها ولغيرها حتى السموات والأرض، وبالتالى يجب التوجه إليه مصداقاً لقوله تعالى على لسان إبراهيم: **(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)**([2]).

كما أراه سبحانه كيف يحيى الموتى (٢٦٠/البقرة). وكذا الملائكة (٦٩-٧٣/هود، ٥١-٦٠/الحجر، ٣١-٣٢/العنكبوت)، الذين جاءوه كأضياف، ولو انشغل عنهم بإكرامهم، وبالتالى كان «أول» من ضيف الضيوف تاريخياً، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(كان أول من ضيف الضيف إبراهيم)**([2]).

لكن إبراهيم لم ير ملكوت الله إلا من الأرض، وبالتالى لم يره من السماء، ومن ثم لم ير السماوات سماء بسماء، ولم ير الجنة، ولا النار،

([1-2]) ٧٥/الأنعام، ٧٩/الأنعام.

([2]) الألبانى: السابق – ص ٨٢٠ رقم ٤٤٥١.

ولو ألقى فى نار الدنيا، التى أمرها الله أن تكون برداً وسلاماً عليه، وبالتالى لم تصبه بأى أذى.

٧٩- الرؤية الآخرة تاريخياً:

هى رؤية خاتم الرسل للملكوت، ورؤيته من السماء، وذلك ليلة الإسراء والمعراج (١/الإسراء، ٥-١٨/النجم)، لكى يرى آيات ربه، مصداقاً لقوله تعالى مرة:**(لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا)**[١]، وقوله تعالى مرة أخرى: **(لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى)**[٣].

لذا حتى ملامح بيت المقدس على الأقل، لم يستوعبها خاتم الرسل آنذاك، مصداقاً لقوله: **(لما كذبتنى قريش حين أسرى بى، إلى بيت المقدس، قمت فى الحجر، فجلى الله لى بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته، وأنا أنظر إليه)**[٤].

لكن عرج به من سماء إلى سماء، حتى السماء السابعة، مصداقاً لقوله: **(ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل ... ففتح لنا. فإذا أنا بإبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور. وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه. ثم ذهب بى إلى سدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال. فلما غشيها من أمر الله ما غشى تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إلىَّ ما أوحى ....)**[٢].

([١-٣]) ١/ الإسراء، ١٨/النجم.

([٤]) الألبانى: السابق – ص ٩٢٦ رقم ٥٢١٥.

([٢-٢]) الألبانى: السابق – ص ٨٧ رقم ١٢٧، ص ٨٨ رقم ١٢٨.

([٣-٤]) ١٢٤/ البقرة، ٤/الممتحنة.

بل رأى حتى الجنة والنار، مصداقاً لقوله: **(رأيت الجنة والنار)**([٢]).

الفرع الثانى

نشأتا

إمام الناس

٨٠- أول إمام للناس تاريخياً :

هو إبراهيم، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: **(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا)**([٣]). وهو بهذا أسوة حسنة لهم، مصداقاً لقوله تعالى: **(قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ)**([٤]).

لكن إبراهيم هو إمام للناس فى الدنيا فحسب، دون الآخرة، ولو أنه أول من يُكسى وقتئذ مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(أول من يُكسى من الخلائق إبراهيم)**([٥]). لذا لن يكون بمقدوره الاستشفاع للناس يوم القيامة، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم؟ أنت نبى الله وخليله من أهل الأرض، إشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم إبراهيم: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنى قد كنت كذبت ثلاث كذبات، نفسى نفسى نفسى. اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى موسى ...)**([١]).

٨١- آخر إمام للناس تاريخياً:

هو خاتم الرسل، وبالتالى فهو بدوره أسوة حسنة للناس، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: **(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)**([٢]). وهو بهذا إمام لهم فى الدنيا، شأنه فى

([٥]) الألبانى: السابق – ص ٥٠٥ رقم ٢٥٨٤.

([١]) الألبانى: السابق – ص ٣٠٧ رقم ١٤٦٦.

([٢]) ٢١/ الأحزاب.

ذلك شأن إبراهيم، لكنه ليس إمامهم فى الدنيا فحسب دون الآخرة، إنما العكس هو الصحيح.

فهو إمام للناس حتى فى الآخرة، أى إمام الاستشفاع لهم يومئذ، مصداقاً لقوله: **(خُيرت بين الشفاعة وبين أن يدخل شطر أمتى الجنة، فاخترت الشفاعة)**([1]).

وهو وحده إمام الاستشفاع يومئذ، مصداقاً لقوله: **(أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر. وبيدى لواء الحمد ولا فخر. وما من نبى يومئذ آدم فمن سواه، إلا تحت لوائى. وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر)**([4]). وقوله أيضاً: **(أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع)**([5]).

أما عن طلب الناس منه الاستشفاع لهم، وكيفية استئذانه الله فى ذلك، بعد أن رفض آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى أن يتشفعوا للناس، فإنه يقول: **(... فيأتون فيقولون يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. إشفع لنا إلى ربك. ألا ترى ما نحن فيه؟. ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأنطلق، فآتى تحت العرش، فأقع ساجداً لربى، ثم يفتح الله علىَّ، ويُلهمنى من محامده، وحسن الثناء عليه، شيئاً لم يفتحه لأحد قبلى، ثم يقال يا محمد إرفع رأسك، سل تعط، واشفع تُشفع. فأرفع رأسى، فأقول: يارب أمتى أمتى. فيقال: يا محمد ادخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه، من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب. والذى نفسى بيده، إن من بين**

([1-5]) الألبانى: السابق – ص ٦٢٩ رقم ٣٣٣٥، ص ٣٠٩ رقم ١٤٧٨، ص ٣٠٩ رقم ١٤٦٧.

مصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى)([1]).

وهكذا فهو وحده إمام الاستشفاع للناس يوم القيامة، الذى لا شفاعة فيه إلا بإذن الله، مصداقاً لقوله تعالى: **(لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ)**([2]) وقوله تعالى: **(وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ)**([3]). وهذا الإذن، أمر سابق على قبول الشفاعة، كإذن آخر، مصداقاً لقوله تعالى: **(قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)**([4]).

الفرع الثالث

نشأتا

خليل الله

٨٢- أول خليل لله تاريخياً :

هو أول إمام للناس، أى إبراهيم، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه:**(وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً)**([5]). وإبراهيم بهذا أول خليل لله تاريخياً، أى لم يكن قبله أحد كخليل لله، لا من الأنبياء والمرسلين، ولا من غيرهم.

٨٣- آخر خليل لله تاريخياً:

هو خاتم الرسل، مصداقاً لقوله فى هذا الشأن: **(لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكنه أخى وصديقى. وقد اتخذ الله صاحبكم خليلاً)**([3]). بهذا، فخليل الله فى الحالتين بخيار الله ومشيئته وحده.

([1]) الألبانى: السابق – ص ٣٠٧ رقم ١٤٦٦.

([2-5]) ١٠٩/طه، ٢٣/سبأ، ٤٤/الزمر، ١٢٥/ النساء.

([3-3])الألبانى: السابق – ص ٩٣٧ رقم ٥٢٩٨، ص ٦٥٣ رقم ٣٤٧١، ص ٨١٣ رقم ٤٤١٤.

٨٤- ثلاث مقاربات أخرى:

إبـراهيم وخـاتم الرسـل، كلاهمـا ليسـا إمامـاً للنـاس وخلـيلاً لله ورأى ملكوتـه سبحانه فحسب، إنمـا هنـاك أيضـاً ثـلاث مقاربـات أخـرى جامعـة بينهما بصفة خاصـة، وذلك كما يلـى: **فأولاً:** هما يجتمعان معاً حتى فى السمات الشكلية، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: **(أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم)**(٢) يعنى نفسه.

وثانياً: وهما يجتمعان معاً حتى فى «تحيات» كل صلاة، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: **(قولوا اللهم صل على محمد النبى الأمى، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم. وبارك على محمد النبى الأمى، كما باركت على آل إبراهيم فى العالمين، إنك حميد مجيد. والسلام كما علمتم)**(٣).

وثالثاً: وهما يجتمعان معاً فى «رؤية النار» يقيناً، ولو أن إبراهيم لم يرى سوى نار الدنيا، ولو رآها يقيناً، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ. قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)**(٤).

بينما رأى خاتم الرسل نار الآخرة، مصداقاً لقوله: **(أتيت بالبراق ... فلم نزايل ظهره أنا وجبريل، حتى أتيت بيت المقدس. ففتحت لى أبواب السماء. ورأيت الجنة والنار)**(١).

٨٥- أهمية المقاربة بينهما علمياً :

---

(٤) ٦٨-٦٩/الأنبياء.

(١) الألبانى: السابق – ص ٨٨ رقم ١٢٨.

أولاً: هل كلاهما استنفد بهذا رؤيته للنار يقيناً فى الدنيا، وبالتالى لن يردها مع الناس يوم القيامة نزولاً على قوله تعالى بشأن هذا الورود: **(وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا)**([1])؟. وسبب هذا السؤال العلمى هى ما يلى:

١- فالناس لن ترد النار يومئذ إلا لكى يتحققوا عيناً من وجودها يقيناً، بعد علمهم يقيناً بوجودها من قبل، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ. لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ. ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ)**([3]).

٢- وحتى رؤيتهم للنار وقتئذ هى رؤية وقتية، وقبل الحساب أو السؤال، لا بعده على الإطلاق، مصداقاً لقوله تعالى فى شأن ما يعقب هذه الرؤية: **(ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ)**([4]) الذى تنعمتموه بنعم الله فى الدنيا.

٣- بل إن مثل هذا السؤال، يثار أيضاً فى شأن «صعقة» موسى فى الطور (١٤٣/الأعراف). فهل استنفد بها صعقته فى الدنيا، أم سيصعق مع الناس يوم القيامة، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: **(... فإنه ينفخ فى الصور فيصعق من فى السماوات ومن فى الأرض إلا ما شاء الله. ثم ينفخ فيه أخرى، فأكون أول من بعث. فإذا موسى آخذ بالعرش، فلا أدرى أحوسب بصعقته يوم الطور، أم بُعث قبلى..)**([2])؟

([1-4]) ٧١/ مريم، ٥-٧/التكاثر، ٨/التكاثر.

([2]) الألبانى: السابق – ص ١٢٣٠ رقم ٧٣٧٧.

وثانياً: هل يجوز لأحد أياً كان بعد نزول القرآن، الذى قص – حتى – على بنى إسرائيل أكثر ما كانوا يختلفون فيه (٧٦/النمل)، أن يُجادل فى «إسم والد إبراهيم»، وذلك بعد أن قطع القرآن والسنة معاً فى هذه المسألة، وعلى أساس أن إسمه يقيناً هو «آزر»، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ)**(١). وقول خاتم الرسل: **(يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة. وعلى وجه آزر قترة وغبرة ..)**(٢)؟

وهذا السؤال الساذج للغاية له سببه. فكافة شروح القرآن وقصصه على امتداد الأربعة عشر قرناً الماضية، وحتى فى مصر لغاية الآن(٣)، تجرى على «إنكار» صحة هذا الاسم الموجود فى القرآن والسنة. وهى تتبنى بعدئذ نظيره الموجود فى الكتاب المقدس، وكأن هذا النظير ليس إسماً إسرائيلياً ووهمياً ومغلوطاً على السواء، أو كأن القرآن والسنة ليسا أعلم بصحة إسم والد إبراهيم من أصحاب تلك الشروح والكتاب المقدس، والعياذ بالله.

المطلب الرابع
النفاذ
من أقطار الملكوت

٨٦- تقديم:

---

(١) ٧٤/ الأنعام.

(٢) الألبانى: السابق – ص ١٣٥٥ رقم ٨١٥٨.

(٣) انظر مثلاً، محمد عمارة: حول خلاف القرآن للكتاب المقدس في بعض الأسماء – مقالة بالمؤلف الجماعى الصادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – السابق – ص٢٨٥-٢٨٨.

النفاذ فعلاً من أقطار السماوات والأرض، أحدث فى الوجود تاريخياً من استنهاض الهمة لتحقيق هذا النفاذ، ولو أن كلاهما (الاستنهاض والنفاذ) خلق من خلق الله، وخلق قائم بذاته، أى له استقلاله عن الآخر.

الفرع الأول
استنهاض الهمة
للنفاذ

٨٧- نوعا النفاذ:

النفاذ من أقطار الملكوت، ليس نوعاً واحداً، إنما هو على نوعين، يجب التمييز بينهما. لأن أحدهما عصياً على البشر الأرضى جناً وإنساً على السواء. بينما الآخر ليس عصياً على هذا البشر الأرضى وبالتالى فهو وحده موضوع استنهاض الهمة للنفاذ:

فأولاً: هناك «النفاذ الأفقى والرأسى» من أقطار السموات والأرض، أى النفاذ من قطر إلى قطر نفاذاً أفقياً ورأسياً، بدون الطريقين البرى والبحرى. وهذا هو «المعراج» الذى خصه القرآن بسورة قرآنية قائمة بذاتها، هى السورة رقم (٧٠)، أى «سورة المعارج».

وهذا النفاذ ليس عصياً على الملائكة والروح (٤/المعارج)، إنما هو عصى على البشر الأرضى جناً وإنساً على السواء. ومن ثم لم يتحقق هذا النفاذ لبشر أرضى على الإطلاق، إلا خاتم الرسل. ولم يتحقق له هذا المعراج إلا باعتباره خاتم الرسل من ناحية، وباعتباره رسولاً إلى خاتم الأمم تاريخياً من ناحية أخرى، أى باعتباره رسولاً إلى «الأمة السبعين»

ترتيباً، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(إنكم تتمون سبعين أمة، أنتم خيرها، وأكرمها إلى الله)**([1]).

وهو بهذا عصى على الجن بإطلاق، حتى من كانت له منهم أجنحة كالملائكة، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأن أصناف الجن: **(الجن ثلاثة أصناف: فصنف لهم أجنحة يطيرون بها فى الهواء. وصنف ... وصنف ...)**([2]).

وثانياً: «النفاذ الأفقى» من أقطار السموات والأرض، أى النفاذ من قطر إلى قطر نفاذاً أفقياً فحسب، وبدون الطريقين البرى والبحرى على السواء. وهو ليس عصياً على البشر الأرضى جناً وإنساً. لكنه لم يخطر على بال بشر أرضى على الإطلاق، فلا هو خطر على بال جن، ولا هو خطر على بال إنس، حتى استنهض الله همة البشر الأرضى لتحقيق هذا النفاذ الأفقى.

٨٨- الحاجة إلى استنهاض الهمة:

الجن والإنس، كلاهما كان فى حاجة إلى استنهاض الهمة للنفاذ الأفقى من أقطار الملكوت، ولو أن حاجة الإنس أكبر نسبياً من حاجة الجن إلى هذا الاستنهاض، وذلك لثلاثة أسباب على الأقل، هى ما يلى:

فأولاً: الإنس هو الخليفة فى الأرض (٣٠/البقرة)، وليس الجن، وبالتالى فهو ليس خليفة على نفسه فحسب إنما خليفة على نفسه وعلى الجن على السواء، وبالتالى هو المسئول أولاً عن إعمار الأرض.

وثانياً: الإنس بدون أجنحة أصلاً، وبالتالى عليه أن ينشغل بتعويض ما فيه من نقص خلقى شكلى – حتى – عن ثلث الجن على

([1-2]) الألبانى: السابق – ص ٤٥٦ رقم ٢٣٠٦، ص ٥٩٧ رقم ٣١١٤.

الأقل، وذلك بدلاً من انشغاله بالجدل حول الذات الإلهية أو حول آيات الله، حتى لو كان هذا الإنس هو أكثر الخلائق جدلاً بإطلاق مصداقاً لقوله تعالى: **(وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا)**([1]).

وثالثاً: حتى الجن ذوى الأجنحة، وإن كانت لهم أجنحة شأنهم فى ذلك شأن الملائكة، لكنهم مشغولون بالتنصت أو التجسس على السماء (٨-٩/الجن)، بدلاً من الانشغال بالنفاذ الأفقى من أقطار السموات والأرض.

٨٩- نشأتا استنهاض الهمة للنفاذ:

هذا الاستنهاض للهمة هو بدوره خلق من خلق الله. وله إذن نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)، ويجب التمييز بين نشأتيه (٢٠/العنكبوت)، وذلك كما يلى:

فأولاً: كان أول استنهاض همة للنفاذ أفقياً من ملكوت الله، فى ثلاثينيات القرن الأول الميلادى، أى فى عصر المسيح عيسى، ولو أنه لم يكن استنهاضاً لهمة الجن والإنس، إنما كان استنهاضاً لهمة الإنس وحده، بل حتى كان استنهاضاً لهمة بنى إسرائيل هوداً ونصارى.

وآنذاك كان استنهاض همة للنفاذ من ملكوت الله، نفاذاً أفقياً وطيراناً، مصداقاً لقوله تعالى إلى عيسى: **(وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي)**([2]). وقوله تعالى على لسان عيسى إلى بنى إسرائيل: **(أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ)**([2]).

([1-2]) ٥٤/الكهف، ١١٠/المائدة

([2-2]) ٤٩/آل عمران، ٣٣/الرحمن.

وثانياً: كان آخر استنهاض همة للنفاذ أفقياً من ملكوت الله، فى مطلع القرن السابع الميلادى، أى فى عصر خاتم الرسل. وهو ليس استنهاضاً لهمة الإنس وحدهم، إنما استنهاض لهمة الجن والإنس على السواء. وهو أيضاً ليس استنهاض همة للنفاذ طيراناً فحسب، إنما استنهاض همة للنفاذ طيراناً كان هذا النفاذ أو غير طيران، مصداقاً لقوله تعالى: **(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ)**(٢).

الفرع الثانى

طريقا

النفاذ من الملكوت

٩٠- طريقان عداً وحصراً:

إذن النفاذ من أقطار السموات والأرض، إما طيراناً وإما بغيره، ولو أن كلاهما بإذن الله (١١٠/المائدة) أو بسلطان من الله (٣٣/الرحمن)، أى كلاهما خلق من خلق الله، ولو أن كل منهما خلق قائم بذاته، أى له استقلاله عن الآخر.

٩١- النفاذ طيراناً:

هذا النفاذ بإذن من الله (٤٩/آل عمران)، أى هو خلق من خلقه سبحانه، . وله إذن نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)، ويجب التمييز بين نشأتيه (٢٠/العنكبوت)، وذلك كما يلى: ١- ففى نشأته الأولى تاريخياً، كان النفاذ طيراناً عن طريق «المنطاد».

٢- أما فى نشأته الآخرة تاريخياً، أصبح النفاذ طيراناً عن طريق «الطائرة» على اختلاف أشكالها وأنواعها.

وهما طريقان للنفاذ «جسدياً»، من أقطار السموات والأرض، أى صحبة جسد الإنسان، وبالتالى فهما يختلفان عن طريقى النفاذ بغير الطيران.

٩٢- النفاذ بغير الطيران:

وهو نفاذ بسلطان من الله (٣٣/الرحمن)، أى هو خلق من خلق الله، وله إذن نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)، ويجب التمييز بين نشأتيه (٢٠/العنكبوت)، وذلك كما يلى:

١- ففى نشأته الأولى تاريخياً، كان هذا النفاذ بطريق الاتصالات التقليدية، أى السلكية واللاسلكية، وهى التليفون والتلغراف والفونغراف والتلكس والفاكس... إلخ.

٢- أما فى نشأته الآخرة تاريخياً، فهو النفاذ بطريق الشبكة الإلكترونية العنكبوتية، وعمرها لم يتجاوز عدد أصابع اليد من العقود، أى لم تظهر إلا فى وقت متأخر للغاية.

٩٣- دور الجن فى طرق النفاذ :

طرق النفاذ بالطيران أو بغيره، لم تتحقق واقعياً إلا بعد عصر الإنجيل، وحتى بعد نزول القرآن، وبعد نزوله بأكثر من ألف ومائتى سنة، أى فى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى، وهى بهذا لم تظهر تاريخياً إلا فى وقت متأخر للغاية، أى منذ مائة وخمسين سنة على الأكثر.

أى بعد قرون طوال من نزول سورة الرحمن، التى لم تستنهض همة الإنس للنفاذ من أقطار السماوات والأرض، دون همة الجن، الذين كان مردودهم أحسن من نظيره للإنس حال سماعهم سورة الرحمن، فى حياة خاتم الرسل، مصداقاً لقوله: **(لقد قرأتها – يعنى سورة الرحمن – على**

الجن ليلة الجن. فكانوا أحسن مردوداً منكم. كنت كلما أتيت على قوله (فبأى آلاء ربكما تكذبان)، قالوا: ولا بشئ من نعمتك ربنا نُكذب، فلك الحمد)([1]).

فلا يجب إذن أن نغفل عن دور الجن فى تحقيق طرق النفاذ بنوعيه، خاصة أن هذا الدور الحضارى من جانبهم ليس دورهم الأول تاريخياً، إنما هو دورهم الأخير تاريخياً. أما دورهم الحضارى الأول تاريخياً، فكان فى القرن العاشر قبل الميلاد، أى فى عصر سليمان، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ .. يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاء مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ)**([2]). وقوله تعالى: **(فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ .. وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ)**([3]).

وبدهى أن الجن كالإنس، أى كلاهما لا يعلم شيئاً عن الغيب (١٤/سبأ)، وكلاهما مُخاطب بالقرآن والسنة، حتى لو كان الإنس غربيين، وكان الجن قاسطين (١٤/الجن).

٩٤- دور طرق النفاذ بنوعيه :

هذا الدور باعتباره دور طرق النفاذ من أقطار السموات والأرض، هو دور عالمى بطبعه، وهو تمكين الشعوب والدول من أداء دورها الحضارى. فالشعوب بعد تجاوزها عصر القبائل المتناثرة والمتباعدة، أصبحت فى حاجة

([1]) الألبانى: السابق – ص ٩١٤ رقم ٥١٣٨.

([2-3]) ١٢-١٣/سبأ، ٣٦-٣٧/ص~.

إلى التقارب من بعضها، والتعارف ببعضها، وتناقل الحضارة فيما بينها، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)**([1]).

خاصة أن هذه الشعوب صارت أصول دولها، وكل شعب أصل دولته، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)**([2]). والأصل أن هذه الدول لم تنشأ للإثم والعدوان، ولا للتعاون عليهما، إنما نشأت للتعاون على البر والتقوى داخلياً وخارجياً، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)**([3]).

إذن هذه الشعوب والدول لم تنشأ للتفرق، إنما نشأت للاعتصام، والاعتصام بحبل الله الممدود من السماء إلى الأرض، أى الاعتصام بالقرآن، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ)**([4]). وقول خاتم الرسل: **(إنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى. أحدهما أعظم من الأخر. كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض)**([5]).

حاصل ما تقدم أن طرق النفاذ أفقياً من أقطار السماوات والأرض، ليست شيئاً أكثر من تحصيل حاصل بالنسبة للقرآن. فلا هى تجاوزته. ولا هى غريبة عنه. ولا هى جديدة له. ولا هى ثورة عليه. وذلك بصرف النظر عن أمرين:

١- بصرف النظر عن كونها مناطيد أو طائرات، او اتصالات سلكية أو لا سلكية أو إلكترونية.

([1-4]) ١٣/الحجرات، ١٤٠/آل عمران، ٢/ المائدة، ١٠٣/آل عمران.

([5]) الألبانى: السابق – ص ٤٨٢ رقم ٢٤٥٨.

٢- وبصرف النظر عن نشأة هذا الطرق فى الغرب أو فى الشرق، ولو أن نشأتها فى الغرب قبل الشرق كانت نتيجة من نتائج قراءة القرآن شكلياً دون فهم موضوعه تأويلياً.

المبحث الثالث
جغرافية
معالم الأرض

٩٥- تنبيه:

أنت مخاطب بالقرآن، الذى حظر أى تعامل فى لغو الكلام أى لهو الحديث، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ)**(١). فاجتنب إذن الفلسفة (الجدل) والقصص الخيالى والشعر على

(١) ٦/لقمان.

الأقل، وبصرف النظر عما بهم من زخرف القول (١١٢/الأنعام) وما فيهم من منافع للناس (٢١٩/البقرة):

١- فالفلسفة توأم الضلال قبل أو بعد الهدى، مصداقاً لقول الرسول: **(ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل)**([١]). وهى كفر لو تعلقت بآيات الله (٤/غافر)، أو بالقرآن مصداقاً لقول الرسول: **(لا تجادلوا فى القرآن، فإن جدالاً فيه كفر)**([٣]). ٢- والقصص الخيالى بدعة إسرائيلية لم تنشأ إلا فى ظل هجر التوراة (٥/الجمعة)، وبالتالى محظور فى ظل القرآن مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(إن بنى إسرائيل، لما هلكوا، قصوا)**([٤]).

٣- والشعر منذ نزول القرآن، أصبح محظوراً تعليمه وتعلمه على الرسول كأسوة حسنة (٦٩/يس). ومحظوراً حفظه لغوياً، مصداقاً لقول الرسول: **(لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه، خير له من أن يمتلئ شعراً)**([٥]). أما المحفوظ منه قبل حظره، فلا بقاء له إلا كاستثناء، مُقيد بالحفظة وحدهم دون زيادة عليهم. ومُقيد زمانياً، بأعمارهم التى لن تتجاوز قرناً مصداقاً لقول الرسول: **(لا تأتى مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم)**([٦]). ومُقيد موضوعياً بحسنه ككلام دون قبيحه مصداقاً لقول الرسول: **(الشعر بمنزلة الكلام. فحسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام)**([٧]). أما حسان بن ثابت كاستثناء آخر، فكان مؤيداً بروح القدس حال حياة الرسول، وبالتالى فلا يُقاس عليه بعد وفاة الرسول.

٩٦- تقديم :

أنت مخاطب بالقرآن، الذى لم يُفرط - حتى - فى بيان «معالم الأرض» جغرافياً (٣٨/الأنعام). وهى معالم جغرافية موجودة تاريخياً من

([١-٧]) الألبانى: السابق - ص ٩٤٨ رقم ٥٦٣٣، ص ١٢١٠ رقم ٧٢٢٣، ص ٤١٠ رقم ٢٠٤٥، ص ٩٠٠ رقم ٥٠٤٨، ص ١٢٠٦ رقم ٧١٨٧، ص ٦٩٤ رقم ٣٧٣٣.

قبل وجود الدول والشعوب والقبائل لغاية الآن، وإلى ما لا نهاية. وعليك إذن أن تكون على دراية بتلك المعالم الجغرافية التاريخية، وذلك بمراعاة أمرين:

فأولاً: هذه المعالم الجغرافية، التى لا يخلو القرآن من بيانها، تخلو منها الشرع الإلهية السابقة تاريخياً عليه، حتى الكتاب المقدس بعهديه القديم والآخر، وبالتالى فإن القرآن ليس مصدر بيانها للمسلمين فحسب دون أهل الكتاب هوداً ونصارى (٧٦/النمل)، أو دون غيرهم، إنما هو مصدر بيانها للناس كافة (٢٨/سبأ).

وثانياً: هذه المعالم الجغرافية، لا يزال يكتنفها الغموض والإبهام والتجهيل لغاية الآن. وذلك لكونها ليست من العبادات والمعاملات، اللتين استحوذتا وحدهما على اهتمام دارسى القرآن طوال الأربعة عشر قرناً الماضية(١)، وكأنهم لم يتجاوزوا قط موضوع رسالة شعيب أى إسحاق (٨٧/هود) على الأكثر.

وعلى أى الأحوال، لا يجوز لأحد من المخاطبين بالقرآن أن يحتج بجهله به عامة (١٦٥/النساء)، ولا بجهله بماهية عاصمة الأرض أو أعلى الأرض أو أدنى الأرض (٣/الروم) على الأقل، ولا بجهله بتاريخ الأحقاف على أقل الأقل، وبالتالى فإن محتويات المبحث الراهن تتوزع على المطالب التالية:

المطلب الأول: عاصمة الأرض.

المطلب الثانى: أعلى الأرض.

---

(١) صوفى حسن أبو طالب: تطبيق الشريعة الإسلامية في البلاد العربية – ط٤ – دار النهضة العربية – ١٩٩٥ – ص١٩.

المطلب الثالث: أدنى الأرض.

المطلب الرابع: تاريخ الأحقاف.

المطلب الأول

عاصمة الأرض

٩٧- أول سكن الإنس تاريخياً:

الملائكة والجن أسبق فى الوجود تاريخياً من الإنس، الذى هو إذن أحدث وجوداً منهما، وآخر البشر وجوداً من الوجهة التاريخية. وكان أول سكنه تاريخياً، هو سكن آدم وزوجه فى الجنة بأمر من الله (٣٥/البقرة، ١٩/الأعراف).

على أن الجنة لم تكن سكناً دائماً لآدم وزوجه، إنما كانت مجرد سكن مؤقت، أى كانت إقامتهما فيها مجرد ضيافة على الأكثر، وبالتالى لم يلبثا أن أهبطا إلى الأرض بأمر من الله (٣٦/البقرة، ٢٤/الأعراف، ١٢٣/طه).

وقد أهبطا إلى الأرض باعتبارها السكن الدائم للإنس، أى مستقره، ولو لم تكن مستقراً للإنس إلا طوال أجلها على الأكثر، أى مستقراً للإنس إلى حين (٣٦/البقرة، ٢٤/الأعراف) على أى الأحوال. أو بالأحرى هى مستقره حتى تزول هذه الأرض فى آخر الزمان.

٩٨- أول سكن الإنس فى الأرض:

هذا المكان، ليس مكاناً فى الأرض قديماً فحسب، إنما هو أيضاً المكان الذى سكنه أول وأقدم إنسان تاريخياً، أى هو المكان الذى سكنه آدم وزوجه عقب إهباطهما مباشرة إلى الأرض، وبالتالى فهذا المكان هو أول وأقدم مكان سكنه الإنس فى الأرض.

فقبل ذلك تاريخياً، لم يكن فى الأرض أى إنس على الإطلاق، ولو لم تكن الأرض خالية من البشر الأرضى الآخر، أى كان هناك الجن الذين هم أسبق فى الوجود تاريخياً من الإنس، وأسبق منه فى سكنى الأرض، وكان ذلك عصر الجن فى الأرض، الذى هو عصر «الجاهلية الأولى» تاريخياً (٣٣/الأحزاب). وهو عصر الفساد فى الأرض وسفك الدماء (٣٠/البقرة) وتبرج الجنيات (٣٣/الأحزاب)، وتعرى الجن رجالاً ونساءً ومن ثم الإباحية المطلقة.

وإجمالاً، كان عصر الجاهلية الأولى هو عصر انعدام الحياء على الإطلاق، وبالتالى كان كلام النبوة الأولى يتركز حول ضرورة الحياء للإنس، رجالاً ونساءً، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(آخر ما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى، إذا لم تستح فاصنع ما شئت)**([1]).

٩٩- موطن آدم فى الأرض :

لم يكن أول موطن آدم وزوجه بالأرض هو المكان الذى قُبضت منه قبضة تراب خلق الله منها آدم. لأن آدم لم يتوطن فى الأرض فور خلقه، ولا هو حتى خُلق فى المكان الذى قبضت منه قبضة التراب، ولا هو خلق من التراب وحده دون الماء، إنما خلق من الطين، ولم يتوطن فى الأرض إلا بعد أن أهبط إليها هو وزوجه.

بل إن هذا الموطن، لم يكن – حتى – مجرد مكان سكن آدم وزوجه بصفة مؤقتة، إنما هو موطنه على وجه الدوام، وبالتالى فهو أول موطن له فى الأرض، وفى أول بلد تاريخياً وأقدم بلد بإطلاق، والتى هى إذن

([1]) الألبانى: السابق – ص ٦٣ رقم ٢.

بمثابة الأصل التاريخى للمدن، أو بالأحرى هى: «أم القرى» (٩٢/الأنعام، ٧/الشورى).

علماً بأن آدم لم يتوطن فى أم القرى، إلا بصفته أول خليفة فى الأرض بإطلاق (٣٠/البقرة)، وبالتالى لم يتوطن فيها آنذاك إلا بصفتها عاصمة الأرض. وهو بهذا خليفة الأرض بإطلاق، ويتوطن عاصمتها بإطلاق.

١٠٠- أم القرى :

هذه العاصمة فى نشأتها الأولى تاريخياً، هى «بكة» بلغة آدم العربية «غير المبينة» (٣١/البقرة). وبصفتها عاصمة الأرض آنذاك، فقد حظت بأول بيت وضع للناس وقتذاك (٩٦/آل عمران)، أى حال حياة آدم، وبالتالى فإن هذا البيت هو «البيت العتيق» (٢٩/الحج، ٣٣/الحج)، أى أول وأقدم البيوت الحجرية فى الأرض بإطلاق، فلم يكن قبله ولا معه أى بيت حجرى آخر.

وهى فى نشأتها الآخرة تاريخياً، «مكة» بلغة إسماعيل العربية المبينة (٢٤/الفتح). وقد حظت آنذاك بإعادة بناء جدران البيت العتيق على يد إبراهيم وإسماعيل، وأصبح بيتاً لله ومن ثم حظى بتطهيره للطائفين والقائمين والركع السجود، توطئة لكى يؤذن إبراهيم فى الناس بالحج إليه لأول مرة تاريخياً.

وهكذا فأم القرى على امتداد آلاف السنين، لم تتغير صفتها كعاصمة للأرض، ولا تغيرت لغتها عن اللغة العربية، ولو شهدت هذه اللغة تطوراً ملحوظاً باعتبارها خلقاً من خلق الله، وله إذن نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات) ويجب التمييز بين نشأتيه (٢٠/العنكبوت).

١٠١- لغة أم القرى:

لم يتعاقب على أم القرى منذ عصر آدم لغاية عصر إسماعيل، وحتى الآن، إلا لغة عربية تلو لغة عربية، ولو أن كلتاهما تقوم على نفس الحروف الأبجدية العربية، أى تقوم على ثمانية وعشرين حرفاً عربياً، وذلك كما يلى:

فأولاً: هذه اللغة فى نشأتها الأولى تاريخياً ، هى لغة آدم، أى أن آدم هو أول من تلقاها مباشرة من ربه مصداقاً لقوله تعالى: **(وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا)**([١]). وهى بهذا أول لغة إنسان عربية، ولو كانت «العربية غير المبينة».

لكن هذه اللغة ذاتها لم تلبث أن أصبحت «العربية الجامعة»، أى لغة الإنس ولغة الملائكة على السواء، بعد أن امتحن الله الملائكة فيها ولم يعرفوها، فكلف آدم أن يعلمهم إياها، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ...)**([٢]).

وثانياً: هذه اللغة فى نشأتها الآخرة تاريخياً، هى لغة إسماعيل، أى أن إسماعيل هو أول من تلقى العربية المبينة من ربه مباشرة، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(أول من فتق لسانه بالعربية المبينة، إسماعيل، وهو**

([١-٢]) ٣١/ البقرة، ٣١-٣٣/البقرة.

ابن أربع عشرة سنة([1]). وهى بهذا العربية الخاتمة، أى العربية التى بها استنفدت اللغة العربية نشأتيها تاريخياً.

وكلتاهما لغة إنسان عربية وتقوم على حروف عربية ضعف حروف لغة الملائكة، أى ضعف العربية الفاتحة التى كانت لغة الملائكة قبل خلق آدم، وقبل أن تستوفى اللغة الملائكية العربية نشأتيها تاريخياً.

١٠٢- البلد الحرام :

وبكة ثم مكة باعتبارها عاصمة الأرض، فهى البلد الحرام، مصداقاً لقوله تعالى على لسان خاتم الرسل: **(إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ)**([2]). وهى بلد حرام من قبل خلق آدم، بل هى – حتى – بلد حرام منذ خلق السموات والأرض وإلى مالا نهاية، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض. فهى حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ...)**([3]).

ومنذ حرم الله بكة أو مكة، لم يحلها لأحد قط إلا خاتم الرسل، ولم يحلها له إلا على سبيل الاستثناء، وبصفة مؤقتة، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسول الله والمؤمنين. ألا فإنها لم تحل لأحد قبلى، ولا تحل لأحد بعدى. ألا وإنها**

([1]) الألبانى: السابق – ص ٥٠٤ رقم ٢٥٨١.

([2]) ٩١/النحل.

([3]) الألبانى: السابق – ص ٣٦١ رقم ١٧٥١.

حلت لى ساعة من نهار. ألا وإنها من ساعتى هذه حرام. لا يختلى شوكها، ولا يُعضد شجرها، ولا يلتقط ساقطتها إلا لمنشد ....)([1]).

على أن بكة ثم مكة هى البلد الحرام فى نشأته الأولى تاريخياً. أما البلد الحرام فى نشأته الآخرة تاريخياً، فهى «طابة» أو «يثرب المدينة» واختصاراً «المدينة» مصداقاً لقول خاتم الرسل : **(إن الله تعالى سمى المدينة طابة)**([2])، وقوله أيضاً: **(إن إبراهيم حرم مكة، ودعا لها. وإنى حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، ودعوت لها فى مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم لمكة)**([3]). وقد ترتب على ذلك ما يلى:

١- هجرة الرسول من مكة إلى المدينة، هى هجرة من بلد حرام إلى بلد حرام، ولو لم يخف الرسول أمر ارتباطه شخصياً بمكة، مصداقاً لقوله بشأنها: **(والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلىَّ، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت)**([4]).

٢- القرآن لم ينزل إلا فى بلد حرام، حتى لو نزل جزء منه فى مكة طوال ثلاثة عشر عاماً، ونزل جزء منه فى المدينة طوال عشر سنين.

٣- سيكون البلد الحرام عصياً على المسيح الدجال، سواء البلد الحرام فى نشأته الأولى تاريخياً أو البلد الحرام فى نشأته الآخرة تاريخياً، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(يجئ الدجال، فيطأ الأرض إلا مكة والمدينة، فيأتى المدينة فيجد بكل نقب من أنقابها صفوفاً من الملائكة)**([5]).

١٠٣- النبى المكى :

([1-5]) الألبانى: السابق – ص ٣٦٠ رقم ١٧٤٥، ص٣٦٥ رقم ١٧٧٥، ص ٣١٨ رقم ١٥٢٣، ص ١١٩٢ رقم ٧٠٨٩، ص ١٣٣٢ رقم ٨٠٢٨.

هذا النبى خلق من خلق الله، وبالتالى له إذن نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات) ويجب التمييز بين نشأتيه (٢٠/العنكبوت): وذلك كما يلى:

فأولاً: النبى المكى فى نشأته الأولى تاريخياً، هو إسماعيل، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: **(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا)**(١).

وقد جاء مكة طفلاً رضيعاً محمولاً على صدر أمه هاجر المصرية، وصحبة والده إبراهيم، الذى لم يلبث أن تركهما فى واد غير ذى زرع عند بيت الله الحرام، وعاد من حيث أتى، داعياً الله أن يرزقهم وأن يؤانسهم فى وحدتهم فى هذا الواد بأناس (٣٧/إبراهيم). ولما نفذت الماء منهما، سعت أمه أشواطاً بين الصفا والمروة بحثاً عنها، فلم تجد بعدئذ إلا ما تفجر منها تحت أقدام الرضيع، أى ماء عين زمزم، التى فجرها أيوب من قبل لأول مرة تاريخياً (٤٢/ص~).

وإسماعيل الإبن البكر لإبراهيم وهاجر، لم يكن حليماً (١٠١/الصافات) كأبيه (٧٥/هود) فحسب، إنما كان بمثابة تعويض لأبيه عن فجيعته فى أبيه آزر، وبالتالى كان إسماعيل طوعاً لأبيه حتى فى تنفيذ رؤياه عن ضرورة ذبحه، وشرعا بالفعل فى تنفيذها لولا أن الله فداه بذبح عظيم (١٠٢-١٠٨/الصافات).

وقد عاون إسماعيل والده، ليس فقط فى بناء جدران البيت العتيق على قواعد إدريس، إنما أيضاً فى تطهيره للطائفين والقائمين والركع السجود. وظل إسماعيل بمكة حتى توفى بها.

---

(١) ٥٤/مريم.

وثانياً: النبى المكى فى نشأته الآخرة تاريخياً، هو خاتم الرسل، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: **(مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ)**(١). بل حتى لم يكن لوالديه ولداً سواه، أى كان وحيد والديه.

وقد ولد بمكة يتيم الأب الذى لم تلبث الأم أن لحقت به، وبالتالى أصبح يتيم الأب والأم على السواء، فاصطنعه الله لنفسه وعلى عينه، أى وجده يتيماً فآواه، ووجده ضالاً فهداه، ووجده عائلاً فأغناه (٦-٨/الضحى)، بل حتى وعده بأن يعطيه حتى يرضى (٥/الضحى)، فأعطاه بالفعل الكوثر (١-٣/الكوثر)، ووضع عنه وزره الذى أنقض ظهره ورفع له ذكره وشرح له صدره (١-٤/الشرح)، وفتح له فتحاً مبيناً (١/الفتح) ... إلخ.

وهو من ذرية إسماعيل، مصداقاً لقوله: **(إن الله تعالى اصطفى كنانة من ولد إسماعيل. واصطفى قريشاً من كنانة. واصطفى من قريش بنى هاشم. واصطفانى من بنى هاشم)**(٢). وهو بهذا من ذرية إبراهيم، ولو لم يرد ذكره صراحة فى قائمة ذرارى نوح وإبراهيم (٨٣-٨٦/الأنعام)، بل هو حتى الأقرب من إبراهيم من الوجهة الشكلية، وذلك على نحو ما تقدم بيانه.

وقد ولد فى عام الفيل، وبُعث فى سن الأربعين، شأنه فى ذلك شأن يوسف (٢٢/ يوسف) وموسى (١٤/القصص). وتوفى عن ثلاثة وستين

---

(١) ٤٠/ الأحزاب.

(٢) الألبانى: السابق – ص ٣٥٣ رقم ١٧١٧.

عاماً، قضى العشر الأخيرة منها فى المدينة، التى دفن بها، وقبره بها لغاية الآن.

١٠٤- البلد الطيب :

أم القرى، وإن كانت عاصمة الأرض كافة، وبالتالى عاصمة عواصم الأرض، لكنها قرية من قرى الأرض على أى الأحوال، أى مجرد بلد. وهذا البلد لم يكن بلد إبراهيم، الذى لم يكن يحل بهذا البلد إلا بصفة مؤقتة، وبالتالى كان مجرد بلد بالنسبة له مصداقاً لقوله تعالى على لسانه: **(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ)**(١). وقوله تعالى على لسانه مرة أخرى: **(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ...)**(٢).

بل حتى لم تكن أم القرى بلداً قبل مجئ إبراهيم وإسماعيل إليها لأول مرة تاريخياً، إنما كان مجرد واد غير ذى زرع عند بيت الله الحرام (٣٧/إبراهيم)، أى مجرد أرض ميتاً، حتى أحياها الله بعدئذ، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاء مَاء بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا)**(٣). وقوله تعالى: **(وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا)**(٤). وقوله تعالى: **(وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ)**(٥).

أما خاتم الرسل فكان يحل بهذا البلد بصفة دائمة، مصداقاً لقوله تعالى: **(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ. وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ)**(٦). وهو بهذا قرية خاتم الرسل، ولو أخرجته بعدئذ مهاجراً إلى المدينة، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ)**(٧). وقول خاتم

(١-٧) ١٢٦/البقرة، ٣٥/إبراهيم، ١١/الزخرف، ١١/ق، ٥٨/الأعراف، ١-٢/البلد، ١٣/محمد.

الرسل: **(ما أطيبك من بلد وأحبك إلىَّ. ولولا أن قومى أخرجونى منك ما سكنت غيرك)**([1]).

ومن ثم، كان عليه أن يُنذر أهلها أولاً، أى ينذر عشيرته عامة، والأقربين منهم خاصة، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)**([2]). أى كان عليه أن يُنذر قريشاً، لكى يعبدوا رب هذا البيت الحرام، والذى ألف بينهم فى قبيلة واحدة، ثم ألفت بدورها رحلة الشتاء والصيف، والذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف (١-٤/قريش) بناء على دعاء إبراهيم قديماً.

١٠٥- لم أُختيرت أم القرى لبعثة الرسول؟

القرآن كرسالة لم ينزل فى مكة عشوائياً، إنما العكس هو الصحيح بإطلاق، أى نزل فيها انتقائياً، فكانت مكة منتقاة كموطن «أولى» لانطلاق بعثة خاتم الرسل ولو لفترة لم تتجاوز ثلاث عشرة سنة، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)**([3]). فمكة كانت منتقاه لثلاثة أسباب:

أولاً: الأصل أن اللسان العربى هو لسان الإنس عامة منذ آدم (٣١/البقرة)، وقبل أن يوجد اللسان الأعجمى، الذى لم يوجد بعدئذ إلا بزمان طويل، ولم يوجد إلا كاستثناء على أى الأحوال.

وهذا اللسان العربى هو لسان الرسول ولسان قومه فى مكة على الأقل، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ)**([4]). وقول خاتم الرسل: **(لم يبعث الله تعالى نبياً إلا بلغة**

([1]) الألبانى: السابق – ص ٩٧١ رقم ٥٥٣٦.

([2-4]) ٢١٤/الشعراء، ١٢٤/الأنعام، ٤/إبراهيم.

قومـه)([1]). وهـو فـى نفـس الوقـت لسـان القـرآن كرسـالة، مصـداقاً لقولـه تعالى: **(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)**([2]).

وبذا، فلا القرآن نزل بلسان أعجمى على قوم لسانهم عربى، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ)**([3]). ولا هو نزل بلسان عربى على قوم لسانهم أعجمى، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ. فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ)**([4]).

١٠٦- وثانياً: الأصل أن بكة أو مكة هى عاصمة الأرض عامة منـذ آدم (٩٦/آل عمـران)، وقبـل أن توجـد القبائـل والشـعوب والـدول، والعواصم، التى لم توجد بعدئذ إلا بزمان طويل ولم توجد إلا كاستثناء على أى الأحوال.

لكن «النبى المكى»، وإن استوفى نشأته الأولى تاريخياً فى عصر إسماعيل، إنما لم يكن بعد قد استوفى نشأته الآخرة قبل نزول القرآن. ومن ثم كان لابد أن يستوفى النبى المكى نشأته الآخرة قبل قيام الساعة على القرى كافة حتى أم القرى، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)**([5]).

١٠٧- وثالثاً: الأصل أن القرآن رسالة إلى البشر الأرضى عامة، فلا هى تقتصر على الإنس دون الجن، ولا على الإنس فى أم القرى دون غيرها، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي**

([1]) الألبانى: السابق – ص ٩٢٥ رقم ٥١٩٧.

([2-5]) ٢/ يوسف، ٤٤/ فصلت، ١٩٨-١٩٩/الشعراء، ٥٩/ القصص.

الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ)([1]). وقوله تعالى: **(وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا)**([2]).

وقول خاتم الرسل: **(فُضلت على الأنبياء بخمس: بعثت إلى الناس كافة و ...)**([3]). وهو بهذا لم يُبعث إلى مكة فحسب، ولو أنه رسولها في نشأته الآخرة تاريخياً، أى لم يُبعث إليها بصفته خاتم رسلها تاريخياً، إنما بعث بصفته خاتم الرسل عامة (٤٠/الأحزاب)، أى لا رسول بعده في الأرض عامة.

إذن اللسان الأصلى لغوياً، ليس هو اللسان الأعجمى، إنما هو اللسان العربى، الذى ليس النظام الأصلى لغوياً في الدنيا فحسب، إنما أيضاً في الجنة، مصداقاً لقوله خاتم الرسل: **(ليس في الجنة شئ مما في الدنيا إلا الأسماء)**([4])، التى علمها الله لآدم (٣١/البقرة) ثم التى علمها لإسماعيل، وقبلهما الملائكة.

المطلب الثانى

أعلى الأرض

١٠٨- تقديم :

للأرض «أدنى»، الذى هو مُقنن قرآنياً، بل هو حتى مُقنن إجمالاً (٣/الروم) ومُقنن تفصيلاً على السواء، وبالتالى لها بالضرورة «أعلى»، ولو لم يكن مُقنن إجمالاً، فيكفى أنه مُقنن تفصيلاً فى القرآن.

([1-2]) ٧/الشورى، ٩٢/الأنعام.

([3-4]) الألبانى: السابق – ص ٧٧٧ رقم ٤٢٢١، ص ٩٥٣ رقم ٥٤١٠.

لكن لا يزال «أعلى الأرض» غامضاً ومبهماً ومجهولاً لغاية الآن، أى لم يعد أحد من المخاطبين بالقرآن يعرف شيئاً عن ماهية أعلى الأرض، ولا عن أدواره تاريخياً، رغم تعددها وتباينها منذ آدم، ورغم أنها أدوار قديمة زمنياً وراسخة تاريخياً لغاية الآن وإلى ما لا نهاية، بل هى أدوار مباركة، وبالتالى فإن محتويات المطلب الراهن تتوزع على الفروع التالية:

الفرع الأول

ما هو أعلى الأرض؟

١٠٩- أحد الرواسى :

أعلى الأرض هو بالضرورة جبل من جبالها، أى أحد الرواسى (٣٢/النازعات) التى ألقاها الله بها (١٩/الحجر، ٧/ق)، وبالتالى فهو خلق من خلق الله.

وهذا الخلق له بالضرورة نشأتان تاريخياً، شأنه فى ذلك شأن أى خلق بإطلاق (٤٩/الذاريات). فكان فى نشأته الأولى تاريخياً، مجرد كثبان (١٤/المزمل)، وأصبح فى نشأته الآخرة تاريخياً وتداً (٧/النبأ).

١١٠- أعلى جبل فى الأرض :

أعلى الأرض، ليس مجرد جبل من جبالها، ولا هو حتى من أعلى جبالها، بل هو أعلى جبل فيها، وبالتالى أعلى من أعلى جبل فيها، بل له خصوصيته، حتى من حيث مسماه اصطلاحياً، وذلك كما يلى:

فأولاً: مسماه فى نشأته الأولى تاريخياً، هو: جبل قاف، الذى جعله القرآن عنواناً لسورة قائمة بذاتها، هى السورة رقم (٥٠) فى ترتيب السور

القرآنية، أى «سورة ق»، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(إن أعلى قمة فى الأرض هو جبل قاف)**.

لذا جعله القرآن موضوعاً لأول اصطلاح فى الآية الأولى من تلك السورة القرآنية ، مصداقاً لقوله تعالى: **(ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ)** ([1]). فهو جبل قاف بلغة الملائكة قبل خلق آدم، أى باللغة العربية «الفاتحة»، تاريخياً، والتى من ألفاظها لفظ «ق». وبالتالى فهو ليس مجرد حرف أبجدى عربى كما يتصور البعض لغاية الآن([2])، إنما هو إسم جبل، بل هو حتى إسم أعلى الأرض بإطلاق.

وشأن هذا اللفظ فى ذلك شأن لفظ «صاد»، كلفظ آخر من ألفاظ العربية الفاتحة فى القرآن، الذى لم يجعله القرآن عنواناً لسورة قرآنية فحسب، إنما جعله أيضاً اصطلاحاً فى أول تلك السورة.

وثانياً: مسماه فى نشأته الآخرة تاريخياً، هو: جبل الطور، الذى جعله القرآن عنواناً لسورة قرآنية قائمة بذاتها هى السورة رقم (٥٢) فى ترتيب السور القرآنية، أى سورة «الطور»، والتالية ترتيباً لسورة قاف. بل إن القرآن جعل هذا الطور موضوعاً لأية قرآنية قائمة بذاتها، هى الآية الأولى من السورة، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَالطُّورِ)**([3]).

([1]) ١/ ق.

([2]) انظر مثلاً على جمعه: جبل قاف المحيط بالأرض كلها – مقالة منشورة فى المؤلف الجماعى الصادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – السابق – ص٤٦٠.

([3]) ١/ الطور.

وهو بهذا جبل الطور بلغة الضاد العربية، التى هى اللغة العربية بعد خلق آدم، أى لغة الإنسان العربية، وبالتالى يجب التمييز بعدئذ بين نشأتى هذا المسمى فى ظل لغة الضاد العربية:

١- فهو جبل: (**طُورِ سِينِينَ**)([١]) بلغة آدم العربية غير المبينة، أى العربية الجامعة، التى هى لغة الإنس والملائكة معاً(٣١-٣٣/البقرة)، ومن ثم فإن أعلى الأرض لم يعد مسماه «جبل قاف» كما كان قبل خلق آدم، أى كما كان فى ظل لغة الصاد، إنما أصبح «طور سينين» بعد خلق آدم، وطور سينين بالنسبة للإنس وبالنسبة للملائكة على السواء، أى طور سينين فى ظل اللغة العربية الجامعة.

٢- ومسماه بعدئذ هو جبل : (**طُورِ سيناء**) ([٢]) بلغة إسماعيل العربية المبينة، والتى هى «العربية الخاتمة» تاريخياً، وبالتالى فإن أعلى الأرض لم يعد «طور سينين» كما كان قبل خلق إسماعيل، إنما أصبح «طور سيناء» بعد خلق إسماعيل.

وهذا التطور فى مسمى أعلى الأرض اصطلاحياً، لا يعكس تطور اللغة العربية تاريخياً فحسب، إنما يعكس أيضاً أن القرآن لم ينزل بلغة عربية واحدة، إنما نزل بثلاث لغات عربية، أى نزل بلغة الصاد جنباً إلى جنب لغتى الضاد.

١١١- جبل مبارك :

أعلى الأرض، ليس فقط أعلى جبل فى الأرض بإطلاق، إنما هو أيضاً جبل يقع فى «مغارب» مصر، بل هو حتى جبل «مبارك» فى

([١-٢]) ٢/ التين، ٢٠/ المؤمنون.

مصر، التى أورثها الله سبحانه بعد غرق فرعون للمصريين المستضعفين آنذاك، وأورثها لهم بمشارقها وبمغاربها المباركة على السواء، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا)**([1]).

وبذا فأعلى الأرض، ليس أعلى جبل فى الأرض فحسب، إنما هو أيضاً الجبل المبارك فى الأرض، فلا يوجد فيها جبل مبارك آخر. بل هو حتى ليس مباركاً منذ كلم الله موسى فيه فحسب، إنما هو مبارك من قبل ذلك، أى منذ خلق الله السماوات والأرض.

وعلى أى الأحوال، هو ليس مُباركاً منذ خلق الله السموات والأرض، إلا للدور المبارك الذى سيؤديه فى حياة آدم ونوح وموسى وعيسى، وغيرهم، وبالتالى يجب أن نتتبع دوره المبارك منذ آدم، ولا نختزله فى دوره بالنسبة لموسى وقومه.

الفرع الثانى

طوى والجودى

١١٢- دور جبل قاف:

إذن أعلى الأرض فى اللغة العربية الفاتحة قبل خلق آدم، هو: جبل قاف المبارك، بمعنى الجبل الذى ليس به الواد المبارك فحسب، إنما هو أيضاً الواد طوى، أى به إجمالاً: **(الْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى)**([2]).

والواد طوى، هو الواد الذى زويت فيه الأرض جميعاً قبل خلق آدم. مثلما ستزوى يوم القيامة مصداقاً لقوله تعالى بشأنها: **(وَالْأَرْضُ جَمِيعًا**

([1-2]) ١٣٧/الأعراف، ١٣/طه.

قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)([1]). ومثلما ستطوى السماء يوم القيامة مصداقاً لقوله تعالى بشأنها: **(وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ)**([2]). إذن يوم القيامة، يوم تطوى الأرض و**(يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء)**([3]).

وحتى قبل يوم القيامة، زوى الله الأرض لخاتم الرسل، مصداقاً لقوله فى هذا الشأن: **(إن الله زوى لى الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتى سيبلغ ما زوى لى منها ...)**([4]).

لكن زويت الأرض قبل خلق آدم، وبمناسبة خلقه، أى لكى تؤخذ منها جميعاً قبضة التراب اللازمة لخلق آدم آنذاك، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: **(إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض. فجاء بنو آدم على قدر الأرض. جاء منهم الأحمر، والأبيض، والأسود، وبين ذلك. والسهل، والحزن، والخبيث، والطيب، وبين ذلك)**([5]).

لذا لم يكن لموسى أو لغيره أن يخوض بنعليه – بعدئذ – فى هذا الواد، مصداقاً لقوله تعالى: **(فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى. إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى)**([6]). لأنه ليس الواد المقدس فحسب، إنما هو أيضاً الواد طوى الذى أخذت منه قبضة التراب التى خلق منها الإنسان الأول تاريخياً، وكل ولده من بعده، ولداً بولد إلى يوم القيامة (٣/البلد).

وأيضاً، لم يكن لإدريس وذى الكفل أن يقيما تمثالاً لرأس آدم، إلا فى مصر من ناحية، وفى مشارقها من ناحية أخرى، دون مغاربها حيث يوجد

([1-3]) ٦٧/ الزمر، ٦٧/ الزمر، ١٠٤/ الأنبياء.
([4-5]) الألبانى: السابق – ص ٣٦٤ رقم ١٧٧٣، ص ٣٦٢ رقم ١٧٥٩.
([6]) ١١-١٢/طه.

الواد طوى، الذى أخذت منه قبضة تراب خلق الله آدم منها، مصداقاً لقوله تعالى: **(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ)**([1]).

إذ لو كان هذا التمثال قد أقيم فى مغارب مصر حيث يوجد الواد المقدس، لما كان هناك ما يمنع المصريين – على الأقل – من التعامل معه بعدئذ كتمثال مقدس، على غرار ما يحدث حالياً مع تمثال بوذا مثلاً.

وعلى أى الأحوال، فى ظل غموض لفظ «طوى» على الأقل، ولغاية الآن([2])، لا يزال المصريون كغيرهم يستبعدون أن يكون تمثال رأس الإنسان الضخم الموجود بالجيزة، هو تمثال لرأس آدم على أقل الأقل، وبالتالى لا يزال الغموض والإبهام والتجهيل يكتنف هذا التمثال، فلا يُعرف صاحبه، ولا صانعه على السواء، ولا يُعرف عنه أى شئ على الإطلاق([3]).

١١٣ – دور جبل طور سينين:

بعد أن تلقى آدم لغته العربية الجامعة (٣١/البقرة) من ربه مباشرة، لم يعد أعلى الأرض هو جبل قاف، إنما أصبح جبل طور سينين. وهذا الجبل بحسب دوره المبارك بعدئذ، أى دوره بعد حياة آدم، وحتى بعد طوفان نوح، هو: «جبل الجودى».

([1]) ٦٧/ غافر.

([2]) انظر مثلاً، على جمعة: الواد طوى – مقالة في المؤلف الجماعى الصادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – السابق – ص ٤٥٧ – ٤٥٨.

([3]) انظر بالتفصيل، أحمد حشيش: أبو الهول ولغته في القانون – دار النهضة العربية، ٢٠١٨.

وهو الجبل الذى استوت عليه سفينة نوح فور انقضاء الطوفان، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ)**([1]). فالجودى هو المنزل المبارك الذى «جاد» به الله على نوح، بناء على دعائه ربه أن ينزله هو وسفينته منزلاً مباركاً، مصداقاً لقوله تعالى على لسانه: **(وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ)**([2]).

فقد استجاب الله لدعاء نوح، مصداقاً لقوله تعالى:**(قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ)**([3]). فطور سينين باعتباره أعلى من أعلى جبل فى الأرض بإطلاق، هو خير مُنزل ترسو فيه تلك السفينة، خاصة أنها كانت تجرى فى موج عال علو جبال الأرض عدا طور سينين، مصداقاً لقوله تعالى بشأن ملاحتها خاصة: **(وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ)**([4]).

ففيما عدا جبل طور سينين باعتباره أعلى الأرض بإطلاق، لم تكن كافة جبال الأرض معصومة من الطوفان، مصداقاً لقوله تعالى على لسان نوح فى رده على إبنه: **(قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ ...)**([5]).

وعلى أى الأحوال، فى ظل غموض لفظ «الجودى» على الأقل، ولغاية الآن، لا يزال المصريون كغيرهم يستبعدون أن يكون جبل طور سينين هو مرسى سفينة نوح بعد الطوفان، ويستبعدون – بالتالى – أن يكون نوح هو أول من وطأت قدماه مصر من الأنبياء والمرسلين، ولو لم تطأ قدماه سوى مغارب مصر، وذلك بعد أن وطأت أقدام إدريس وذى الكفل مشارق مصر فى نهاية القرن الأول من الثلث الأخير من عمر آدم، أى أن إبراهيم لم يكن أول من وطأت قدماه مشارق أو مغارب مصر من الأنبياء والمرسلين.

([1-5]) ٤٤/هود، ٢٩/ المؤمنون ، ٤٨/ هود، ٤٢/ هود، ٤٣/هود.

وليس معنى هذا بالبداهة أن إدريس أو ذو الكفل أو نوح أو إبراهيم، كان هو «النبى المصرى» تاريخياً. فالعكس هو الصحيح قرآنياً.

١١٤ – النبى المصرى:

هو خلق من خلق الله، وله إذن نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات) ويجب التمييز بين نشأتيه (٢٠/العنكبوت)، وذلك كما يلى:

فأولاً: النبى المصرى فى نشأته الأولى تاريخياً، هو: يوسف، الذى أتى مصر حدثاً ورقيقاً، وتربى فيها، وبُعث فيها نبياً ورسولاً وهو فى سن الأربعين، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: **(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)**(١).

وثانياً: النبى المصرى فى نشأته الآخرة تاريخياً، هو: موسى، الذى ولد بمصر، وهاجر منها شاباً أعزباً، وعاد إليها متزوجاً بعد عشر سنين، وبعث فيها نبياً ورسولاً وهو فى سن الأربعين، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: **(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)**(٢).

الفرع الثالث

جانب الطور الأيمن

١١٥ – طور سيناء:

بعد أن تلقى إسماعيل لغته العربية الخاتمة، من ربه مباشرة، لم يعد أعلى الأرض هو جبل طور سينين، إنما أصبح جبل طور سيناء، الذى أدى جانبه الأيمن (٣٠/ القصص) أى الغربى (٤٤/ القصص) دوراً مباركاً مُتعدداً ومتبايناً، أى أن دوره لم يقتصر على موسى وحده:

(١-٢) ٢٢/ يوسف، ١٤/ القصص.

١١٦ – البقعة المباركة من الشجرة:

فى منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وحال رجوع موسى من مدين التى هاجر إليها عشر سنين، كلمة الله فى البقعة المباركة من الشجرة، مصداقاً لقوله تعالى مرة: **(... نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)**(١).

وقوله تعالى مرة أخرى: **(... نُودِيَ يَا مُوسَى. إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى. وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى)**(٢). وقوله تعالى: **(وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)**(٣).

وكان ذلك قبل بعثة خاتم الرسل بألفى سنة تقريباً، وبالتالى لم يشهد خاتم الرسل دور الجانب الغربى للطور، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ)**(٤). فهو لم يشهد دور الطور، لا بالنسبة لموسى، ولا بالنسبة لقومه.

فقد واعد سبحانه قوم موسى فى جانب الطور الأيمن، مصداقاً لقوله تعالى: **(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى)**(٥). بل حتى رفع سبحانه جبل الطور فوقهم مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَآ آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ)**(٦). ورفعه سبحانه فوقهم كأنه ظلة عليهم ولو ظنوا أنه واقع بهم مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَآ آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)** (٧).

(١-٧) ٣٠/ القصص، ١١-١٣/ طه، ١٠/الشعراء، ٤٤/ القصص، ٨٠/طه، ٦٣/البقرة، ١٧١/الأعراف.

وحتى المن والسلوى الذى أنزله الله إليهم كأكل طيب من السماء (٨٠/طه)، فإنهم طلبوا أن يستبدل به مما تنبت الأرض، وبالتالى أمرهم موسى على الفور أن يهبطوا من أعلى الأرض فى مصر إلى أدناها حيث يجدون طلبهم من الطعام الأرضى، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ)**(١).

١١٧ – الربوة ذات القرار والمعين :

موسى كعيسى، وعيسى كموسى، أى كلاهما من «مواليد» مصر، ولو كان بينهما خمسة عشر قرناً، كل ما هناك أن موسى من مواليد مشارق مصر، بينما عيسى من مواليد مغاربها المباركة.

فالبقعة المباركة من الشجرة، هى الربوة ذات القرار والمعين، التى آوى الله فيها مريم الحامل بابنها منذ حملته حتى وضعته، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ)**(٢).

وذلك بعد أن تقبل الله مريم بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسنا، وكفلها زكريا طوال وجودها فى المحراب (٣٧/آل عمران)، حتى خرجت منه بعدئذ، وابتعدت عن أهلها مكاناً شرق بيت المقدس، وبالتالى احتجبت عنهم تماماً، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا. فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا ...**(٣).

(١-٣) ٦١/ البقرة، ٥٠/ المؤمنون، ١٦-١٧/مريم.

بل حتى ابتعدت عنهم وعن موطنها مكاناً قصياً عن بيت المقدس، وذلك منذ حملت بابنها، مصداقاً لقوله تعالى:**(فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا)**([1]).

وفى هذا المكان الشرقى القصى عن بيت المقدس، جاء المخاض مريم إلى جذع تلك الشجرة الموجودة فى البقعة المباركة منذ عصر موسى، وبالتالى ناداها ابنها وهو فى مهده لكى تهز هذه النخلة وتأكل مما يتساقط من تمرها، وأن تشرب من الماء المعين الموجود، وتقر عيناً، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا ... فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا. وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا. فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ...)**([2]).

وبعدها حملته وعادت أدراجها إلى وطنهما الأصلى وقومهما، وهما معاً ووالدها ووالدتها ليسوا من آل موسى، إنما من آل هارون، الذى كنيت به (٢٨/مريم)، لكن لم تلبث مريم أن عادت بابنها صغيراً إلى مصر مرة أخرى، خوفاً على حياته فى موطنهما الأصلى آنذاك.

١١٨- دور الطور فى نشأتى الإنسان تاريخياً:

وهكذا شاء الله أن يؤدى أعلى الأرض، أى الطور أو قاف، دوراً فى نشأتى الإنسان تاريخياً، سواء نشأته الأولى حيث هو «آدم» وذلك على نحو ما تقدم بيانه، أو نشأته الآخرة تاريخياً حيث هو «عيسى»، وذلك على نحو ما تقدم بيانه أيضاً، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ)**([3]).

([1-3]) ٢٢/ مريم، ٢٣-٢٦/مريم، ٥٩/آل عمران.

بل هما ليسا مختلفين – حتى – من حيث دور «الروح القدس» فى نشأتيهما تاريخياً: إذ كان للروح القدس دوراً فى نشأة الإنسان لأول مرة تاريخياً، أى فى نشأة آدم، مصداقاً لقوله تعالى إلى الملائكة فى هذا الشأن: **(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ)**(١). وقوله تعالى مرة أخرى، **(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)**(٢).

وهو نفس الدور فى نشأة الإنسان الآخرة تاريخياً، أى فى نشأة عيسى، مصداقاً لقوله تعالى مرة: **(وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا)**(٣). وقوله تعالى مرة أخرى: **(وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا)**(٤).

ومع ذلك لم يجرؤ أحد على الإطلاق أن يقول أن آدم إله أو إبن إله على الأقل، رغم أن الله أمر الملائكة بالسجود له فسجدوا أجمعون (٣٤/البقرة، ٣٠/الحجر، ٧٣/ص~)، دون أن يأمرهم سبحانه مطلقاً بالسجود لعيسى وبالتالى لم يسجدوا له على الإطلاق، ولو أنهم قد حملوا من قبل البشارة به إلى أمه فى المحراب (٤٥/آل عمران)، مثلما حملوا قبلها البشارة بيحيى إلى أبيه فى نفس المحراب (٣٩/آل عمران).

١١٩- الروح القدس:

الروح القدس هو جبريل، أى «الملك» الذى يعرج مع غيره من الملائكة إلى الله ذى المعارج، مصداقاً لقوله تعالى: **(مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ. تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ)**(٥).

(١-٥) ٢٩/ الحجر، ٧٢/ص~، ١٢/التحريم، ٩١/الأنبياء. ٣-٤/ المعارج.

والروح القدس بهذا، لا هو واحد من ثلاثة أقانيم أياً كانت، ولا الله واحد من ثلاثة على الإطلاق (٧٣/المائدة)، ولا له سبحانه ولد ولا له والد (٣/الإخلاص)، ولا له صاحبة، وسبحان الله عما يصفون.

ولا محل للزعم بعدئذ بأن مريم قد وضعت ابنها عيسى خارج الواد المقدس طوى([1])، أو أنها قد وضعته ناسوتاً ولا هوتاً على السواء (١١٦/المائدة)، حتى لو كان الله قد جعله مباركاً مصداقاً لقوله تعالى على لسانه: **(وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا)**([2]). فشأنه فى ذلك شأن إبراهيم وإسحق على الأقل، مصداقاً لقوله تعالى بشأنهما: **(وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ)**([3]). فهذا الزعم وذاك شأنهما شأن الزعم بقتل أو صلب عيسى (١٥٧/النساء)، أى مجرد خيال على الأكثر.

الفرع الرابع
قصة الخضر

١٢٠- التعريف بالخضر :

أولاً: لا يجب أن يُذكر أعلى الأرض، أى جبل قاف أو جبل الطور فى سيناء، إلا وتُذكر «قصة الخضر»، أى قصته فى القرآن (٦٠-٨٢/الكهف)، ولو كانت خالية من إسمه، الذى قننته السنة، مصداقاً لقول

([1]) قارن العكس، على جمعه: مريم تلد فى البرية ووليدها يكلمها من تحتها – مقالة منشورة فى المؤلف الجماعى الصادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- السابق – ص ٤٧٦-٤٧٨، محمد متولى الشعراوى: قصص الأنبياء والمرسلين – ط ٢ – مكتبة التراث الإسلامى – ٢٠٠١ ، ص ٥١٢-٥١٣.

([2-3]) ٣١/ مريم، ١١٣/ الصافات.

خاتم الرسل بشأنه: **(إنما سُمى الخضر خضراً، لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هى تهتز تحته خضراء)**([1]).

وكان موجوداً فى منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد، فى مصر. وعاش عند مُلتقى شعبى البحر الأحمر، أى مُلتقى خليج السويس وخليج العقبة حالياً. وفى آخر بقعة من اليابس السيناوى على البحر الأحمر، أى فى رأس محمد حالياً، وعند الصخرة الموجودة لغاية الآن (٦٠-٦٤/الكهف).

وثانياً: وهو أول من تلقى مباشرة من ربه «علم التأويل القانونى» (٦٥، ٧٨، ٨٢/الكهف)، أى تلقى علم التأويل حال نشأته لأول مرة تاريخياً، والذى نشأ على استقلال تام عن التوراة، وبالتالى أتى موسى وفتاه يوشع بن نون إلى الخضر لكى يتتلمذ على يديه فى هذا العلم (٦٦/الكهف).

وكان ذلك فى عصر من تولى حكم مصر خلفاً لفرعون الذى أغرقه الله. وهذا الخلف، لا كان إبناً لفرعون الذى لم يكن له ولداً على الإطلاق (٩/القصص)، ولا كان إسمه فرعون كالذى غرق، إنما كان ملكاً على أى الأحوال، ولو كان يأخذ كل سفينة غصباً عن أصحابها (٧٩/الكهف).

١٢١- **ثالثاً:** الخضر بهذا من «أهل العلم» المذكورين فى القرآن، وليسوا خارجه على الإطلاق، أى من «أهل الذكر» الذين يجب أن سؤالهم وحدهم عما لا نعلمه من هذا الذكر (٤٣/النحل، ٧/الأنبياء).

لأنهم أوائل من تلقوا العلوم sciences تباعاً ومباشرة من ربهم، أى هم «أولو العلم» الذين شهدوا بعد الملائكة التى شهدت بعد الله، بألوهيته

([1]) الألبانى: السابق – ص ٤٦٦ رقم ٢٣٦٤.

ووحدانيته وقيامه بشئون القسط فى الكون بأسره، مصداقاً لقوله تعالى: **(شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ...)**(١).

وهم بهذا، ليسوا أوائل الناس فى تلقى العلوم من ربهم فحسب، إنما هم أيضاً أوائل الناس فى الخشية من ربهم، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)**(٢).

وهم إذن أوائل الناس فى هذين الأمرين معاً، وبالتالى أوائل المقربين منه سبحانه، فى جنات النعيم، ولو كان أوائلهم تاريخياً أكثر من أواخرهم عدداً، مصداقاً لقوله تعالى بشأنهم: **(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ. فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ. ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ. وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ)**(٣).

لذا فهم ليسوا موجودين فى القرآن إلا باعتبارهم أهله، أى أهل القرآن، أو بالأحرى أهل الله وخاصته، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأنهم: **(إن لله تعالى أهلين من الناس: أهل القرآن، هم أهل الله وخاصته)**(٤).

١٢٢ – فى قصة الخضر حدود مصر:

على أى الأحوال، فى ظل غموض اصطلاح «أهل الذكر» على الأقل، ولغاية الآن، لا يزال كثيرون يختلسون هذه الصفة القرآنية، وينتحلونها، وبالتالى لا يسألون قصة الخضر مثلاً، عن حدود مصر جنوباً وشرقاً:

(١-٣) ١٨/ آل عمران، ٢٨/فاطر، ١٠-١٤/الواقعة.

(٤) الألبانى: السابق – ص ٤٣٢ رقم ٢١٦٥.

فأولاً: يثور حالياً التساؤل عن آخر اليابس المصرى جنوباً منذ آلاف السنين لغاية الآن، وذلك بعد تهاوى «فكرة» ملك مصر والسودان منذ خمسينيات القرن الماضى؟

لكن قصة الخضر استغرقت من شمالها إلى جنوبها، الآيات من ٦٠ إلى ٨٢ من سورة الكهف، أى استغرقت ٢٣ آية عداً وحصراً، وبقدر خطوط العرض التى ينتهى عندها اليابس المصرى جنوباً، أى ينتهى عند خط عرض ٢٣.

واليابس المصرى يضم بهذا مثلث حلايب وشلاتين، الذى يقع فوق هذا الخط، وهو يضم المثلث منذ آلاف السنين لغاية الآن، أى أن هذا المثلث يتبع اليابس المصرى جنوباً، وبصرف النظر عن مزاعم السودانيين بشأنه حالياً.

وثانياً: يثور حالياً التساؤل عن آخر اليابس السيناوى المصرى شرقاً منذ آلاف السنين لغاية الآن، وذلك بصرف النظر عن أى توافق سعودى/مصرى فى خمسينيات القرن الماضى بشأن جزيرتى تيران وصنافير؟

لكن قصة الخضر قد استهلت بست آيات (٦٠-٦٥/الكهف)، خاصة بالتقاء موسى وفتاه بالخضر عند آخر نقطة فى اليابس السيناوى المصرى، أى «الصخرة» الموجودة فى بنى محمد منذ آلاف السنين لغاية الآن.

وبهذا يقصر اليابس المصرى عن جزيرتى تيران وصنافير فى البحر الأحمر، وذلك منذ آلاف السنين لغاية الآن، وبالتالى فهما لا تتبعان اليابس المصرى على الإطلاق.

أما ما قضى به القضاء الإدارى بشأن تبعية الجزيرتين، فإنه ليس قضاء على الإطلاق، إنما هو مجرد «فتوى قضائية» على الأكثر، أى فتوى

صدرت فى شكل حكم قضائى بناء على إجراءات الدعوى قضائية، التى هى بطبعها «دعوى استفهامية» أصلاً، وبالتالى تتجاوز ولاية القضاء، الذى لا يختص بإصدار الفتاوى، وكان عليه أن يقضى فيها بعدم جواز نظرها موضوعياً، وبصرف النظر عن تعلقها أو عدم تعلقها بأعمال السيادة.

فمسألة مدى تبعية الجزيرتين لمصر أو لغيرهما بحسب الأحوال، ليست مسألة قانونية، إنما هى مسألة جغرافية/تاريخية، وبالتالى فالدعوى المتعلقة بها هى «دعوى استفهامية» أى موضوعها مجرد طلب فتوى مرفوع بإجراءات الدعوى القضائية، ويهدف إلى استصدار فتوى فى شكل حكم قضائى، ولا يجوز للقضاء نظرها موضوعياً.

١٢٣- مسائل مصرية مجهولة :

لا تزال قصة الخضر تثير مسائل مصرية بالغة الأهمية، لكنها غامضة لغاية الآن: ١- ما هى القرية المصرية التى أبت أن تضيف الخضر وموسى (٧٧/الكهف)؟. ٢- ومن هو الملك المصرى الذى كان يأخذ كل سفينة غصباً عن أصحابها (٧٩/الكهف)؟. ٣- ماذا فعل بالضبط الغلام حتى أثار خشية الخضر ووالديه من أن يرهقهما طغياناً وكفرا (٨٠/الكهف)؟.

٤- متى استوفى علم التأويل نشأته الآخرة تاريخياً، بعد نشأته لأول مرة تاريخياً على يد الخضر فى منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد (٦٥ و ٧٨ و ٨٢/الكهف)؟ ٥- هل صحيح ما يزعمه شراح القصص القرآنى لغاية الآن، سواء الزعم بأن قصة الخضر من «العجائب الغيبية» التى يقف أمامها العقل البشرى حائراً([١]). أو الزعم بأن الخضر لم يترك خلفه أى شرع أو علم على الإطلاق([٢])؟.

([١-٢]) انظر مثلاً، محمد متولى الشعراوى: السابق -ص٤٢٣ وص٤٢٦ على التوالى.

الفرع الخامس

مشكلتا سيناء مؤخراً

١٢٤- الاحتلال (١٩٦٧-١٩٧٣):

لا يُذكر أعلى الأرض، أى جبل قاف أو جبل الطور، إلا وتُذكر سيناء، التى وقعت تحت احتلال عسكرى عام ١٩٦٧، حتى جرى تحريرها عسكرياً بعدئذ عام ١٩٧٣، أى بالحرب.

والحرب أياً كانت، بمثابة استثناء، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ)**(١). وهذا الاستثناء المكروه أصلاً، لم يتقرر جوازه إلا لما فيه من خير، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ)**(٢). وقوله تعالى: **(فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا)**(٣).

لذا لم يتقرر جواز هذا الاستثناء، إلا كجزاء، وليس جزاء على كفر الكافرين، إنما كجزاء على اعتدائهم حربياً، أى المبادأة بالحرب أو التهديد بها من جانبهم، مصداقاً لقوله تعالى: **(فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ)**(٤).

وهكذا فالضرورة الملجئة للحرب هى حالة الدفاع الشرعى ضد حرب بدأت بالفعل أو حرب وشيكة الوقوع، وبالتالى إذا لم توجد ضرورة للحرب، أو تجاوزت الحرب حدود الدفاع الشرعى، فإن هذه الحرب تتمخض عن مجرد «اعتداء» منهى عنه أصلاً، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ)**(٥).

(١-٥) ٢١٦/ البقرة، ٢١٦/البقرة، ١٩/ النساء، ١٩١/ البقرة، ١٩٠/ البقرة.

والحرب كدفاع شرعى ضد حرب، ليست منوطة بالأفراد فرداً بفرد، إنما منوطه بالشعب كافة باعتباره أصل دولته، وبالتالى فهى منوطة بالدولة ، مصداقاً لقوله تعالى:(**وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً**)(١).

فهى منوطة إذن بالدولة التى يجب أن تكون مستعدة دائماً لمواجهة أى حرب عليها، لكيلا تفاجأ يوماً بهذه الحرب حال الشروع فيها أو حتى حال التهديد بها على الأقل، مصداقاً لقوله تعالى:(**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ**)(٢).

لكن على قدر استعدادها لمواجهة أى حرب من خارجها، بقدر ما يجب أن تكون مستعدة – فى نفس الوقت – للصلح بشأن وأد هذه الحرب، سواء قبل وقوعها أو حتى فى أثنائها أو بعد وقوعها، مصداقاً لقوله تعالى:(**وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ**)(٣).

فهذا الاستعداد أو ذاك، أى كلاهما من سبل الوقاية من الحرب، والوقاية دائماً خير من العلاج، لما يترتب على الحروب من أضرار جسيمة ووخيمة على طرفيها أو على أطرافها بحسب الأحوال.

وأهم سبل استعداد الدولة، ليس فقط وجود القوة المسلحة، إنما أيضاً تنظيم هذه القوة لكى تقاتل فى سبيل الله، وبالتالى فإن خير تسمية لجهة تنظيمها هى «وزارة الجهادية» أو «وزارة الدفاع الشرعى عن الدولة» واختصاراً «وزارة الدفاع».

(١-٣) ٣٦/التوبة، ٦٠/الأنفال، ٦١/الأنفال.

إنما الأفضل حالياً، تسميتها «وزارة الجهادية»، باعتبار أن الجهاد فى سبيل الله واجب مقدس من ناحية، ولكيلا يتطرق إلى أحد تصور أن هذا الجهاد منوط بالأفراد فرداً بفرد، وليس منوطاً بالشعب كافة وباعتباره أصل الدولة، وبالتالى فإن هذا الواجب منوط بالدولة ومُنظم بالقانون بمعناه التأويلى، أى بمعناه الذى يضم القرآن ولائحته التنفيذية (أى السنة) ولائحتهما الفرعية أى القانون الوضعى (٥٩/ النساء).

١٢٥- الحرابة فى سيناء (٢٠١٤-٢٠١٩):

لا يجوز مطلقاً الخلط بين نظام الحرب على نحو ما تقدم بيانه، وبين نظامى الحرابة، وكلاهما نظام جنائى يواجه اعتداء على الدولة ولو اعتداء بصورة غير مباشرة:

أولاً: نظام الحرب القبلية أو الطائفية داخل الدولة، وليس ضدها مباشرة، إنما ضدها بصورة غير مباشرة. وبالتالى على الدولة عندئذ أن تتدخل بين المتقاتلين لتحتويهم صلحاً على الأقل، ولو لم يكونوا أكثر من قبيلتين أو طائفتين.

بل عليها أن تقاتل القبيلة أو الطائفة الباغية على الأخرى، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)**(١).

وهذا النظام هو نظام جنائى استثنائى، يواجه الوجود القبلى، حتى بعد نشأة الدولة باعتبارها فرع الشعب الذى توحدت فيه القبائل، أى هو نظام جنائى يواجه بقايا النظام القبلى أو الطائفى على الأقل.

---

(١) ٩/ الحجرات.

ثانياً: نظام الحرب القبلية أو الطائفية أو الأيديولوجية ضد الدولة مباشرة، أى نظام الحرابة بمعناه الدقيق. وهو بدوره نظام جنائى استثنائى، وبالتالى ينظم جريمة الحرابة والجزاء عليها، مصداقاً لقوله تعالى:(**إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**)([1]).

١٢٦- مشكلة الحرابيين:

مشكلتهم موجودة داخلهم أصلاً، فهم يحسبون أنهم يُحسنون صنعاً. بينما هم مجرد ضحايا إمامهم أو أئمتهم بحسب الأحوال، رغم أن القاعدة هى: لا إمام ولا أئمة من بعد وفاة خاتم الرسل، وإلا فمآلهم حتماً إلى النار، وشأنهم فى ذلك شأن القردة الخاسئين تاريخياً (٦٥/البقرة، ١٦٦/الأعراف)، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(ستكون أئمة من بعدى، يقولون فلا يرد عليهم قولهم، يتقاحمون فى النار كما تقاحم القردة)**([2]).

فالحرابيون ضحايا أبغض الناس إلى خاتم الرسل، وأبعدهم منه فى الآخرة، وأسوؤهم أخلاقاً بإطلاق، سواء كانوا متكلمين ثرثارين أو مُفتين مُتفيهقين أو مُفسرين متشدقين، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأنهم: **(... إن**

([1]) ٣٣-٣٤/المائدة

([2]) الألبانى: السابق – ص ٦٧٦ رقم ٣٦١٥.

أبغضكم إلىَّ، وأبعدكم منى فى الآخرة، أسوؤكم أخلاقاً: الثرثارون المتفيهقون المتشدقون)([1]).

فهؤلاء الأئمة تعاقبوا على اغتصاب صفة «أهل الذكر»، وانتحالها عنوة، ولم يترتب على ذلك سوى آثار سلبية وخيمة للغاية وموجودة لغاية الآن فى أمة خاتم الرسل، مصداقاً لقوله: **(سيكون فى أمتى اختلاف وفرقة، قوم يُحسنون القيل ويسيئون الفعل، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، لا يرجعون حتى يرتد على فوقه. هم شرار الخلق والخليقة ... يدعون إلى كتاب الله وليسوا منه فى شئ ... سيماهم التحليق)**([2]).

وهيهات هيهات أن تُقنع «اليوم» أمة خاتم الرسل، بأن الإمامة بعد وفاته لا يجوز أن تتجاوز مطلقاً إمامة الصلاة، وإمامتها صلاة بصلاة، وبقدر وقت كل صلاة على الأكثر، أى ليست إمامة دائمة على الإطلاق. أما أئمتهم الدائمون، فليسوا موجودين خارج القرآن على الإطلاق، إنما موجودون داخل القرآن، أى هم «أهل الذكر» الموجود فى القرآن، لكى يتسنى للناس سؤالهم فى أى وقت عما لا يعلمونه من هذا الذكر أو القرآن (٤٣/النحل، ٧/الأنبياء)، وسؤالهم وحدهم، ومباشرة.

فلا أمل إذن فى حل مشكلة الحرابيين، مادام الأئمة يدافعون عن وجودهم وبقائهم.

المطلب الثالث

([1-2]) الألبانى: السابق – ص ٣٢٠ رقم ١٥٣٥، ص ٦٨٤ رقم ٣٦٦٨.

أدنى الأرض

١٢٧ – تقديم:

أدنى الأرض جغرافياً (٣/ الروم)، شأنه شأن أعلى الأرض جغرافياً، أى خلق من خلق الله. وله إذن نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)، ويجب التمييز بين نشأتيه (٢٠/العنكبوت). وذلك بمراعاة ما يلى:

فأولاً: لا يمكن التعرف على أدنى الأرض غلمياً، قبل التعرف على أعلى الأرض. بل العكس هو الصحيح منهجياً، وبالتالى عالجنا آنفاً أعلى الأرض توطئة لمعالجة أدنى الأرض فى هذا المقام.

وثانياً: لا يمكن التعرف على أدنى الأرض فى نشأته الأولى تاريخياً، قبل التعرف عليه فى نشأته الآخرة تاريخياً. بل العكس هو الصحيح منهجياً، وبالتالى سنعالج فى هذا المقام أدنى الأرض فى نشأته الآخرة قبل نشأته الأولى.

وثالثاً: أدنى الأرض جغرافياً مرتبط بحربين توعد الله بهما بنى إسرائيل بسبب فسادهم فى الأرض مرتين (٤–٨/الإسراء)، ومرتبط أيضاً بالتنور الذى فار بالطوفان فى عصر نوح، وبالتالى لابد من معالجة هذين الأمرين.

الفرع الأول

القدس

١٢٨ – أدنى الأرض فى نشأته الآخرة:

المغارب المباركة فى سيناء على نحو ما تقدم بيانه، تقع فى مصر، ولا تقع إلا فى مصر، فلا هى تقع خارج مصر، ولا هى حتى تقع فى دولة جوار مصر، ولو كانت فلسطين حالياً.

فهذه المغارب المباركة هى إذن مغارب مصر، بل هى مغارب مصر وحدها دون غيرها، وبالتالى ليست مغارب بالنسبة لفلسطين مثلاً، ولا بالنسبة لبيت المقدس على الأقل. إنما العكس هو الصحيح بإطلاق.

أى هى مشارق مباركة بالنسبة لبيت المقدس، الذى ليس مباركاً فى ذاته، إنما المبارك هو «ما حوله» فحسب، أى ما حوله على الأكثر، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: **(الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ)**([1]).

على أن المبارك حول بيت المقدس، لا هو موجود فى شرقه فحسب، ولا هو موجود فى غربه فحسب، إنما موجود فى شرقه وغربه على السواء، ولو لم يكونا على مسافة واحدة منه، أى حتى لو كان المبارك شرقه أبعد عنه كثيراً من المبارك غربه، الذى هو إذن أكثر قُرباً منه، وذلك كما يلى:

فأولاً: المبارك شرقاً بالنسبة لبيت المقدس، هى المغارب المباركة فى مصر، أى أعلى الأرض، وبالتالى انتبذت مريم من أهلها مكاناً شرقياً بالنسبة لبيت المقدس (١٦/مريم) ، حتى حملت بإبنها بعدئذ ثم انتبذت به مكاناً شرقياً وقصياً عن بيت المقدس (٢٢/مريم) ، أى ابتعدت فى الحالين إلى أعلى الأرض فى مصر.

وثانياً: المبارك غرب بيت المقدس، هى حالياً «القدس» ، باعتبارها أدنى الأرض، ولو لم تكن أدنى الأرض فى نشأته الأولى تاريخياً، إنما هى أدنى الأرض فى نشأته الآخرة تاريخياً منذ عصر موسى فى منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد، ولو أن أدنى الأرض مُبارك من قبل موسى بزمان طويل للغاية، إن لم يكن مُباركاً منذ خلق الله السموات والأرض.

١٢٩ – ما القدس اصطلاحياً؟

([1]) ١/ الإسراء.

اصطلاحياً، «القدس» هى اختصار اصطلاح «الأرض المقدسة»، التى أمر الله موسى وقومه بأن يدخلوها، لكن قومه عصوا هذا الأمر الإلهى وقتذاك، أى امتنعوا عن دخولها خوفاً ورعباً ممن هم بها، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ... يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ. قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ... قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ... قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)**([1]).

ورغم أنها كانت أرضاً مقدسة أى مُباركة، وقت أن حملت مريم بإبنها عيسى، لكن مريم لم تلجأ إليها قط، فلا هى احتجبت فيها من أهلها، ولا هى وضعت فيها إبنها، وذلك لكونها أدنى الأرض على أى الأحوال. ومن باب أولى، لم تضع مريم إبنها فى أى مكان آخر بفلسطين، لا فى بيت لحم، ولا فى غيره على الإطلاق، وبصرف النظر عما فى الكتاب المقدس (٧٦/النمل).

١٣٠- الحرب قديماً فى أدنى الأرض:

الشئ بالشئ يُذكر. فمصر غُلبت من إسرائيل عام ١٩٦٧م، فى سيناء، أى فى أعلى الأرض. ولم تلبث مصر أن غلبت إسرائيل بعد ست

([1]) ٢٠ و ٢١ و ٢٢ و ٢٤ و ٢٦/ االمائدة.

سنين عام ١٩٧٣م، أو بالأحرى غلبت إسرائيل فى بضع سنين، بمعنى البضع فى قول خاتم الرسل: **(البضع ما بين الثلاث إلى التسع)**([1]).

ولا نظير لهذه الحرب الحديثة على الإطلاق، إلا الحرب قديماً حال حياة خاتم الرسل، دون أن يكون طرفاً فيها. فآنذاك غُلبت الروم ثم لم تلبث أن غلبت عدوها فى بضع سنين، ولو لم تكن هذه الحرب فى أعلى الأرض إنما كانت حرباً فى أدنى الأرض، مصداقاً لقوله تعالى بشأنها:**(غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ. بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)**([2]).

١٣١- حرب الروم قديماً فى أدنى الأرض :

وفى حرب الروم، لله الأمر من قبل أن يُغلبوا، ومن بعد أن غُلبوا، ومن قبل أن ينصرهم سبحانه، ومن بعد أن نصرهم ومدهم بالمال والبنين.

إذ كانت هذه الحرب «أول» حربين توعد الله بهما بنى إسرائيل، وذلك بسبب إفسادهم فى الأرض مرتين، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا. فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً. ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا)**([3]).

وكانت هذه الحرب حال حياة خاتم الرسل، ولم يكن المسلمون طرفاً فيها، إلا بمشاعرهم تجاه طرفيها، فكانوا يؤيدون الروم كمسيحيين، أى كأهل كتاب على الأقل، ولا يؤيدون الفرس كمجوس وعبدة نار. لكن لم يلبث خاتم الرسل أن حذر أمته مما يأخذ به الطرفان معاً، مصداقاً لقوله: **(لا تقوم**

([1]) الألبانى: السابق – ص ٥٥٨ رقم ٢٨٨٧.

([2-3]) ٢-٥/ الروم، ٤-٦/ الإسراء.

الساعة حتى تأخذ أمتى أخذ القرون قبلها شبراً بشبر، وذراعاً بذراع. قيل: يا رسول الله، كفارس والروم؟. قال: ومن الناس، إلا أولئك؟)([1]).

فلا تتعجب بعدئذ مما قد تراه مأخوذاً عنهما، طوعاً أو كرهاً، باسم العولمة أو الحرية أو التنوير أو التطور أو التمدن أو التقريب بين المذاهب.

١٣٢- الحرب الآخرة فى أدنى الأرض:

هذه الحرب بدورها توعد الله بها بنى إسرائيل، ولو لم يأت ميعادها بعد، إنما سيأتى حتماً، مصداقاً لقوله تعالى لهم: **(فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا. عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ...)**([2]).

وقول خاتم الرسل: **(لا تقوم الساعة حتى يقتل المسلمون اليهود. فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودى من وراء الحجر والشجر. فيقول الحجر أو الشجر، يا مسلم يا عبد الله: هذا يهودى خلفى فتعال فاقتله، إلا الفرقد، فإنه من شجر اليهود)**([3]).

الفرع الثانى

مدين

١٣٣- أدنى الأرض فى نشأته الأولى:

أدنى الأرض أسبق فى الوجود تاريخياً من تسميته: «القدس». فلا هو حديث حداثة هذه التسمية مؤخراً، ولا هو فى حداثة حرب الروم فيه حال

([1]) الألبانى: السابق – ص ١٢٣٥ رقم ٧٤٠٨.

([2]) ٧-٨/ الإسراء.

([3]) الألبانى: السابق – ص ١٢٣٨ رقم ٧٤٢٧.

حياة خاتم الرسل (١-٤/الروم)، ولا هو حتى حديث حداثة عصر موسى فى منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

فأدنى الأرض، لم يصبح القدس، إلا فى نشأته الآخرة تاريخياً، بعد أن كان فى نشأته الأولى تاريخياً، هو : «مدين». وقد هاجر إليها موسى شاباً أعزباً وخائفاً وفاراً من ملأ فرعون أن يقتلوه (٢٠-٢١/القصص). مصداقاً لقوله تعالى بشأن وجهته فى هجرته من مصر وقتذاك: **(تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ)**(١). لذا فإن هجرته من مصر لم تتجاوز مدين، التى كانت إذن نهاية رحلة هجرته آنذاك، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ)**(٢).

ومدة وجوده فى مدين، لم تكن قصيرة، ولا طويلة، إنما كانت عشر سنين قضاها كاملة، وبدأها بتزوج واحدة من ابنتى «الشيخ الكبير» الذى تبناه منذ وطأت قدماه مدين، وذلك بعد أن استمع هذا الشيخ إلى قصته، وبعد عصر شعيب بزمان طويل للغاية.

وبعد عشر سنين فى مدين، سار موسى بأهله عائداً إلى مصر، حتى بلغ جانب الطور الأيمن، أى أعلى الأرض فى مصر، حيث بُعث نبياً ورسولاً، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى. وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)**(٣).

إذن موسى، لا هو بدأ بعثته فى مدين، ولا هو أتم بعثته فى الأرض المقدسة بعد أن امتنع قومه عن الدخول إليها، ولا هو حتى أول من هاجر إلى مدين كأرض مباركة، بل سبقه إلى ذلك تاريخياً إبراهيم ولوط، ولو لم يهاجرا إليها إلا بعد بعثتهما وصيرورتهما من الأنبياء والمرسلين.

(١-٣) ٢٢/القصص، ٢٣/ القصص، ٤٠-٤١/ طه.

١٣٤- هجرة إبراهيم ولوط إلى مدين:

إبراهيم هو أول من هاجر إلي مدين من الأنبياء والمرسلين، ولو لم يهاجر إليها منفرداً، إنما هاجر إليها بصحبة لوط الذى آمن له، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)**(١).

وكانا بهذا أول من هاجر إلى مدين كأرض مباركة، من الأنبياء والمرسلين، مصداقاً لقوله تعالى بشأنهما: **(وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ)**(٢).

وبعد أن استقر إبراهيم فى مهجره الجديد، لم يلبث أن رحل إلى مصر تصحبه زوجته سارة، ولم يرجعا وحدهما، أى لم يرجعا إلا بصحبة هاجر، التى دخل بها إبراهيم فى مدين بعدئذ، وأنجبت له إبنه البكر إسماعيل، الذى رحل طفلاً رضيعاً على صدر أمه يصحبهما والده إلى مكة، حيث استقر بها إسماعيل حتى توفى بها وذلك على نحو ما تقدم بيانه.

لكن بعد أربع عشرة سنة من ميلاد إسماعيل، تلقى مباشرة من ربه اللغة العربية «الخاتمة» و «المبينة» وذلك على نحو ما تقدم بيانه، بينما أنجبت سارة وقتذاك لإبراهيم ابنها البكر إسحاق، فى مدين أيضاً، ولو استقر فيها حتى مات.

ولم يمنع من إنجاب إسحاق، لا هرم أمه ولا عقمها ولا شيخوخة أبيه، بل إن البشارة به من جانب الملائكة، قد اقترنت بإعلانهم عن مهمتهم وقتذاك، وهى إيقاع العقاب على قوم لوط، بسبب تفشى اللواط، وارتياد نادى المنكر على الأقل، أى كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه.

(١-٢) ٢٦/ العنكبوت، ٧١/ الأنبياء.

١٣٥- من الذى بُعث بعد إبراهيم ولوط؟

هاجر إبراهيم ولوط إلى الأرض المباركة، ولو اختص إبراهيم بمدين، بينما اختص لوط بضاحية جنبها قائمة بذاتها نسبياً مصداقاً لقوله تعالى بشأنها: **(وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ)**[١]. فهى لم تكن تبعد كثيراً عن مدين، بل كان الطريق إليهما واحداً، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ)**[٢].

وهذه الضاحية فى بداية نشأتها تاريخياً، وحتى فى عصر لوط، هى: «المؤتفكة» مصداقاً لقوله تعالى: **(وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى)**[٣]، أو «المؤتفكات» مصداقاً لقوله تعالى: **(وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ)**[٤]. أما فى نشأتها الآخرة تاريخياً بعد عصر إبراهيم ولوط، فهى: «الأيكة»، وأهلها هم «أصحاب الأيكة».

ولم يُبعث بعد إبراهيم ولوط إلا شعيب، الذى لم يبعث إلى مدين دون الأيكة، ولا إلى الأيكة دون مدين، إنما بعث إليهما معاً، مصداقاً لقوله تعالى بشأن بعثته إلى مدين: **(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا)**[٥]. وقوله تعالى بشأن بعثته إلى المؤتفكة بعد أن صارت «الأيكة»: **(كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ)**[٦].

وقد بُعث إليهما شعيب ولم يكن قد مضى وقت طويل على ما وقع بقوم لوط، أى أهل المؤتفكة أو المؤتفكات، مصداقاً لقوله تعالى على لسان شعيب إلى أهل مدين أو أهل الأيكة معاً: **(وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ)**[٧].

إذن شعيب هو الذى خلف مباشرة إبراهيم ولوط على مدين والإيكة على السواء، وتمحورت دعوته آنذاك على محورين، هما: أن يتركوا ما كان

([١-٧]) ٧٦/ الحجر، ٧٩/ الحجر، ٥٣/ النجم، ٧٠/ التوبة، ٨٤/ هود، ١٧٦-١٧٧/الشعراء، ٨٩/ هود.

يعبد آباءهم ويعبدوا الله وحده، وأن يكفوا عن الغش فى تعاملاتهم المالية، أى فى المكيال والميزان، ولو أن ذلك كان أمراً مستغرباً من أهل مدين وأصحاب الأيكة على السواء، مصداقاً لقوله تعالى على لسانهم: **(يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء)**([1]).

١٣٦- شعيب هو إسحاق :

تلقى إبراهيم وسارة بشارة من السماء بإسحاق (٥٣/الحجر، ٢٨/الذاريات)، ومن بعد إسحق يعقوب (٧١/هـ). وكلاهما ليس له إسماً عربياً واحداً، إنما له إسمان فى القرآن. فقد صاحب تلقى إسماعيل للعربية الخاتمة، ووجودها جنباً إلى جنب العربية الجامعة (٣١-٣٣/البقرة)، وجود ظاهرة الإسمين:

١- فإسحاق بلغة آدم العربية الجامعة، هو شعيب بلغة إسماعيل الخاتمة والمبينة، وقد أفاض القرآن فى بيان ما قام به شعيب من عمل فى سبيل الله وذلك فى الآيات ٨٥-٩٣ من سورة الأعراف، ومن ٨٤-٩٥ من سورة هود، ومن ١٧٦-١٩١ من سورة الشعراء وكذا ٧٨ و ٧٩ من سورة الحجر، وبالتالى يخلو هذا القرآن من بيان أى عمل فى سبيل الله قام به إسحاق، رغم أنه نبى ورسول.

٢- وإسرائيل بلغة آدم العربية الجامعة، هو يعقوب بلغة إسماعيل العربية الجامعة، وبالتالى لم يرد ذكر إسرائيل فى القرآن إلا فى ٩٣/آل عمران، و ٥٨/مريم.

([1]) ٨٧/ هود

٣- وإل ياسين بلغة آدم العربية الجامعة، هو إسماعيل باللغة العربية الخاتمة والمبينة، وبالتالى لم يرد ذكر «إل ياسين» إلا فى ١٣٠/الصافات.

وحتى قائمة ذرية نوح وإبراهيم فى الآيات ٨٤ – ٨٦ من سورة الأنعام، بها إسحاق دون شعيب، وبها يعقوب دون إسرائيل، وبها إسماعيل دون إل ياسين.

إذن شعيب هو إسحاق، وإسحاق هو شعيب الذى خلف مباشرة إبراهيم ولوط، وخلفهما فى مدين والأيكة، وذلك بصرف النظر عما فى الكتاب المقدس (٧٦/النمل)، وما فى شروح القرآن وقصصه تلك الشروح التى تتعامل مع إسحاق على استقلال وتتعامل مع شعيب على استقلال وكأنهما ليسا شخصاً واحداً، ولا نبياً ورسولاً واحدا، حتى لو كان له إسمين فى القرآن.

الفرع الثالث
دور مدين
فى الطوفان

١٣٧- بداية الطوفان :

كان فوران التنور بمثابة علامة على بداية طوفان نوح، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(فَإِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ)**(١).

والمقصود بفوران التنور هو تفجر الماء الجوفى من عيون الأرض، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ)**(٢).

١٣٨- عيون الماء الجوفى :

(١-٢) ٢٧/المؤمنون ، ١٢/ القمر.

عيون الماء الجوفى بالأرض هى التنانير، أى البيوت المبنية تحت سطح الأرض، وكل بيت مبنى على بناء التنور، حيث أعلاه ضيق وأسفله واسع، قياساً على قول خاتم الرسل: **(رأيت الليلة رجلين ... فانطلقت معهما، فإذا بيت مبنى على بناء التنور، أعلاه ضيق، وأسفله واسع .....)**([1]).

وأعلى هذه التنانير (العيون) أقرب من السطح فى أدنى الأرض، عنه فى أعلى الأرض، وأقرب كثيراً جداً، وبالتالى أقرب من سطح الأرض فى مدين، عنه فى غيرها من الأرض بإطلاق، ولو لم تكن أعلى الأرض.

وهكذا بدأ الطوفان من مدين باعتبارها أدنى الأرض، وبدأ منها قبل أن يبدأ فى غيرها من الأرض بإطلاق، ولو لم يكن غيرها هو أعلى الأرض.

١٣٩ - اكتمال طوفان نوح :

لكن طوفان نوح لم يكن وليد تفجر عيون الماء الجوفى فى مدين فحسب، ولا حتى فى غيرها من الأرض، إنما كان وليد التقاء هذا الماء الجوفى فى الأرض بالماء المنهمر من أبواب السماء مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ. وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاء)**([2]).

وهكذا اكتمل الطوفان، أى طغى الماء، وبالتالى حمل الله السفينة ومن بها من أسلافنا، الذين لولاهم ما كنا موجودين ماضياً أو حالياً أو مستقبلاً، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(لَمَّا طَغَى الْمَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي**

([1]) الألبانى: السابق – ص ٦٥١ رقم ٣٤٦٢.

([2]) ١١-١٢/القمر.

الْجَارِيَـةِ)([1]). وقلنا آنفاً أنها لم ترسو إلا على أعلى الأرض بإطلاق، أى الجودى، الذى هو جبل الطور.

١٤٠- الطوفان فى نشأتيه تاريخياً :

إذن الطوفان خلق من خلق الله، وبالتالى له نشأتان تاريخياً، (٤٩/الذاريات)، ويجب التمييز بين نشأتيه (٢٠/العنكبوت)، وذلك كما يلى:

فأولاً: الطوفان فى نشأته الأولى تاريخياً، هو طوفان نوح على نحو ما تقدم بيانه، ومصداقاً لقوله تعالى بشأنه: **(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ... فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ)** ([2]).

وثانياً: الطوفان فى نشأته الآخرة تاريخياً، هو الطوفان الذى شهدته مصر فى عصر فرعون، أى فى منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ)**([3]).

وبدهى أن الطوفان فى الحالتين هو أحد جنود الله، التى لا يعلمها سواه سبحانه، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُو)**([4]).

المطلب الرابع

الأحقاف

١٤٤- عنوان سورة:

ليست الأحقاف من «المباركات» فى الأرض، التى باركها الله فى اليومين التاليين، بعد يومى خلق الأرض، مصداقاً لقوله تعالى فى شأنها:

([1-4]) ١١/الحاقة، ١٤/ العنكبوت، ١٣٢-١٣٣/ الأعراف، ٣١/المدثر.

(خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا ... فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ)([1]).

فهذه المباركات واردة عداً وحصراً فى القرآن، حيث هى عاصمة الأرض وأعلى الأرض وأدنى الأرض وذلك على نحو ما بيناه آنفاً، فلا يجوز بعدئذ الإنقاص منها ولا الإضافة إليها، ولو بطريق القياس أو الاجتهاد. فمثلاً «قم» الإيرانية و «كربلاء» العراقية ليستا من المباركات فى الأرض، وبالتالى فقداستهما لدى الشيعة هى قداسة زائفة.

وكذا الأحقاف ليست من المباركات، ولو لم تقل عنها أهمية من الوجهة الجغرافية التاريخية والعلمية، خاصة أن القرآن قد خصها بعنوان سورة قرآنية قائمة بذاتها هى السورة رقم (٤٦)، أى «سورة الأحقاف»، وبالتالى لم يعد صواباً أن تقرأ أو تحفظ هذه السورة دون أن تعرف شيئاً عن الأحقاف.

وعلى أى الأحوال، الأحقاف شأنها شأن عاصمة الأرض وأعلى الأرض وأدنى الأرض، هى خلق من خلق الله. وهذا الخلق له نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)، ويجب إذن التمييز بين نشأتيه (٢٠/العنكبوت)، وذلك على التفصيل التالى:

الفرع الأول

الأحقاف

قبل طوفان نوح

١٤٢ - الأحقاف الأولى تاريخياً:

الأحقاف قبل طوفان نوح، هى الأحقاف فى نشأتها الأولى تاريخياً، والتى شهدت ميلاد نوح ذاته، وحياته التى طالت ألفاً إلا خمسين عاماً

([1]) ٩-١٠/فصلت

(١٤/العنكبوت)، أى أقل بعشر سنين مما عاشه آدم من قبل. وهذا التناقص فى عمر الإنسان واكبه جريان تاريخه عشرة قرون، أى عشرة عصور، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(كان بين آدم ونوح عشرة قرون)**([1]). علماً بأن الإنسان بعد آدم، لا يتناقص عمراً فحسب، إنما أيضاً يتناقص طولاً.

١٤٣- بعثة نوح :

كما شهدت الأحقاف بعثة نوح إلى قومه (٥٩/الأعراف، ٢٥/هود)، ولو لم يؤمن به منهم إلا القليل، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَمَآ آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ)**([2]). بل حتى اعتبر قومه أن هذا القليل بمثابة «الأراذل» على الأكثر، وعلى ما يبدو منهم لأول وهلة، مصداقاً لقوله تعالى على لسانهم: **(قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ)**([3]). وقوله تعالى:**(مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ)**([4]).

لا لم تؤمن به، حتى زوجته، التى شأنها فى ذلك شأن زوجة لوط بعدئذ. فكلتاهما لم تؤمن برسالة زوجها، وتخندقت بهذا فى خندق أعدائه الكافرين، أى خانته، مصداقاً لقوله تعالى: **(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ)**([5]).

لذا لم يؤمن به حتى إبنه، وبالتالى لم يُغن نوح عنه من الله شيئاً، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي .... قَالَ**

([1]) مشار إليه في ابن كثير: السابق – ص ٥١.

([2-5]) ٤٠/هود، ١١١/الشعراء، ٢٧/هود، ١٠/التحريم.

يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)([1]).

١٤٤- أول نشأة السفينة :

وأيضاً شهدت الأحقاف نشأة «السفينة» لأول مرة تاريخياً، التى لم تكن من قبل معروفة لأحد على الإطلاق، فلا كانت معروفة لنوح أو لغيره من قومه، ولا معروفة لأى قوم غير قوم نوح، وبالتالى لم يكن نوح يعرف شيئاً عن كيفية صناعة هذه السفينة، حتى تلقى هذا العلم مباشرة من ربه، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا)**([2]). وقوله تعلى: **(واصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا)**([3]).

لذا لم تكن هذه السفينة بدائية الصنع، إنما كانت كاملة هندسياً، سواء من حيث محورها الطولى وعوارضها المقوسة المتعامدة عليه، أو من حيث الألواح الطويلة المتوازية مع المحور والتى تكسو تلك العوارض، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ)**([4]).

ومن ثم كانت صالحة للملاحة، حتى الملاحة، فى الموج العالى علو جبال الأرض عدا جبل الطور باعتباره أعلى الأرض، وبالتالى بمثابة ميناء الوصول أى الجودى الذى ترسو عليه السفينة مؤخراً، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ)**([5]). وقوله تعالى: **(وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ)**([6]). وبهذا كانت السفينة مهيأة أو ميسرة لما خلقت له .

([1-6]) ٤٥-٤٦/هود، ٢٧/المؤمنون، ٣٧/هود، ١٣/القمر، ٤٢/هود، ٤٤/هود.

وكانت – حتى – صالحة لحمل البضائع وحمل الركاب على السواء، مصداقاً لقوله تعالى: **(قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ...)**([1]).

وهى بهذا لم تنقل حمولتها من مكان غير مبارك (الأحقاف) إلى مكان مبارك (الطور) فحسب، إنما هى أيضاً نجت حمولتها من الغرق حتى فى الطوفان، وبالتالى كانت هذه السفينة وستظل إلى مالا نهاية بمثابة «آية»، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ)**([2]).

١٤٥ – دور نوح :

وهكذا كان دور نوح للأحقاف ضرورياً، وهو أن يستبدل قوماً مؤمنين بقوم كافرين، وأن ينقل القوم الأول من مكان غير مبارك إلى مكان مبارك (الطور)، وذلك بإذن الله، وبالتالى خصه القرآن بعنوان سورة قرآنية قائمة بذاتها هى السورة رقم (٧١)، أى «سورة نوح».

الفرع الثانى

الأحقاف بعد الطوفان

١٤٦ – الأحقاف الآخرة تاريخياً:

الأحقاف بعد طوفان نوح هى الأحقاف فى نشأتها الآخرة تاريخياً، والتى لم يعد إليها من الناجين مع نوح سوى واحد، هو «عاد» الذى لم يكن قبل أو بعد الطوفان من ذرية نوح على الأقل، إنما كان من ذرية آدم على أى الأحوال.

([1-2]) ٤٠/هود، ١٥/القمر.

فحتى أيوب بن نوح، لم يظهر جغرافياً بعد الطوفان، إلا حيث توجد زمزم (٤٢/ص~) وذلك على نحو ما بيناه آنفاً، أى فى «بكة» آنذاك، التى لم تُصبح «مكة» إلا بعدئذ بزمان، أى أن أيوب لم يرجع إلى الأحقاف بعد الطوفان، لا هو ولا من وهبهم الله له من أهله وغيرهم، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ)**(١). وقوله تعالى: **(وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ)**(٢).

١٤٧ – قوم عاد:

إذن لم ينشأ فى الأحقاف بعد الطوفان، إلا قوم عاد، وهذا القوم لم ينشأ إلا باعتباره قرناً آخراً بعد قوم نوح قبل الطوفان، مصداقاً لقوله تعالى بعد قصة نوح مباشرة: **(ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ)**(٣). فقوم عاد بهذا خلفاء قوم نوح فى الأحقاف، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ)**(٤).

وكان الرسول من ربهم إليهم، هو: «هود»، الذى كان من قوم عاد، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً)**(٥). ويجب أن يُذكر هو دائماً، باعتباره أول وآخر النذر إليهم، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: **(وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ)**(٦).

لأن الله أهلكهم، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى)**(٧). وذلك لما وقع عليهم منه سبحانه رجس وغضب بسبب عبادتهم الأصنام التى توارثوها عن آبائهم، وتكذيبهم رسوله (٧٠–٧١/الأعراف).

(١–٧) ٤٣/ص~، ٨٤/الأنبياء، ٣١/المؤمنون، ٦٩/الأعراف، ٦٥/الأعراف، ٢١/الأحقاف، ٥٠/النجم.

وكانت عاد الأولى تاريخياً، هى إرم ذات العماد، مصداقاً لقوله تعالى: **(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)**([1]).

١٤٨- دور هود للأحقاف:

كان دور هود للأحقاف ضرورياً على أى الأحوال، وهو أن يستبدل لها قوماً مؤمنين بقوم كافرين على الأقل، وبالتالى خصه القرآن بعنوان سورة قرآنية قائمة بذاتها، هى السورة رقم (١١)، أى «سورة هود»، التى يقول خاتم الرسل فى شأنها: **(شيبتنى هود وأخواتها قبل المشيب)**([2]). ويقول أيضاً: **(شيبتنى هود وأخواتها من المفصل)**([3]).

الفرع الثالث

الأحقاف بعد عاد

١٤٩- عاد الآخرة تاريخياً:

الذى خلق عاد الأولى تاريخياً فى الأحقاف من قبل، قادر سبحانه على أن يخلق عاداً الآخرة تاريخياً فى الأحقاف من بعد، ولو من هود والذين آمنوا معه من عاد الأولى، مصداقاً لقوله تعالى بشأنهم مرة: **(فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ)**([4]). وقوله تعالى مرة أخرى: **(وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ)**([5]).

([1]) ٦-٨/الفجر،

([2-3]) الألبانى: السابق – ص ٦٩٢ رقم ٣٧٢١، ص ٦٩٢ رقم ٣٧٢٢.

([4-5]) ٧٢/الأعراف، ٥٨/هود.

وعاد الآخرة هم «قوم ثمود»، الذين خلفوا عاد الأولى فى الأحقاف، وبوأهم الله فى أرضها سهولاً وجبالاً، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ)**(١).

وكان الرسول من ربهم إليهم هو: «صالح»، الذى كان من قوم ثمود، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا)**(٢). وقد فاجأهم بما أتاهم به بعد بعثته، ولم يكونوا يتوقعوه منه قبل بعثته على الإطلاق، مصداقاً لقوله تعالى على لسانهم: **(قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)**(٣).

بل حتى طلبوا آية عليه نفسه كرسول، مصداقاً لقوله تعالى على لسانهم: **(مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)**(٤). فكانت الناقة هى هذه الآية، مصداقاً لقوله تعالى على لسانه: **(قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ. وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ)**(٥). وقوله تعالى: **(قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)**(٦).

ولا هم آمنوا، ولا هم سكتوا، بل شرعوا فى قتل صالح وأهله وذلك باتفاقهم على خطة القتل، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ. قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ. وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)**(٧).

(١-٧) ٧٤/الأعراف، ٦١/هود، ٦٢/هود، ١٥٤/الشعراء، ١٥٥/الشعراء، ٧٣/الأعراف، ٤٨- ٥٠/النمل.

ولما فسدت هذه المؤامرة، قتلوا الناقة، مصداقاً لقوله تعالى: **(فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ)**([1]). وبعدها دمرهم الله، مصداقاً لقوله تعالى: **(فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ. فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)**([2]).

١٥٠- أصحاب الحجر:

وقوم ثمود هم «أصحاب الحجر» مصداقاً لقوله تعالى: **(وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ. وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ. وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ)**([3]).

والحجر هى ديار ثمود، الذين جابوا الصخر بالواد، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ)**([4]). وهذا الواد هو «واد القرى»، الذى أمر خاتم الرسل الناس فى طريقهم إلى غزوة تبوك أن يستقوا من البئر التى كانت تردها الناقة، دون البئر الأخرى.

١٥١- الحجر :

وقد خص القرآن الحجر بعنوان سورة قرآنية قائمة بذاتها، هى السورة رقم (١٥)، أى «سورة الحجر».

الفرع الرابع

الأحقاف بعد ثمود

١٥٢- ثمود الآخرة تاريخياً:

الذى خلق ثمود الأولى تاريخياً من قبل، قادر سبحانه على أن يخلق ثمود الآخرة تاريخياً من بعد، ولو من صالح والذين آمنوا معه من ثمود الأولى، مصداقاً لقوله تعالى بشأنهم مرة: **(وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا**

([1-4]) ٦٥/هود، ٥١-٥٢/النمل، ٨٠-٨٢/الحجر، ٩/الفجر.

يَتَّقُونَ)([1]). وقوله تعالى مرة أخرى: **(فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ. وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ. كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّثَمُودَ)**([2]).

وثمود الآخرة تاريخياً، هم «قوم تبع» وقد تعاقب عليهم ثلاثة رسل، حتى أصبحوا مثلاً فى هذا الشأن، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ. إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ. قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ. قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ. وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ. قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ. قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ)** ([3]).

١٥٣- تُبَّع :

ليس مؤكداً أن تُبع كان نبياً أو رسولاً، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(ما أدرى أتُبع أنبياً كان أم لا)**([4])؟. لكن المؤكد أن تُبَّع قد آمن وقتذاك، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: **(وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ. اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ. وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِ. إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ.**

([1-3]) ٥٣/النمل، ٦٦-٦٨/هود، ١٣-١٩/يس.

([4]) الألبانى: السابق – ص ٩٦٩ رقم ٥٥٢٤.

إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ)([1]). وقول خاتم الرسل بشأنه: **(لا تسبوا تُبَّعاً، فإنه كان قد أسلم)**([2]).

وهو بهذا من أهل الجنة، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: **(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ. بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ)**([3]). وقول خاتم الرسل بشأنه: **(إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود)**([4]). وقوله أيضاً: **(إن ذلك العبد الأسود لأول من يدخل الجنة)**([5]).

١٥٤- هلاك قومه :

أما قوم تُبع فيما عداه هو، فلم يستأهلوا – حتى – تنزيل جند من السماء عليهم، مصداقاً لقوله تعالى بشأنهم: **(وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاء وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ. إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ. يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون)**([6]).

١٥٥- أصحاب الرس :

على أن قوم تبع شأنه شأن أى خلق من خلق الله، له نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات). وهم فى نشأتهم الآخرة تاريخياً، «أصحاب الرس».

([1]) ٢٠-٢٥/يس.
([2]) الألبانى: السابق – ص ١٢٢٣ رقم ٧٣١٩.
([3]) ٢٦-٢٧/يس.
([4-5]) مشار إليهما لدى محمد متولى الشعراوى: السابق – ص ٢٩٩ و ص ٣٠٠ على التوالى.
([6]) ٢٨-٣٠/ يس.

وكان الرسول من ربهم إليهم هو: «اليسع». فكذبوه، وكذبوا إذن بآيات الله، فأهلكهم سبحانه، شأنهم فى ذلك شأن عاد وثمود وقوم نوح وغيرهم، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا. وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا)**(١).

ولم يعد باقياً من آثارهم سوى «الرس»، أى البئر، التى هى معطلة، وجنباً إلى جنب القصر الذى كان مشيداً، مصداقاً لقوله تعالى: **(فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ)**(٢).

١٥٦- أصحاب الأخدود :

أصحاب الرس كأى خلق من خلق الله، له نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات). وهم فى نشأتهم الآخرة تاريخياً «أصحاب الأخدود»، مصداقاً لقوله تعالى بشأنهم: **(قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ. النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ. إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ. وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ. وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ. الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)**(٣).

وقول خاتم الرسل: **(كان ملك فيمن كان قبلكم ... فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، فأتى الملك، فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟. قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس. فأمر بالأخدود بأفواه السكك، فخُدت، وأضرم النيران. وقال: من لم يرجع عن**

(١-٣) ٣٧-٣٨/الفرقان، ٤٥/الحج، ٤-٩/البروج.

دينه فاقحموه فيها. ففعلوا. حتى جاءت امرأة ومعها صبى لها. فتقاعست أن تقع فيها. فقال لها الغلام: يا أمه أصبرى فإنك على حق)([1]).

١٥٧- أصحاب الفيل:

أصحاب الأخدود كأى خلق من خلق الله، له نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات). وهم فى نشأتهم الآخرة تاريخياً «أصحاب الفيل»، مصداقاً لقوله تعالى بشأنهم: **(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ. أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ)**([2]). وقول خاتم الرسل: **(إن الله حبس عن مكة الفيل)**([3]).

وهو الفيل الذى استقوى به أصحابه، لدرجة شروعهم فى انتهاك حرمة مكة، التى هى أول عاصمة للأرض تاريخياً، أى عاصم عواصم الأرض لغاية الآن وإلى مالا نهاية، وبالتالى أهلكهم الله، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ. تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ. فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ)**([4]).

وفى نفس هذا العام، ولد خاتم الرسل. وليس معنى هذا أن ينتهى بعدئذ تهديد حرمة مكة والبيت العتيق وذلك مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم : **(لا تنتهى الناس عن غزو هذا البيت، حتى يغزو جيش، حتى إذا كانوا بالبيداء، أو ببيداء من الأرض، خسف بأولهم وآخرهم، ولم ينج**

([1]) الألبانى: السابق – ص ٨٢٤ رقم ٤٤٦١.

([2]) ١-٢/الفيل

([3]) الألبانى: السابق – ص ٣٦٠ رقم ١٧٤٥.

([4]) ٣-٥/ الفيل،

أوسطهم. قيل: فإن كان فيهم من يكره؟ قال: يبعثهم الله على ما فى أنفسهم)([1]).

بل لم ينتهوا حتى عن عبادة اللات والعزى، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى. ثم يبعث الله ريحاً طيبه، فيتوفى كل من كان فى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان. فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم)**([2]).

([1-2]) الألبانى: السابق – ص ١٢٤٣ رقم ٧٤٦٥، ص ١٢٧١ رقم ٧٦٨٣.

المبحث الرابع
جغرافية
العصر الحجرى

١٥٨- تنبيه:

أنت مُخاطب بالقرآن، الذى به «معيار» التمييز بين الصواب من ناحية وبين الخطأ من ناحية أخرى. وهو «القسط» اصطلاحياً، وبالتالى فأولوا العلم بعد الملائكة بعد الله قد شهدوا بقيامه وحده سبحانه على شئون هذا القسط فى الكون بأسره (١٨/آل عمران).

فالقسط تأويلياً هو معيار المعروف (الصواب) من ناحية والمنكر (الخطأ) من ناحية أخرى، وبالتالى فهو معيار للناس واحداً بواحد (١٧/لقمان)، وكذا معيار للناس عامة (١١٠/آل عمران)، بل هو معيار ملزم فى الحالتين، أى مُلزم للناس عامة وفرادى، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(والذى نفسى بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم)**([1]).

والمعروف تأويلياً هو ثلاثة عناصر مأمور بها إلهياً ومُرتبة بحسب قربها من تقوى الله، بينما المُنكر تأويلياً هو ثلاثة عناصر منهى عنها إلهياً ومرتبة بحسب قربها من خطوات الشيطان، مصداقاً لقوله تعالى: **(إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)**([2]).

وهكذا، حتى «العدل» لا يتجاوز ثلث المعروف، الذى بدوره لا يتجاوز نصف القسط، أى أن العدل لا يتجاوز سُدس القسط، وبالتالى لا يجوز بعدئذ الخلط بينهما أو اعتبارهما مترادفين، ولو لغوياً على الأقل. فالعدل هو «الوسط» بدون أى إفراط وبدون أى تفريط على الإطلاق، مصداقاً لقوله تعالى فى شأنه:**(وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا)**([3]).

١٥٩ – تقديم:

([1]) الألبانى: السابق – ص ١١٨٩ رقم ٧٠٧٠.

([2-3]) ٩٠/النحل، ٢٩/الإسراء.

المعرفة الحالية عن «العصر الحجرى» Stone age، تكاد تقتصر على كونه عصر حياة الإنسان فى الكهوف على الأقل، أو عصر تطور أسلحة الصيد الحجرية البدائية على الأكثر، أو هما معاً بحسب الأحوال.

وكأنه بهذا عصر المواجهة بين الإنسان والحيوانات الضارية، وبالتالى عصر تاريخى موغل فى القدم ومرسوم ببدائية على جدران الكهوف، ومُنبت الصلة عن العصر السابق عليه أى عصر «الشجرة الخبيثة»، وعن العصر اللاحق عليه، وعن العصر الحاضر.

وهذا مثال على القصور المعرفى، الذى مرده خلو الكتاب المقدس بعهديه والتراث العلمانى بعهديه من هذا الموضوع أصلاً، وذلك من ناحية، وكذا دراسة الموضوع بمعزل عن القرآن والسنة لغاية الآن وذلك من ناحية أخرى، وبالتالى فإن محتويات المبحث الراهن تتوزع على المطلبين التاليين:

المطلب الأول: أول المنشآت الحجرية.

المطلب الثانى: عصر الشجرة الخبيثة.

المطلب الأول

أول

منشآت حجرية

١٦٠- تقسيم:

أول وأقدم منشآت حجرية أقامها الإنسان فى الأرض، مرتبطة بوجوده فى هذه الأرض منذ أُهبط إليها قديماً، ولا تزال موجودة فى الأرض لغاية الآن، ولو أن صانعها لا يزال مجهولاً وغامضاً ومبهماً منذ آلاف السنين، وبالتالى فإن محتويات المطلب الراهن تتوزع على الفروع التالية:

الفرع الأول: أول بيت حجرى.
الفرع الثانى: ثانى بيت حجرى.
الفرع الثالث: تمثال رأس أول إنسان.
الفرع الرابع: مسجد أصحاب الكهف.

الفرع الأول

أول بيت للناس

١٦١- أول التأريخ فى الأرض:

يبدأ التأريخ الإنسانى فى الأرض منذ أُهبط إليها آدم قديماً باعتباره أول إنسان تاريخياً، ولو لم يبلغ عمره فيها يوم، بمقدار اليوم عند الله، مصداقاً لقوله تعالى فى شأن قدر هذا اليوم: **(وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ)**([1]).

ولا يوجد أحد يأمل فى أن يُعمر الألف سنة إلا المشرك، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ)**([2]).

لذا حتى آدم الذى هو أول إنسان تاريخياً، وأطول إنسان عمراً بإطلاق، لم يبلغ عمره الألف سنة، وذلك بعد أن نزل من أجله عن أربعين سنة لإبنه داود، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(لما خلق الله آدم مسح على ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ... فقال: أى رب من هذا؟. قال: رجل من ذريتك فى آخر الأمم يقال له داود. قال: أى رب كم عمره؟. قال: ستون سنة. قال: فزده من عمرى أربعين سنة. قال: إذن يكتب ويختم ولا يبدل. فلما انقضى عمر آدم، جاء ملك**

([1-2]) ٤٧/ الحج، ٩٦/البقرة.

الموت، فقال: أو لم يبق من عمرى أربعون؟. قال: ألم تعطها إبنك داود؟)([1]).

وبذا كان عمر آدم ألفاً إلا أربعين، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى شأن آدم: **(ثم أسكن الجنة ما شاء الله، ثم أهبط منها. فكان آدم يعد لنفسه. فأتاه ملك الموت، فقال له آدم: قد تعجلت، قد كتب لى ألف سنة. قال: بلى، ولكنك جعلت لابنك داود ....)**([2]).

وطوال عمر آدم فى الأرض، لا كان هناك أى عصر جليدى Ice age، ولا كان الإنسان يعيش فى الكهوف، ولا بدأ العصر الحجرى إلا فى الثلث الأخير من عمره، ولا هو نفسه أقام أى منشآت حجرية وقتذاك.

١٦٢- قبل بعثة إدريس :

في مطلع القرن الأول من الثلث الأخير من عمر آدم (٦٤٠-٧٤٠ سنة)، ولد إدريسِ، الذى «أدرك من حياة آدم ثلثمائة سنة وثمان سنين)([3]).

وحتى بعثة إدريس، لم تكن الناس تعرف شيئاً عن البيوت الحجرية، إنما كانوا يعيشون فى بيوت من جلود الأنعام، مصداقاً لقوله تعالى في هذا الشأن: **(وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ)**([4]). إذن لم تكن الكهوف بيوتاً لهم، ولا كانوا يبيتون فى العراء، ولا كانوا عرايا (٨١/طه).

١٦٣- بعد بعثة إدريس :

([1-2]) الألبانى: السابق – ص ٩٢٤ رقم ٥٢٠٨، ص ٩٢٥ رقم ٥٢٠٩.

([3]) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء – ١٩٨٥ – مكتبة دار التراث – ص٣٨.

([4]) ٨٠/ النحل.

بوأ الله لهذا الرسول مكان أول بيت «حجرى» يضعه للناس. وبوأه له بالحجر الأسود من الجنة، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأن هذا الحجر: **(الحجر الأسود من حجارة الجنة)**([1]). ولم يكن هذا الحجر أسوداً آنذاك، إنما كان فى بياض الثلج أو أكثر منه، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(كان الحجر الأسود أشد بياضاً من الثلج، حتى سودته خطايا بنى آدم)**([2]).

وهذا الحجر له دور يوم القيامة، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(إن لهذا الحجر لساناً وشفتين يشهد لمن استلمه يوم القيامة بحق)**([3]). لكن بالنسبة لإدريس، دور هذا الحجر هو دور مزدوج. فلا يقتصر دوره على أن يُحدد لإدريس مكان البيت، إنما أيضاً يبين له ماهية الحجرِ أصلاً الذى سيقتطع مثله من الجبال ويبنى أول بيت.

وكذا يسر الله إدريس لبناء هذا البيت، وبالتالى كان أول من تلقى مباشرة من ربه «علم الكتابة»، ولو لم تكن أكثر من كتابة على الرمل آنذاك، مصداقاً لقول خاتم الرسل عندما سئل عن أول من خط الرمل: **(كان نبى من الأنبياء يخط، فمن وافق خطه فذاك)**([4]).

لذا حدد إدريس مكان الأساس على الرمل، قبل أن يحفره، ثم وضع فيه القواعد بعد أن حفره، أى وضعها تحت سطح الأرض، قبل أن يبنى عليها الجدران، وذلك لكى تقوم الناس بعدئذ ببناء بيوتهم من الحجارة بدلاً من جلود الأنعام، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ)**([5]).

([1-4]) الألبانى: السابق – ص ٤٢٠ رقم ٢٠٩٠، ص ٦٠٦ رقم ٣١٧٥، ص ٨٢٠ رقم ٤٤٤٩، ص ٨٢٤ رقم ٤٤٦٢.

([5]) ٩٦/آل عمران.

إذ حدث ذلك فى «بكة» بلغة آدم العربية، وقبل أن تُصبح بعدئذ «مكة» بلغة إسماعيل العربية ، وبالتالى شرع الناس فى بناء بيوتهم من الحجارة المنحوتة من الجبال، واعتادوا على ذلك تباعاً، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ)**(١).

١٦٤- بعد عصر إدريس ونوح :

لما جاء طوفان نوح هدم جدران البيت الذى بناه إدريس من قبل، ولو لم يهدم سوى جدرانه، دون قواعده الموجودة تحت سطح الأرض، وبالتالى بوأ الله لإبراهيم بعدئذ مكان هذا البيت، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ)**(٢). وقد بوأه الله له بنفس الحجر الأسود.

ومن ثم بنى إبراهيم بمعاونة إبنه إسماعيل جدران البيت على نفس قواعد إدريس من قبل، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ)**(٣). وهكذا كما عاون ذو الكفل إدريس فى بناء هذا البيت لأول مرة تاريخياً، عاون إسماعيل إبراهيم فى بنائه لأخر مرة تاريخياً، وبالتالى استحقوا الذكر معاً فى القرآن مصداقاً لقوله تعالى بشأنهم: **(وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ. وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ)**(٤).

١٦٥- إدريس وإبراهيم :

إذن لم يكن لآدم ولا لنوح أى دخل فى بناء هذا البيت، لا فى بنائه لأول مرة تاريخياً، ولا فى بنائه لآخر مرة تاريخياً، وبالتالى لم يكن للملائكة – من باب أولى – أى دخل فى بنائه على الإطلاق.

(١-٤) ١٤٩/ الشعراء، ٢٦/ الحج، ١٢٧/ البقرة، ٨٥-٨٦/ الأنبياء.

فهو بناء إدريس فى عصره ثم إبراهيم فى عصره، وكلاهما استحق الذكر فى القرآن، والذكر على استقلال، وعلى قدم المساواة، لما قاما به نحو هذا البيت الذى هو أصل البيوت الحجرية تاريخياً، أى هو «البيت العتيق» (٢٩/الحج، ٣٣/الحج)، مصداقاً لقوله تعالى بشأن إدريس: **(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا)**(١). وقوله تعالى بشأن إبراهيم: **(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا)**(٢).

١٦٦- الكعبة :

لكن البيت العتيق لم يعد مجرد «بيت للناس» ولو كان مباركاً (٩٦/آل عمران)، وذلك منذ عصر إبراهيم الذى عهد إليه وإلى ابنه معه، بتطهير هذا البيت للحج وللصلاة مصداقاً لقوله تعالى: **(وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)**(٣).

وهكذا أصبح البيت العتيق «بيتاً لله». أما بالنسبة للناس، فهو مثابة لهم وأمناً، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى)**(٤). لذا أصبح – حتى – بيتاً حراماً، وللناس قياماً، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ)**(٥).

وكان إبراهيم أول من أذن فى الناس بالحج تاريخياً، وبناء على أمر ربه، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ)**(٦). والحج إلى البيت ذاته، ولو كان فيه مقام إبراهيم مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ**

(١-٧) ٥٦/مريم، ٤١/مريم، ١٢٥/البقرة، ١٢٥/ البقرة، ٩٧/ المائدة، ٢٧/ الحج، ٩٧/آل عمران.

إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً)([٧]).

١٦٧- المسجد الحرام :

وحتى الكعبة باعتبارها البيت الحرام، أصبحت «المسجد الحرام» وذلك منذ عصر خاتم الرسل (١٤٤/البقرة، ١٤٩/ البقرة، ١٥٠/ البقرة، ١٩١/ البقرة، ١٩٦/ البقرة، ٢١٧/ البقرة، ٢/ المائدة، ٣٤/ الأنفال، ٧/التوبة، ١٩/ التوبة، ٢٨/ التوبة، ١/ الإسراء، ٢٥/ الحج، ٢٥/ الفتح، ٢٧/ الفتح). وانقطاع الحج إليه انقطاعاً كاملاً، بمثابة علامة من علامات اقتراب الساعة، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(لا تقوم الساعة حتى لا يحج البيت)**([١]).

الفرع الثانى

ثانى بيت للناس

١٦٨- البيت الثانى عالمياً:

لم تكن بكة موطناً لأول بيت للناس حال حياة آدم، إلا لكونها أول عاصمة للأرض، وأقدم عاصمة فى الأرض على السواء، أى هى الأصل التاريخى لعواصم الأرض لغاية الآن.

أما البيت الثانى عالمياً، فهو بيت المقدس. وشأنه شأن البيت العتيق، أى كلاهما خلق من خلق الله، وله إذن نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)، ويجب التمييز بين نشأتيه.

١٦٩- نشأة أولى لبيت المقدس:

بعد بناء البيت العتيق ببكة لأول مرة تاريخياً، رحل إدريس وذو الكفل إلى «مدين» بلغة آدم العربية والتى أصبحت «الأرض المقدسة»

([١]) الألبانى: السابق – ص ١٢٣٧ رقم ٧٤١٩.

بلغة إسماعيل بعدئذ، وذلك لبناء بيت آخر للناس، يكون أول بيت حجرى فى هذه البقعة آنذاك، ولو أنه ثانى بيت حجرى تاريخياً وعالمياً.

فلا آدم ولا يعقوب هو الذى بنى بيت المقدس لأول مرة تاريخياً، ولو أقيم هذا البناء حال حياة آدم، وفى القرن الأول من الثلث الأخير من عمر آدم، بل حتى بعد أربعين سنة على الأكثر من نشأة البيت العتيق فى نفس القرن، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: **(أول مسجد وضع فى الأرض، المسجد الحرام، ثم المسجد الأقصى، وبينهما أربعون سنة ....)**([1]).

ولم يُلاحظ أحد طوال الأربعة عشر قرناً الماضية لغاية الآن، أن الغموض والإبهام والتجهيل يكتنف أمرين مرتبطين ببعضهما ارتباط الصانع وصنعته، وهما ما يلى: ١- فمن هو صانع أول بيتين حجريين للناس سواء البيت العتيق أو بيت المقدس، ومتى أقامهما تاريخياً؟. ٢- من هو إدريس وذو الكفل، ومتى كانا موجودين تاريخياً، وما هو دورهما فى الأرض وقتذاك؟

ومن ثم لم ينظر أحد بعد إلى إدريس وذى الكفل، والبيت العتيق وبيت المقدس، باعتبارهم موجودين فى القرآن كخلائق من خلق الله، ولو أن لكل خلق منهم نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)، ويجب التمييز بين نشأتيه.

١٧٠- نشأة آخرة لبيت المقدس:

([1]) الألبانى: السابق – ص ٥٠٤ رقم ٢٥٧٩.

لم تفلت جدران بيت المقدس من طوفان نوح، والذى هدمها، ولو ظلت مهدمة حتى عصر سليمان بن داود فى النصف الثانى من القرن العاشر قبل الميلاد.

وكما أقام إبراهيم جدران الكعبة لثانى مرة تاريخياً بعد أن هدمها الطوفان، وأقامها على نفس قواعد إدريس من قبل، فإن سليمان أقام بعدئذ جدران بيت المقدس لثانى مرة تاريخياً وأقامها على نفس قواعد إدريس من قبل، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: **(إن سليمان بن داود لما بنى بيت المقدس، سأل الله عز وجل خلالاً ثلاثة: سأل الله حكماً يصادف حكمة، فأوتيه. وسأل الله ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده، فأوتيه. وسأل الله حين فرغ من بناء المسجد أن ..... وأرجو أن يكون قد أعطى الثالثة)**([1]).

وحالياً يبحث الإسرائيليون عبثاً تحت هذا المسجد عن كنوز دفنها سليمان، الذى لم يدفن شيئاً، إنما أقام جدران المسجد على نفس قواعد إدريس من قبل، وبالتالى لم يجدوا شيئاً مما يبحثون عنه بعد حفر طال عدة سنوات.

١٧١- اختلاف البيت العتيق عن بيت المقدس:

المباركات فى الأرض، واردة عداً وحصراً، وليس من بينها بيت المقدس ذاته، إنما من بينها البيت العتيق، وذلك منذ نشأته لأول مرة تاريخياً، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: **(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا)**([2]).

أما بيت المقدس، فلم يكن مباركاً على الإطلاق، أى لم يكن مباركاً فى نشأته الأولى تاريخياً، ولا فى نشأته لآخر مرة تاريخياً، إنما المبارك

([1]) الألبانى: السابق – ص ٤٢٠ رقم ٢٠٩٠.

([2-3]) ٩٦/ آل عمران، ١/ الإسراء.

فى الحالتين هو «ما حوله» فحسب، وما حوله على الأكثر، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ)**(٣)، ولو لم يلتفت أحد إلى هذه الحقيقة بعد.

وقد تقدم بيان أن المبارك حوله، ليس المبارك حوله غرباً فحسب، ولا المبارك حوله شرقاً فحسب، إنما المبارك حوله غرباً وشرقاً معاً، وبحسب الأحوال. ويترتب على ذلك ما يلى:

أولاً: لم يستجب الله للمسألة الثالثة التى سألها سليمان بعد أن فرغ من بناء بيت المقدس لآخر مرة تاريخياً، مصداقاً لقول خاتم الرسل:**(إن سليمان بن داود لما بنى بيت المقدس، سأل الله عز وجل خلالاً ثلاثة: ..... وسأل الله حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه، أن يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه ... وأرجو أن يكون قد أعطى الثالثة)**(١).

وثانياً: الصلاة فى بيت المقدس، لا هى بمائة ألف صلاة كالكعبة، ولا هى – حتى – بألف صلاة كالمسجد النبوى بالمدينة، إنما هى مجرد صلاة كأى صلاة فى مسجد من المساجد التى هى لله، ولو كان بيت المقدس أحد ثلاثة مساجد تشد الرحال إليها، دون غيرها، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدى هذا، والمسجد الأقصى)**(٢).

وثالثاً: القبلة الحق فى الأرض، ليست هى بيت المقدس، الذى لا هو قبلة للحج، ولا هو قبلة للصلاة، ومن ثم لم يكن قبلة صلاة المسلمين إلا كاستثناء مؤقت لم يتجاوز العمل به سنة ونصف على الأكثر، أى لم يكن مقرراً آنذاك كقاعدة عامة دائمة زمانياً (١٤٣ و ١٤٥ و

(١-٢) الألبانى: السابق – ص ٤٢٠ رقم ٢٠٩٠، ص ١٢٢٥ رقم ٧٣٣٢.

١٤٢/البقرة). لأن القبلة تجاه المسجد الحرام هى القبلة الحق (١٤٤ و ١٤٩/ البقرة)، وقبلة للصلاة وللحج على السواء.

لكن سيظل بيت المقدس أحد المنشآت الحجرية الأولى، تاريخياً، وعالمياً، والموجودة لغاية الآن، ولو لم يكن مباركاً، ولا مُقدساً على الإطلاق. ولا سليمان أو داود أو موسى أو هارون أو يوسف أو حتى يعقوب (إسرائيل) أو إسحاق (شعيب) هو من أنشأ هذا البيت لأول مرة تاريخياً.

وعلى أى الأحوال، هذا «المسجد» ينتظر وعد الحرب الآخرة تاريخياً فى أدنى الأرض، مصداقاً لقوله تعالى إلى بنى إسرائيل: **(فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا)**([1]).

لكن حال المخاطبين بالقرآن حالياً، وبصرف النظر عن جعجعتهم بالكلام، هى حالة الضعف البالغ للغاية، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل أفق، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. قيل: يا رسول الله فمن قلة يومئذ؟. قال: لا. ولكنكم غثاء كغثاء السيل، يجعل الوهن فى قلوبكم، ويُنزع الرعب من قلوب عدوكم، لحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت)**([2]).

الفرع الثالث

تمثال

رأس الإنسان الأول

١٧٢ – تصحيح خطأ منهجى شائع:

([1]) ٧/ الإسراء.

([2]) الألبانى: السابق – ص ١٣٤٣ رقم ٨٠٨٢.

لولا الخطأ المنهجى فى التعامل مع تمثال رأس الإنسان الذى هو: «أبو الهول»، ما كان الغموض والإبهام والتجهيل يكتنف هذا التمثال لغاية الآن([1])، خاصة أن هذا الخطأ المنهجى هو خطأ مزدوج وذلك كما يلى:

فأولاً: لم يُنظر بعد إلى هذا التمثال كثالث المنشآت الحجرية الأولى تاريخياً، وعالمياً، ولو كان موجوداً لغاية الآن، رغم انه ينتمى إلى أول العصر الحجرى، أى نهاية القرن الأول من الثلث الأخير من عمر آدم.

فبعد إنشاء البيت العتيق ثم بيت المقدس لأول مرة تاريخياً، رحل إدريس وذو الكفل إلى «مصر»، التى لم تكن قد وطأتها أقدام أحد من قبل، وبالتالى كانا أول من وطأت أقدامهما مصر آنذاك.

فأقاما لها هذا التمثال فى الجيزة، وأقاما بها حتى نهاية عمرهما، وبالتالى انقطعت أخبارهما عن وطنهما الأصلى بكة، وأصبحا – فى نفس الوقت – أصل المصريين تاريخياً، وبالتالى لم ينصفهما المؤرخون بعد، لا المؤرخون فى وطنهم الأصلى، ولا المؤرخون – حتى – فى مصر.

لذا لم يعد أحد يعرف – حتى – من هو صانع هذا التمثال على الأقل؟ أو يعرف لماذا استحق إدريس – مثلاً – مكانه العلى فى السماء بعد وفاته مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: **(وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا)**([2]). وقول خاتم الرسل: **(لما عُرج بى رأيت إدريس فى السماء الرابعة)**([3])؟. أو يعرف ما

([1]) انظر فى هذا الغموض، سليم حسن: أبو الهول (بالإنجليزية) – ترجمة جمال الدين سالم – مكتبة الأسرة ١٩٩٩ – ص ٧٤–٩٨.

([2]) ٥٧/ مريم.

([3]) الألبانى: السابق – ص ٩٢٦ رقم ٥٢١٢.

هـى أول لغـة مصـرية تلـك التـى اسـتقدمها معهمـا إدريـس وذو الكفـل مـن وطنهما الأصلى؟

وثانيـاً: لـم يُنظـر أحـد قـط إلـى هذا التمثـال، إلا بمعزل عـن القرآن والسنة، وذلك على الرغم مما يلى:

١- أن هذا التمثال موجود فى مصر منذ آلاف السنين.

٢- ومصـر، جاءهـا القرآن والسـنة منـذ عـام ٢٠هـ/٦٤٢م، أى أتيـا إليها فى وقت مبكر للغاية. قبل أن ينقضى عقد واحد على وفاة الرسول عام ١١هـ/٦٣٢م، وقبل أن ينقضـى – حتـى – عصـر صاحبيه بوفاة الخليفة عمر عام ٢٣هـ/٦٤٤م.

٣- هذا القرآن، نزل تبياناً لكل شئ بإطلاق (٨٩/النحل)، ولم يُفرط فـى بيـان أى شـئ علـى الإطـلاق (٣٨/الأنعـام)، ولا حتـى بيـان مـن هـو: «أبـو الهـول» ؟. وبعـزل القـرآن والسـنة عـن مشـكلة غموض هذا التمثال، جعلها مشكلة بدون حل لغاية الآن.

١٧٣- من هو «أبو الهول»؟

آدم الأول، هـو أول إنسـان تاريخيـاً، وبالتـالى أبـو الإنسـان، أى والـد ولده ولداً بولد إلى يوم القيامة. بل هو – حتى – أبو الإنسان الذى خُلق فـى كبـد، وبالتـالى فهـو أبـو الكبـد أو أبـو الهـول، مصـداقاً لقولـه تعـالى: **(وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ. لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ)**(١).

ولا يزال آدم الأول فى كبده أو هوله لغاية الآن، ولو على حال بنيه من أهل النـار علـى الأقل، وذلك علـى نحـو مـا رآه خـاتم الرسـل فـى ليلـة

---

(١) ٣-٤/ البلد.

المعراج، مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم : **(قلت يا جبريل من هذا؟. قال هذا آدم. وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه. فأهل اليمين أهل الجنة، والأسودة التى عن شماله أهل النار. فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى)**([1]).

ولأن آدم الأول هو أبو الهول، فإن صانع التمثال لم ينقش إسمه على قاعدة هذا التمثال، لا إسم كنيته أى أبو الهول، ولا إسمه الحقيقى أى آدم. فلا آدم فى حاجة إلى التعريف به، ولا وارد مطلقاً أن يُخطئ أولاده فى التعرف عليه، مهما طال بهم الزمان.

١٧٤- كيف هى «رأس آدم»؟

الرأس فى تمثال الجيزة، هى رأس آدم على حقيقتها حال حياته، حجماً وشعراً على الأقل. **فأولاً:** هى رأسه بحجمها على صورته، وبما يتناسب مع طول قامته، باعتباره أطولِ إنسان قامة بإطلاق، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأنه: **(خلق الله آدم على صورته، وطوله ستون ذارعاً ... فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن)**([2]).

فهى إذن رأس إنسان، بطول ٣٣ متراً (٦٠ ذراع × ٥٥ سم)، أى بطول عمارة ارتفاعها أحد عشر طابقاً، وبالتالى فهى بحجم رأسه الحقيقى.

ولم يسبق أن حاول أحد مُطلقاً تقدير طول صاحب الرأس فى تمثال الجيزة، إلا العراقى المشهور «عبد اللطيف البغدادى»، الذى قدر هذا الطول بمعزل تام عن آدم، وبالتالى قدر طول صاحب الرأس بسبعين

([1]) الألبانى: السابق – ص ٧٧٣ رقم ٤١٩٩.

([2]) الألبانى: السابق – ص ٦١٥ رقم ٣٢٣٣.

ذراعاً وذلك بقوله: «عند أحد هذه الأهرام رأس هائل بارز من الأرض فى غاية العظم. ويقتضى القياس أن تكون جثته نسبة إلى رأسه سبعين ذارعاً فى الطول»([1]).

وهو تقدير بمعزل عن القرآن والسنة وبمعزل عن آدم، وبالتالى تقدير خاطئ فى مقدمته، وخاطئ فى نتيجته: ١- فلا أحد من الناس أطول قامة من آدم، ولو بذراع واحد. وبالتالى ليس طول صاحب الرأس فى التمثال أكثر من ستين ذراعاً. ٢- ولا أحد من الناس مطلقاً بطول السلسلة التى يُقيد بها مجرمى الناس يوم القيامة، أى بطول سبعين ذراعاً، مصداقاً لقوله تعالى بشأنها لكل مجرم: **(ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ)**([2]).

وثانياً: هى رأس آدم بحجمها وعلى صورته وبطوله وبشعره الكثيف، وبالتالى فهى لا تتناسب فقط مع طوله، إنما تتناسب أيضاً مع كثافة شعر رأسه، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأنه: **(إن الله خلق آدم رجلاً طوالاً كثير شعر الرأس، وكأنه نخلة سحوق)**([3]). وقوله أيضاً: **(إن أباكم آدم كان كالنخلة السحوق، ستون ذراعاً، كثير الشعر، موارى العورة ...)**([4]).

وهكذا لم يُصنع تمثال رأس آدم إلا حال حياته وقبل مماته، ومن متفرس فى ملامحه عن قرب، وذى خبرة فى التعامل مع الحجارة

([1]) مشار إليه فى سليم حسن: السابق – ص ٨٧.

([2]) ٣٢/ الحاقة.

([3-4])مشار إليهما لدى ابن كثير: السابق – ص ٣٠.

والصخور. ولم يكن فى وسعه عمل تمثال كامل لآدم، أى تمثال له رأساً وجسداً معاً، وبالتالى اكتفى بعمل تمثال لرأسه.

١٧٥- لم يتوجه التمثال ناحية المشرق ؟

تمثال رأس آدم الأول، يتجه بنظره ناحية المشرق وحده، دون غيرها من الجهات، بل هو حتى يتجاوز المشرق داخل حدود مصر، إلى المشرق خارجها، وإلى «بكة» بلغة آدم العربية والتى أصبحت «مكة» بلغة إسماعيل بعدئذ.

فبكة هى مسقط قدمى آدم فى الأرض، حال إهباطه إليها لأول مرة تاريخياً، وبالتالى فهى فى مقام مسقط رأسه، ولو لم يكن له مسقط رأس أصلاً، وبالتالى فهو يتجه إليها بنظره دائماً، وكذا تمثال رأسه ولو كان موجوداً فى مصر، التى لم تطأها قدما آدم على الإطلاق.

وهكذا فالتمثال، وإن كان ينظر إلى شئ فى الشرق، لكن هذا الشئ ليس هو الشمس بداهة([1])، بل إن هذا الشئ ليس موجوداً فقط خارج آدم، إنما هو أيضاً موجود داخله فى نفس الوقت أى هو مسقط قدماه فى الأرض، بل هو حتى موجود فى صانعى هذا التمثال أى إدريس وذى الكفل اللذين قدما من بكة أصلاً.

وبذا فإقامة هذا التمثال فى مصر حال حياة آدم، بمثابة بداية للتاريخ فى مصر، سواء على مستوى الأشخاص آدم وإدريس وذى الكفل، أو على مستوى المنشآت الحجرية آنذاك أى البيت العتيق وتمثال رأس آدم، أو – حتى – على مستوى اللغة العربية التى استقدمها معهما إدريس وذو الكفل من بكة آنذاك، وبالتالى أصبحت أول لغة مصرية تاريخياً.

([1]) قارن العكس، سليم حسن: السابق – ص ٢٣.

لذا لم يختارا للتمثال مكاناً إلا فى الجيزة حالياً، التى تقع فى منتصف وادى النيل المصرى. فهى أول إقليم قبلى للذاهب إلى جنوب الوادى، وأول إقليم بحرى للذاهب إلى شمال الوادى، كما هى آخر إقليم بحرى للذاهب جنوباً وآخر إقليم قبلى للذاهب شمالاً، أى هو إقليم بحرى/قبلى على السواء.

١٧٦- دور التمثال علمياً:

تمثال آدم الأول، لا هو بيت كالبيت المعمور أو بيت المقدس، ولا هو مبارك أو مقدس شأنه فى ذلك شأن بيت المقدس، ولا حتى ألحقت به دار عبادة على الإطلاق، وبالتالى لم يكن له أى دور دينى مباشر فى الحياة المصرية.

وليس معنى هذا بالبداهة أن يقتصر دور تمثال آدم الأول على دور سياحى على الأكثر، بحيث يُعامل كمزار سياحى، فيقصده السائحون لمجرد مشاهدته، وأخذهم صوراً تذكارية لهم مع التمثال.

فهو أحد منشآت ترجع بأصلها إلى أول العصر الحجرى تاريخياً، وعالمياً على السواء. وهذه المنشآت لم تسبقها تاريخياً أى منشآت حجرية على الإطلاق، ولا لها أى نظائر عالمياً، وبالتالى سيظل يثير تساؤلات فى غاية الأهمية علمياً، وذلك كما يلى:

فأولاً: هو تمثال آدم الأول باعتباره الإنسان فى نشأته الأولى تاريخياً. فمن عساه يكون بعدئذ الإنسان فى نشأته الآخرة تاريخياً، ما لم يكن هو: المسيح عيسى ابن مريم (٥٩/آل عمران)، طالما أن الله لم يخلق من أى خلق – ولا حتى من الإنسان – واحداً فحسب (٤٩/الذاريات)؟.

علماً بأن آدم الأول لم يمر بمرحلة حمل به أو مخاض فيه أو إرضاع له أو فصام أو طفولة على الإطلاق، وذلك على عكس عيسى الذى مر بهذه المراحل واحدة بواحدة، وبالتالى فالله لم يعيه خلق الإنسان الأول تاريخياً، ولا يعنيه إلتباس الناس فى شأن خلق الإنسان الأخير تاريخياً، مصداقاً لقوله تعالى: **(أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ)**([1]) .

وثانياً: هو تمثال آدم باعتباره أول إنسان تاريخياً. وهو تمثال له على صورته الكاملة، ولو لم يكن تمثالاً لجسده إلا معنوياً على الأكثر، وبالتالى تمخض عن تمثال لرأسه فحسب. لكن هذا لم يمنع من معرفة جسد آدم على الأقل، ولا من معرفة أجساد الناس فى عصورهم الأولى فى الأرض.

ألم يكونوا كأنهم أعجاز نخل (٣٠/القمر، ٧/الحاقة)، أى كانوا أشد منكم قوة (٦٩/التوبة)، حتى قالوا من أشد منا قوة (١٥/فصلت)، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها (٩/الروم)، وبالتالى كانوا أشد قوة وآثاراً فى الأرض (٢١/غافر، ٨٢/غافر)؟.

ألن يكون الناس فى الجنة على صورة آدم وطوله، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: **(خلق الله آدم على صورته، وطوله ستون ذراعاً ... فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فى طوله ستون ذراعاً....)**([2])؟.

([1]) ١٥/ق.

([2]) الألبانى: السابق – ص ٦١٥ رقم ٣٢٣٣.

وثالثـاً: الهـرم «الأول» أقـرب مكانيـاً وتاريخيـاً مـن تمثـال آدم فـى الجيزة، فهل هو بدوره من منشآت العصر الحجرى الأول، أم لا، خاصة أنـه لـم يكن من ملوك مصر ملكاً إسمه «خوفو»، وبالتالى لا يقل هذا الهرم عن تمثال آدم غموضاً وإبهاماً وتجهيلاً لغاية الآن؟

الفرع الرابع

مسجد أصحاب الكهف

١٧٧- عصر بناء الهرم الأول:

الفترة من إقامة تمثال رأس آدم حتى إقامة الهرم «الأول» تاريخياً، لم تكن فقط سابقة فى بدايتها على الفترة التى قضاها «الفتية» فى كهفهم، إنما كانت أيضاً تشمل تلك الفترة، أى تشمل فى آخرها ٣٠٩ سنة قضوها فى كهفهم مصداقاً لقوله تعالى: **(وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا)**[١].

وآنذاك لم يكن صعباً على أناس كأنهم أعجاز نخل وأشد منا قوة وأثاروا الأرض وعمروها، أن يبنوا بأيديهم وبدون أى آلات أو أدوات، بناء حجرياً، ولو على شكل «هرم» حتى ولو كان على مساحة ١٣ فداناً، وارتفاع ٤٥٠ قدماً، وبأكثر من مليونين ونصف من الأحجار المتراصة بدقة بالغة، والتى يتراوح وزن الواحد ما بين طنين وسبعين طناً.

١٧٨- لماذا بنوه ؟

إذن لم يعد هناك بعدئذ ثمة محل للسؤال عن: كيف بنى المصريون الهرم الأول تاريخياً؟ إنما يجب السؤال دائماً عن أمرين: متى بنوه؟ ولماذا بنوه؟.

([١-٢]) ٢٥/الكهف،١١-١٢/الكهف.

أما متى بنوه، فإنه بعد بعث أصحاب الكهف من رقودهم، مصداقاً لقوله تعالى بشأنهم **(إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا. فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا. ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ ...)**[٢]. بل حتى بعد موتهم، وعثور أهل القرية عليهم، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا)**[١].

أما لماذا بنوه، فإن غالبية قومهم من عبدة غير الله، رأوا بناء مسجد على قبرهم، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا)**[٢].

وهكذا، فإن ذاك المبنى الحجرى جملة وتفصيلاً، وإن اشتهرت تسميته شكلياً بـ «الهرم» أو «الهرم الأكبر»، لكنه تاريخياً «مسجد» أقيم على مدفن أصحاب الكهف، ولو لم يكن هذا المسجد بيتاً لعبادة الله آنذاك، ولا بيتاً بالمرة.

١٧٩- غموض علاقة الهرم بالمسجد تاريخياً:

قصة أصحاب الكهف (٩-٢٦/الكهف)، فى جانب منها هى قصة اتخاذ قبور الصالحين دوراً للعبادة، ولو أن ذلك أمر ملعون من جانب الله، ولم يُصبح عادة بعدئذ إلا على يد بنى إسرائيل مؤخراً، وليس قبلهم على الإطلاق، وبالتالى فهى حالياً عادة ملعونة – حتى – من جانب المصريين، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا**

([١-٢]) ٢١/ الكهف، ٢١/ الكهف.

([٣-٤]) الألبانى: السابق – ص ٩٠٩ رقم ٥١٠٨، ص ١٢٢٧ رقم ٧٣٤٨.

قبور أنبيائهم مساجد)([٣]). وقوله أيضاً: **(لا تصلوا إلى قبر، ولا تصلوا على قبر)**([٤]).

لكن لم ينظر أحد بعد إلى هذا الجانب من القصة فى القرآن والسنة، لا فى مصر ولا فى خارج مصر، وهو الأمر الذى ترتبت عليه آثار سلبية وخيمة لغاية الآن، وذلك ما يلى:

فأولاً: لم يسع أحد بعد إلى البحث عن الكهف أو عن المسجد فى مصر، ولو أن القرآن لم يذكرهما صراحة إلا لكونهما موجودين لغاية الآن، فى مصر أو فى غيرها بحسب الأحوال.

وثانياً: انفتح باب التخرصات الفارغة فى شأنهما. فمثلاً زعمت كل من تركيا وماليزيا وتونس والصين أن الكهف موجود لديها، بينما زعمت تونس أن المسجد موجود لديها، وأضافت إليه مئذنة، وتُمارس فيه حالياً صلاة الإسلام.

وثالثاً: لم يعد الهرم الأكبر، محلاً لاهتمام أحد سوى السائحين أو صائدى الكنوز أو هواة الشهرة بحسب الأحوال. بل حتى كان من صائدى الكنوز الخليفة عبد الله المأمون بن هارون الرشيد، عام ٨٢٠م، وكذا جون جريتس أستاذ الرياضيات والفلك البريطانى، عام ١٦٣٨م، ولو لم يجدوا فيه أى كنوز، وبالتالى ظل الغموض والإبهام والتجهيل يكتنف علاقة هذا الهرم بمسجد أصحاب الكهف تاريخياً.

١٨٠- ارتباط المسجد بالهرم :

مسجد أصحاب الكهف لم يكن اقتراحاً من جانب المؤمنين من قومهم، الذين اقترحوا مجرد ضريح عادى ويكفى أن ربهم أعلم بهم، مصداقاً لقوله تعالى: **(فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ)**([١]).

([١]) ٢١/ الكهف.

لكن هذا المسجد كان اقتراحاً من جانب غير المؤمنين، وبالتالى لم يكن بيتاً لعبادة الله على الإطلاق. لذا لم يكن بيتاً كالبيت العتيق أو بيت المقدس فى نشأتهما الأولى تاريخياً، فهما لم يكونا فى شكل هرم على الإطلاق، وبالتالى فإن هذا المسجد «الجديد» لم يكن مسجداً إلا شكلاً فحسب، أو إسماً على الأكثر، أى هو لم يكن شيئاً أكثر من هرم، ولو كان أقدم هرم تاريخياً، وأكبر هرم عالمياً لغاية الآن.

وعادة ما يُنسب هذا الهرم فى مصر أو فى خارجها، إلى «خوفو» كإسم ملك من ملوك مصر، رغم أنه لم يكن فيهم أحداً إسمه خوفو على الإطلاق. بل هو – حتى – إسم «انطباع» عن أصحاب الكهف حال رقادهم وقبل موتهم، أى انطباع الخوف البالغ والرعب الشديد، مصداقاً لقوله تعالى فى شأن هذا الانطباع خاصة: **(لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا)**([1]).

بل عادة ما يُصنف – حتى – هذا الهرم فى مصر أو فى خارجها، ضمن «عجائب الدنيا»، رغم أنه ليس عجيبة على الإطلاق، مصداقاً لقوله تعالى فى شأنه: **(أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا)**([2]).

كل ما هناك أن «العصر الحجرى» خلق من خلق الله، وله إذن نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)، ويجب التمييز بين نشأتيه: ١- فهو فى نشأته الأولى تاريخياً، يشمل بناء البيت العتيق، وبيت المقدس، وتمثال رأس آدم، ومسجد أصحاب الكهف (أى الهرم الأول). ٢- وهو فى

([1-2]) ١٨/ الكهف، ٩/ الكهف.

نشأته الآخرة تاريخياً، يشمل برج إيفل وبرج بيزا المائل وسور الصين وحدائق بابل وتاج محل وتمثال الحرية.

ومسجد أصحاب الكهف موجود للتذكير دائماً بقاعدة مفادها: لا يجوز اتخاذ قبور الصالحين مساجد، وإلا كان العمل ملعوناً من جانب الله.

١٨١- قوم أصحاب الكهف :

لا ريب أن معرفة مكان مسجد أهل الكهف، هى خُطوة نحو معرفة قومهم، ولو لم يكونوا قوماً مؤمنين، مصداقاً لقوله تعالى على لسان أصحاب الكهف: **(هَؤُلَاء قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا)**(١).

كما أن معرفة مكان مسجدهم هى خطوة نحو معرفة مكان كهفهم الذى قضوا فيه ثلاثمائة وتسع سنين (٢٥/الكهف). ففى أى كهف من كهوف مصر قضوا هذه الفترة، خاصة أنه ليس فى مصر كهفاً واحداً، ولا حتى اثنين فحسب؟.

بل إن معرفة مكان مسجدهم وكهفهم وقومهم وعصرهم، ليست فقط ضرورة علمية عصرية ملحة للغاية ، بل هى حتى أكثر ضرورة من معرفة أشخاصهم أو عددهم، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاء ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا)**(٢).

وهذا القليل الذى يعلم عدتهم، يقول فى شأنهم سبعة فتيان، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ)**(٣). أما

(١-٣) ١٥/ الكهف، ٢٢/ الكهف، ٢٢/الكهف.

غيرهم الذين يتكهنون فى هذه المسألة فيقولون ثلاثة أو خمسة فتيان بحسب الأحوال: مصداقاً لقوله تعالى: (**سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ**)([1]).

أما من يُنكر بعدئذ أن مسجد أصحاب الكهف هو الهرم الأول تاريخياً، أى الهرم الأكبر الموجود فى مصر قبل وبعد طوفان نوح لغاية الآن، وشأنه فى ذلك شأن تمثال آدم، وكلاهما موجود فى الجيزة، فليتفضل علينا ببيان أين يقع إذن هذا المسجد فى أرض الله؟ وما هى «أوتاد» فرعون ذى الأوتاد (١٢/يس، ١٠/الفجر)؟.

١٨٢- أوتاد فرعون:

أولاً: فرعون اصطلاحياً، هو إسم، ولو لم يكن إسم وظيفة، حتى لو كانت وظيفة ملك، إنما هو إسم شخص(٤٤/الشعراء، ٥٣/ الشعراء، ١٢/النمل، ٣ و ٤ و ٦ و ٨ و ٩/القصص)، وهذا الشخص كان له آل «هم آل فرعون» (٤٩/البقرة، ٢٨/فاطر، ٣٧ و ٤٥ و ٤٦/ غافر، ٤١/القمر).

وثانياً: لم تشهد مصر عبر تاريخها الطويل أكثر من فرعون واحد ملكاً عليها، هو فرعون موسى، أو بالأحرى فرعون ملك مصر فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، مصداقاً لقوله تعالى على لسانه: (**وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ**) ([2]).

فمن تولى حكم مصر بعده، لم يكن فرعوناً، إنما كان ملكاً ولو كان يأخذ كل سفينة غصباً عن أصحابها آنذاك (٧٩/الكهف). ومن تولى حكم مصر قبله، لم يكن فرعوناً، إنما كان ملكاً سواء أيام يوسف فى مصر (٤٣/يوسف)، أو حتى أيام إبراهيم فى مصر (٢٥٨/البقرة).

([1-2]) ٢٢/الكهف، ٥١/الزخرف

بل إن فرعون هذا مات غرقاً، ولم يكن له ولداً، لا إبناً ولا إبنة على الإطلاق، مصداقاً لقوله تعالى على لسان زوجته فى شأن موسى: **(وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)**(١)، بمعنى أن نتخذه إبناً على الأقل بدلاً من حرماننا من الابن والإبنة على السواء. والكلام بعدئذ عن «إبنة فرعون» أو «مُربية» ابنة فرعون، أو «ابن فرعون» الذى حل محله بعد غرقه، أو «الفراعنة» أو «الفراعين» ... إلخ، إنما هى تخرصات فارغة.

١٨٣- ثالثاً: لم يكن فرعون هذا، أكثر من ملك على مصر ذات الأوتاد، أى ذات الجبال (٧/النبأ) الرواسى (٣٢/النازعات)، وبالتالى كان بدوره **(وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ)**(٢). أو **(وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ)**(٣) بحسب الأحوال. ففى مصر ثلاثة أوتاد على الأقل: ١- جبل قاف أو جبل الطور، الذى هو أعلى الأرض بإطلاق. ٢- وجبل تمثال الإنسان الأول تاريخياً، أى أبو الهول. ٣- جبل مسجد أصحاب الكهف، أى الهرم الأول تاريخياً، أو الهرم الأكبر عالمياً.

لكنه لم يكن ينظر إليها مُطلقاً كمصر ذات الأوتاد، إنما كان ينظر إليها دائماً كمصر ذات «الأنهار»، مصداقاً لقوله تعالى على لسانه: **(قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ)**(٤).

ولا تزال نظرته الخاطئة هى الشائعة لغاية الآن، بل حتى لم يعد أحد ينظر إليها إلا كمصر ذات «النهر»، أى نهر النيل(٥)، رغم أن نهر النيل ليس موجوداً فى مصر وحدها، ولا موجوداً كله بها، ولا موجوداً بها إلا مصبه، ومصبه ثلاثة أنهار معاً، أحدهما من حدود مصر جنوباً حتى

(١-٤) ٩/القصص، ١٠/الفجر، ١٢/ص~، ٥١/الزخرف.

(٥) انظر مثلاً المادة ٤٤ من الدستور المصرى الحالى.

القناطر، والآخر من القناطر حتى رشيد، والثالث من القناطر حتى دمياط، وذلك منذ منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد لغاية الآن.

١٨٤- قيمة الهرم الأول العلمية:

قيمته العلمية، لا تتعلق بزيارة الأحياء لقبور الموتى، إنما تتعلق بزيارة الموتى لقبورهم، تاركين خلفهم ما فى الحياة الدنيا من لعب ولهو بوجه عام (٣٢/الأنعام)، ولهو التكاثر بوجه خاص مصداقاً لقوله تعالى: (**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ. حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ**)([1]).

بل هى تتعلق حتى بالمدة الزمنية التى يقضيها الموتى فى قبورهم، والتى هى مدة واحدة للكافة، لكونها خلقاً من خلق الله. وهذا الخلق له إذن نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات) ويجب التمييز بين نشأتيه (٢٠/ العنكبوت)، وذلك كما يلى: **فأولاً**: هذه المدة فى نشأتها الأولى تاريخياً، يوم أو بعض يوم، حتى لو قضى الميت مائة عام فى قبره، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: (**أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ**)([2]).

وثانياً: هذه المدة فى نشأتها الآخرة تاريخياً، يوم أو بعض يوم، حتى لو قضى الموتى ثلاثمائة وتسع سنين، مصداقاً لقوله تعالى فى شأن أصحاب الكهف. (**فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا**)([3]). وقوله تعالى: (**وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ**)([4]). وقوله تعالى: (**وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا**)([5]).

وبذا، فهذه المدة يوم أو بعض يوم، حتى لو قضى الميت فى قبره آلاف السنين، كما يحدث مثلاً مع «يس» باعتباره أول ميت تاريخياً، ولو لم يمت إلا قتلاً حال حياة أبيه آدم الأول (٢٧-٣١/المائدة). وحتى لو لم يكن القبر فى الأرض مباشرة أى حتى لو كان القبر فى بطن حوت فى البحر،

([1-5]) ١-٢/التكاثر، ٢٥٩/البقرة، ١١/ الكهف، ١٩/الكهف، ٢٥/الكهف.

كيونس مثلاً لو لم ينجيه الله من بطن الحوت مصداقاً لقوله تعالى (١٤٣-١٤٤/الصافات).

وهكذا فإن قيمة الهرم الأول العلمية تتمخض عن حكمة مفادها: أن مدة بقاء الموتى فى قبورهم لن تتجاوز بالنسبة لهم يوماً أو بعض يوم، أى لن تتجاوز مجرد «زيارة» من جانبهم إلى تلك القبور، وذلك بصرف النظر عن المدة من تواريخ وفاتهم حتى تاريخ بعثهم، ولو لم يكونوا مؤمنين بهذا البعث (٥٢/يس).

المطلب الثانى

عصر

الشجرة الخبيثة

١٨٥ - تقديم:

عصر الشجرة الخبيثة هو عصر «فتنة». وهذه الفتنة، وإن لم تستنفد وحدها الفتن، لكنها فتنة قائمة بذاتها، أى لها استقلالها على أى الأحوال.

والشجرة الخبيثة، ليست شجرة مُعمرة بجذور ضاربة فى الأرض وتؤتى أكلها دورياً كل حين، إنما شجرة حولية جذورها قريبة من سطح الأرض، ومن ثم تجتث هى وثمرتها من فوق سطح الأرض، مصداقاً لقوله تعالى بشأنها: **(كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ)**(١).

وهذه الشجرة خلق من خلق الله، وله إذن نشأتان تاريخياً (٤٩/الذاريات)، ويجب التمييز بين نشأتيه (٢٠/العنكبوت): ففى نشأتها الأولى تاريخياً تخرج فى أصل الجنة (٣٥/البقرة، ١٩/الأعراف). بينما هى فى نشأتها الآخرة تاريخياً تخرج فى أصل الجحيم (٦٤/الصافات)، إنما كلتاهما شجرة من أشجار الدنيا، وفتنة للظالمين (٣٥/البقرة، ١٩/الأعراف،

---

(١) ٢٦/إبراهيم.

٦٣/الصافات)، وبالتالى فإن محتويات المطلب الراهن تتوزع على فرعين، وذلك كما يلى:

الفرع الأول

أول

شجرة خبيثة

١٨٦ – شجرة الثوم:

فى نشأتها الأولى تاريخياً، كانت الشجرة الخبيثة فى الجنة، هى شجرة الثوم، التى حظر الله على آدم وزوجه أن يقرباها حينذاك، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ)**([1]).

لكن الشيطان فتنهما بها، فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وأخرجا من الجنة، وأهبطا إلى الأرض مصداقاً لقوله تعالى: **(فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)**([2]).

فهى شجرة الثوم، باعتبارها شجرة خبيثة منذ قديم، ولغاية الآن، وإلى ما لا نهاية، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأنها:**(من أكل من هذه الشجرة الخبيثة شيئاً فلا يقربنا فى المسجد)**([3]). **وقوله أيضاً: (من أكل من هذه الشجرة فلا يقربن مسجدنا ولا يؤذينا بريح الثوم)**([4]).

وليس معنى هذا بالبداهة أنها شجرة ملعونة، ولو كانت شجرة محظوراً أكلها قديماً، إنما هى شجرة مكروه أكلها، بل حتى مكروه أكلها استثناء، أى

([1-2]) ٣٥/ البقرة، ٣٦/ البقرة.

([3-4]) الألبانى: السابق – ص ١٠٥١ رقم ٦٠٩٠، ص١٠٥١ رقم ٦٠٩٤.

المكروه هو أكلها نيئة ثم ارتياد المسجد، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(من أكل من هذه البقلة: الثوم والبصل والكرات، فلا يقربنا فى مساجدنا، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم)**([1]).

لذا ليس مكروهاً أكلها مطبوخة، لا هى ولا البصل، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(إياكم وهاتين البقلتين المنتنتين، وأن تأكلوهن وتدخلوا مساجدنا، فإن كنتم لابد آكليهما، فاقتلوهما بالنار قتلاً)**([2]).

وعلى أى الأحوال، شجرة الثوم هى شجرة حولية أرضية أصلاً، ولم تكن موجودة فى الجنة قديماً إلا فتنة، أى جعلها الله فتنة للظالمين، سواء فى الجنة قديماً أو حتى فى الأرض بعدئذ، وبالتالى يجب التمييز بين نشأتى هذه الفتنة تاريخياً.

١٨٧ – الفتنة الأولى بالثوم :

أول فتنة بالثوم تاريخياً هى فتنة آدم وزوجه بالثوم حال وجودهما فى الجنة. لكن أول من فتن بالثوم وقتذاك هى حواء، التى عاونت الشيطان على فتنة زوجها بعدئذ، فكانت خائنة له، وتلك أول وأقدم خيانة امرأة لزوجها تاريخياً، وبما يترتب عليها من أثر دائم إلى ما لا نهاية، أى أثر موروث فى النساء، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(لولا حواء لم تخن أنثى زوجها)**([3]).

بل حتى، لولا تواطؤ حواء مع الشيطان على زوجها، ما تمكن الأخير وحده من حمل آدم على أكل الثوم آنذاك، أى كان دورها هو الأخطر من

([1-3]) الألبانى: السابق – ص ١٠٥١ رقم ٦٠٨٩، ص٥٢٣ رقم ٢٦٨٨، ص٩٤٢ رقم ٥٣٣٠.

دور الشيطان على زوجها وقتذاك، وبما يترتب على ذلك من أثر دائم إلى ما لا نهاية، أى أثر موروث فى النساء، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء)**([1]).

وهكذا، فلا الرجل كالمرأة (٣٦/آل عمران)، ولا المرأة كالرجل، الذى لا يتسع جوفه إلا لقلب واحد على الأكثر، مصداقاً لقوله تعالى: **(مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ)**([2]). إذن جوف المرأة يتسع بطبعه لأكثر من قلب فى نفس الوقت، وذلك على حساب عقلها ودينها مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(ما رأيت من ناقصات عقل ولا دين أغلب لذى لب منكن ..)**([3]).

وكذا على حساب سويتها، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(إن المرأة خلقت من ضلع. لن تستقيم لك على طريقة. فإن استمتعت بها وبها عوج. وإن ذهبت تقيمها كسرتها. وكسرها طلاقها)**([4]).

وأيضاً على حساب كمالها، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(لم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد)**([5]). وكذا على حساب مصير القوم لو وليت عليهم امرأة بأى طريق، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة)**([6])، وعلى حساب صبرها وتحملها، ولم مع عشيرها، مصداقاً لقوله: **(يكفرن العشير)**.

([1]) الألبانى: السابق – ص ٩٨٠ رقم ٥٥٩٧.

([2]) ٤/الأحزاب.

([3-6]) الألبانى: السابق – ص ٩٨٣ رقم ٥٦٤٢، ص ٣٩٢ رقم ١٩٤٢، ص ٨٤٠ رقم ٤٥٨٧، ص ٩٢٨ رقم ٥٢٢٥.

١٨٨- الفتنة الآخرة بالثوم :

كان الثوم والبصل من مفردات ما طلبه بنو إسرائيل من طعام، بدلاً من الطعام السماوى، فى منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد فى سيناء، مصداقاً لقوله تعالى على لسانهم إلى موسى:**(لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا)**([1]).

وبعدها، لم يبتدعوا فقط تخبيث الطعام بالثوم كشجرة خبيثة، إنما ابتدعوا أيضاً تخنيز اللحم النيئ بدلاً من طبخه، أى تتبيله بخلطة من هذا الثوم وغيره دون طبخه بأى طريق، وذلك تحت مسميات تجارية (بسطرمة، نقائق، سدق، هامبورجر ... إلخ)، مصداقاً لقول خاتم الرسل بشأن خيانتهم جنباً إلى جنب خيانة حواء قديماً: **(لولا بنو إسرائيل لم يُخبث الطعام ولم يُخنز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها)**([2]).

فهذا اللحم النيئ أصلاً، لا يتجاوز «الميتة» بعدئذ، لأنه مُخزن دون طبخه بأى طريق، ومُخزن مدة أطول مما يحتملها تخزين اللحم، وذلك بصرف النظر عن تتبيله بخلطة من الثوم وغيره، لكونها ليست طريقة طبخ بالنار أو ما فى حكم النار.

وهذه الميتة شائع حالياً استهلاكها عالمياً كطعام، رغم أنها بدعة إسرائيلية أصلاً، وذلك بصرف النظر عن مسماها تجارياً، لكون هذا المسمى لم يغير من طبيعتها كلحم نيئ لم يُطبخ بأى طريق من طرق

([1]) ٦١/ البقرة.

([2]) الألبانى: السابق – ص ٩٤٢ رقم ٥٣٣٠.

الطبخ، حتى فات ميعاد طبخه، وبالتالى لم يعد صالحاً للطبخ، ولا للأكل على الإطلاق، مصداقاً لقوله تعالى: **(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ)**([1]).

١٨٩- اللحم الحنيذ :

ينبغى التمييز بين «اللحم المخنز» على الطريقة الإسرائيلية السالف ذكرها، وبين «اللحم الحنيذ»، الذى كان معروفاً ومباحاً أكله حتى فى زمن إبراهيم، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ)**([2]). وهو اللحم المدخر بعد طبخه شوياً على الحجارة الملتهبة بحرارة الشمس.

وكان هذا اللحم معروفاً ومباحاً أكله فى مكة، قبل نزول القرآن، ولو اشتهرت تسميته اختصاراً «القديد»، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(هون عليك ... إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد)**([3]).

وظل هذا اللحم مباحاً أكله حتى بعد نزول القرآن، حتى لو طالت مدة تخزينه أكثر من ثلاثة أيام، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى شأن لحوم الأضاحى: **(كنت نهيتكم عن لحوم الأضاحى فوق ثلاث، ليتسع ذو الطول على من لا طول له. فكلوا ما بدا لكم، وأطعموا، وادخروا)**([4]).

الفرع الثانى

آخر

شجرة خبيثة

١٩٠- الشجرة الملعونة :

هذه الشجرة فتنة، لم توجد تاريخياً، إلا بعد فتنة الإسراء والمعراج، مصداقاً لقوله تعالى بشأنها: **(وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ)**([5]).

([1-2]) ٣/المائدة، ٦٩/هود.
([3-4]) الألبانى: السابق – ص ١١٨٥ رقم ٧٠٨٥، ص ٨٤١ رقم ٤٥٨٥.
([5]) ٦٠/ الإسراء.

لكن الشجرة الملعونة فتنة شأنها فى ذلك شأن فتنة الخمر. فكلتاهما «مُغيبة للعقول»، ولو أن الخمر ليست شجرة، ولا من مادة خبيثة على الأقل، ولا التعامل فيها خالٍ من المنافع للناس مصداقاً لقوله تعالى فى شأن الخمر: **(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا)**(١):

فأولاً: الخمر وإن كانت مُغيبة للعقول، لكنها ليست شجرة، ولو أنها أكثر خبثاً من الشجرة الخبيثة فى نشأتها الأولى تاريخياً أى الثوم والبصل. بل هى حتى أكثر من هذه الشجرة خبثاً وبكثير جداً، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(الخمر أم الخبائث)**(٢).

وثانياً: الخمر أم الخبائث، ولو أنها ليست من مادة خبيثة على الإطلاق، بل هى حتى من مواد نافعة بإطلاق، كالعصير والزبيب والتمر والحنطة والشعير والذرة، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(إن الخمر من العصير، والزبيب، والتمر، والحنطة، والشعير، والذرة، وإنى أنهاكم عن كل مُسكر)**(٣).

وثالثاً: هى أم الخبائث تاريخياً فحسب، وبالتالى ليست ملعونة فى ذاتها، إنما الملعون هو التعامل فيها بأى وجه من وجوه التعامل، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(لعن الله الخمر، وشاربها، وساقيها، وبائعها، ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وآكل ثمنها)**(٤).

---

(١) ٢١٩/البقرة.

(٢-٤) الألبانى: السابق – ص ٦٣١ رقم ٣٣٤٤، ص ٣٣١ رقم ١٦٠٤، ص ٩٠٧ رقم ٥٠٩١.

والتعامل فيها ملعون، شأنه فى ذلك شأن الميسر والأزلام والأنصاب، لأنها صناعة الشيطان أصلاً، مصداقاً لقوله تعالى: **(إِنَّمَا الْخَمْرُ ... رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)** ([1]).

والخمر بهذا تختلف عن «الشجرة الملعونة»، التى هى شجرة من ناحية، وملعونة فى ذاتها من ناحية أخرى، وملعون التعامل فيها بأى وجه من وجوه التعامل من ناحية ثالثة، ولو أن هذه الشجرة مُغيبة للعقول.

١٩١- شجرة الزقوم :

اصطلاحياً، الشجرة المعلونة هى «شجرة الزقوم» (٤٣/الدخان، ٦٢/الصافات). وهذه الشجرة ليست نوعاً واحداً، إنما أنواع متعددة ومتباينة مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ)**([2]). ومن ثم تعددت وتباينت مسمياتها التجارية، مثل: الحشيشة والأفيون والقات والقنب الهندى والكوكا أو الكوكايين .... إلخ، وإجمالاً المخدرات.

وهى فتنة، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(شَجَرَةُ الزَّقُّومِ. إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ)**([3]). وقوله تعالى: **(إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ. طَعَامُ الْأَثِيمِ. كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ. كَغَلْيِ الْحَمِيمِ)** ([4]). وقوله تعالى: **(ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ. لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ. فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ. فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ. فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ)**([5]).

وهذه الشجرة لم تخرج فى أصل الجنة تاريخياً كالشجرة الخبيثة فى نشأتها الأولى، إنما تخرج فى أصل النار تاريخياً، مصداقاً لقوله تعالى

([1-5]) ٩٠/ المائدة. ٥٢/الواقعة، ٦٢-٦٣/الصافات، ٤٣-٤٦/الدخان، ٥١-٥٥/الواقعة.

بشأنها: **(إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ. طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ)**([1]).

لكن كلتاهما من أشجار الدنيا على أى الأحوال، حتى شجرة الزقوم، وبالتالى فالمتعاملون فيها بأى وجه من الوجه وكذا المتعاطون لها أكلاً أو شرباً، مآلهم حتماً إلى النار، مصداقاً لقوله تعالى: **(فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ. ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ. ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ)**([2])، أى مرجعهم يوم القيامة مصداقاً لقوله تعالى: **(هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ)**([3]).

١٩٢ – طائفة الحشاشين الدينية:

شجرة الزقوم هى أم الفواحش والكبائر نوعياً، بينما أمهم تاريخياً هى الخمر، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى شأن الخمر: **(الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر. من شربها وقع على أمه وخالته وعمته)**([4]). وهى أمهم تاريخياً، منذ أول «نادى مُنكر» قديماً، أى فى عصر لوط، مصداقاً لقوله تعالى على لسانه: **(وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ ... وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ)**([5]).

وتاريخياً، أول من «أحل» التعامل فى الشجرة الملعونة وتعاطيها على السواء، هو: الحسن بن الصباح (٥٠٦هـ / ١١٢٤م)، الفارسى الأصل، الذى أسس «طائفة الحشاشين» كطائفة مذهبية إسماعيلية جديدة، من

([1-3]) ٦٤-٦٥/الصافات، ٦٦-٦٨/الصافات، ٥٦/ الواقعة.

([4]) الألبانى: السابق – ص ٦١٣ رقم ٣٣٤٥.

([5]) ٢٨-٢٩/العنكبوت.

طوائف الشيعة، وكان مركزها فى «الموت» شمال غربى بحر قزوين، وكذا فى سوريا بعدئذ.

وقد جذبت هذه الطائفة حولها أتباعاً ومريدين بهذه الشجرة، وأنشأتهم على نظام الباطنية، وعلى المجازفة والمغامرة والقتل غدراً وغيلة، والتحرر من ربقة العقيدة دون حاجة إلى الأنبياء.

وهذه الطائفة، لا هى اندثرت، ولا هى بقيت وحدها، بل ظهرت إلى جوارها مؤخراً جماعات أخرى يصعب حصرها، وتتخذ من تعاملها فى الشجرة الملعونة مصدراً لتمويل تسليحها وأنشطتها، وبالتالى أصبح العالم يُعانى حالياً من فتنة مزدوجة: هى الإرهاب من ناحية والتعامل فى المخدرات من ناحية أخرى، وكلاهما يمثل تحدياً للدول دولة بدولة، ولو أن من الدول من يؤيد وجودها بإسم المصلحة السياسية، لكنها دول مارقة وتُفكر بمنهج المافيا.

١٩٣- الشجرة الطيبة :

الشئ بالشئ يذكر. فإن كانت هذه الشجرة الخبيثة هى على نحو ما تقدم بيانه، فما هى إذن «الشجرة الطيبة»؟

وهى ليست شجره حولية، إنما هى شجرة مُعمرة بجذورها الضاربة فى الأرض وفرعها العالى فى السماء، والتى تؤتى أكلها دورياً، أى كل حين، وبإذن الله، مصداقاً لقوله تعالى فى شأنها: **(كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء. تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها)**(١).

---

(١) ٢٤-٢٥/إبراهيم.

وهى النخلة، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى شأنها: **(أخبرونى بشجرة شبه الرجل المسلم، لا يتحات ورقها، ولا، ولا، ولا. تؤتى أكلها كل حين؟. هى النخلة)**(١).

١٩٤ – الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة:

الكلمة الطيبة هى كلام الله، مصداقاً لقوله تعالى: **(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا ..)**(٢). أما الكلمة الخبيثة، فهى كلام الشيطان وذريته مصداقاً لقوله تعالى : **(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ. تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)**(٣)، وقوله تعالى: **(يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا)**(٤).

إذن الكلام الخبيث لا يتجاوز زخرف القول، أى لغو الكلام، أو بالأحرى لهو الحديث، الذى لم يكن موجوداً قبل نزول القرآن إلا كنوع من الظلمات التى نزل هذا القرآن ليخرج الناس منها (١/إبراهيم)، وبالتالى أصبح محظوراً منذ نزول القرآن، ومحظوراً بإطلاق (٦/لقمان)، ويشمل هذا الحظر الفلسفة (الجدل) والشعر والقصص الخيالى على الأقل وذلك على نحو ما تقدم بيانه.

وعلى أى الأحوال، هذا اللهو مجرد شطر من اللهو الخبيث عامة. فهو لا يتعلق إلا باللهو اللغوى أو «الأدبى». بل هو حتى الشطر الأخير. أما الشطر الأول، فهو اللهو «الفنى»، بالصوت (غناءً ونغماً) وبالخيلة (رقصاً وتشخيصاً ورسماً ونحتاً)، مصداقاً لقوله تعالى فى شأن أول خطوات الشيطان: **(وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ)**(٥).

---

(١) الألبانى: السابق – ص ١٠٤ رقم ٢٢٠.

(٢-٥) ٢٣/الزمر، ٢٢١–٢٢٢/الشعراء، ١١٢/الأنعام، ٦٤/الإسراء.

المبحث الخامس
جغرافية القرآن

١٩٥- تنبيه:

أنت مُخاطب بالقرآن والسنة، معاً ودوماً، مصداقاً لقوله الرسول: **(ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه)**[1]. وهذه السنة تُلزمك بأمور تجاه القرآن. **أولاً:** الترو كثيراً والتمعن طويلاً فيما تقرأه من القرآن، لكونها قراءة وليست شرباً للبن، مصداقاً لقول الرسول: **(اقرؤوا القرآن، وابتغوا به الله تعالى، من قبل أن يأتى قوم يقيمونه إقامة القدح)**[2]. وقوله: **(سيخرج أقوام من أمتى يشربون القرآن كشربهم اللبن)**[3].

وثانياً: تعلم القرآن شكلاً وموضوعاً، وتعليمه لمن عليك واجب تعليمهم على الأقل، حتى ولو لم يكن التعليم مهنتك، مصداقاً لقوله: **(خياركم من تعلم القرآن وعلمه)**[4]. **وثالثاً:** التجديد الدورى فى هذا التعلم والتعليم، ولو مرة كل قرن على الأكثر، حتى ولو لم يلتزم أحد سواك بدورية هذا التجديد زمنياً، مصداقاً لقوله: **(إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها)**[5].

ورابعاً: الالتزام بدورية هذا التجديد، ولو باعتباره نصيحة لوجه الله وكتابه ورسوله وأهل الذكر والمسلمين عامة، وباعتبار هذه النصيحة ديناً يطوق عنقك على الدوام، مصداقاً لقول الرسول: **(الدين النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)**[6].

وخامساً: الالتزام بهذه النصيحة فى إطار القرآن والسنة على الأكثر، حتى لو كانت بمثابة ابتكار غير مسبوق تاريخياً، مصداقاً لقول الرسول: **(قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم، أناس محدثون. فإن يك فى أمتى واحد منهم فهو عمر بن الخطاب)**[7]. وقوله: **(فلم أر عبقرياً من الناس ينزع نزع عمر)**[8].

١٩٦- تقديم:

(١-٨) الألبانى: السابق – ص ٤٦٢ رقم ٢٣٤١، ص ٢٥٨٧ رقم ١١٦٧، ص ٦٨١ رقم ٣٦٥٢، ص ٦٢٠ رقم ٣٢٦٨، ص ٣٨٢ رقم ١٨٧٢، ص ٤٦٠ رقم ٢٣٢٤، ص ٨٠٨ رقم ٤٣٧٧، ص ٥٥٤ رقم ٣٥٨.

لا يزال القرآن من بعد وفاة الرسول وصاحبيه لغاية الآن، «ضحية» التعامل معه، ذاك التعامل القديم زمانياً والراسخ تاريخياً والخاطئ جملة وتفصيلاً، أى الخاطئ منهجياً وعلمياً على السواء.

فهو التعامل معه وكأنه عقار أو منقول، وقابل إذن للحيازة على الأقل، أى قابل للاستحواذ عليه والاستئثار به والانتفاع منه، ولو من جانب الأئمة أو كبار العلماء أو العلماء، حتى لو كانوا أحزاباً أو مذاهباً متضاربة، وحتى لو لم يتعاملوا معه إلا شكلياً على الأكثر، سواء التعامل معه بالقراءة أو التعامل معه بالشرح، الذى لم يتجاوز مطلقاً الشرح على المتون.

وحتى لو تعاملوا معه وكأنه مجرد كتاب لغة، أى مجرد ألفاظ وعبارات ونصوص لها دلالات لغوية على الأكثر، أو كأنه كتاب «مسطح» جغرافياً، أى يخلو من أى تضاريس داخلية تميزه عن غيره من الكتب بإطلاق، حتى الكتب الإلهية السابقة علية تاريخياً.

بينما القرآن اصطلاحات وأمثال وآيات وسور ذات عناوين اصطلاحية، وله تضاريسه الجغرافية الخاصة به وحده، وعددها سبعة تحديداً، ونزلت فيه ومعه، أى لازمته وتلازمت معه فى نزوله وإلى ما لا نهاية، مصداقاً لقوله تعالى: **(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ. وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ)**([1]). وقول خاتم الرسل بشأنها: **(أنزل القرآن من سبعة أبواب، على سبعة أحرف، كلها شاف كاف)**([2]).

([1]) ٨٦-٨٧/الحجر.

([2]) الألبانى: السابق – ص ٣١٣ رقم ١٤٩٦.

وبدون معرفة هذه الأبواب (المثانى)، يظل القرآن كشريعة والشريعة كقرآن، بمثابة سر مستغلق على المخاطبين به، أو كنز مخفى عنهم خلف سبعة أبواب، باباً تلو باب، يجهلها حتى الأئمة أو كبار العلماء أو العلماء لغاية الآن، وبالتالى تتوزع محتويات المبحث الراهن على المطالب التالية:

المطلب الأول

مم يتكون القرآن؟

١٩٧- القرآن مثنى :

القرآن ككلام إلهى أصلاً، وإن نزل متشابهاً من الوجهة الشكلية مصداقاً لقوله تعالى: (**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا**)([1])، لكنه من الوجهة الموضوعية مثنى، أى هو موضوعياً مثنى من المثانى السبع التى أعطيت مع القرآن لخاتم الرسل، بل إن هذا المثنى هو المثنى الأول ترتيباً فى تلك المثانى.

فالقرآن من حيث موضوعه، لا هو عبادات ومعاملات كما يجرى عادة على ألسنة الأئمة منذ العصور الوسطى لغاية الآن، ولا هو – حتى – الكتاب فحسب كما يقولون تقليدياً. إنما هو يتكون من الكتاب فى جانب، ومن الحكمة فى جانب آخر، مصداقاً لقوله تعالى فى شأن ما نزل على خاتم الرسل: (**وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**)([2]). وقوله تعالى فى شأن ما نزل على المخاطبين بالقرآن: (**وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ**)([3]).

([1-3]) ٢٣/ الزمر، ١١٣/ النساء، ٢٣١/ البقرة.

وهكذا فالباب الأول من الأبواب السبعة التى أنزل منها القرآن، هو باب تصنيفه موضوعياً إلى كتاب وحكمة، وهو تصنيف ثنائى، أى مثنى.

١٩٨- أهمية التصنيف :

أولاً : لا تخلو رأس أحد من بنى آدم، من حكمة، التى تتنامى بالتواضع، وتتلاشى بالتكبر، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(ما من آدمى إلا فى رأسه حكمة بيد ملك، فإذا تواضع قيل للملك ارفع حكمته، وإذا تكبر قيل للملك دع حكمته)**([1]).

إذن الحد الأدنى من الحكمة فى رأس أى آدمى، هى: حكمة التواضع وعدم التكبر. وتفصيلاتها أوتيها لقمان من ربه ضمن ما أوتيه من الحكمة (١٢/لقمان)، مصداقاً لقوله تعالى على لسانه: **(وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ .. وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ. وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ)**([2]).

وكذا ضمن ما أوتيه خاتم الرسل من الحكمة (٢٢-٣٩/الإسراء)، مصداقاً لقوله تعالى: **(وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً)**([3]).

وثانياً: تعلم الحكمة لم يكن أقل ضرورة من تعلم الكتاب، ولا حتى ينفصل عنه، إنما كان هذا التعلم وذاك لازمين ومتلازمين معاً، حتى حال حياة خاتم الرسل، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(هُوَ الَّذِي بَعَثَ**

([1]) الألبانى: السابق – ص ٩٩٠ رقم ٥٦٧٥.

([2-3]) ١٣ و ١٨ و ١٩/لقمان، ٣٧/الإسراء.

فِـي الْأُمِّيِّـينَ رَسُـولًا مِّـنْهُمْ يَتْلُـو عَلَـيْهِمْ آيَاتِـهِ وَيُـزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُـمُ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَةَ)([1]).

كما سيظل هذا التعليم وذاك لازمين ومتلازمين معاً، حتى بعد وفاة الرسول، وإلى مالا نهاية، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(كَمَـا أَرْسَـلْنَا فِـيكُمْ رَسُـولاً مِّـنكُمْ يَتْلُـو عَلَـيْكُمْ آيَاتِنَـا وَيُـزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُـمُ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَةَ)**([2]).

لأن من يرد الله به خيراً «كثيراً» يعلمه الحكمة، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(يُؤتِي الْحِكْمَـةَ مَن يَشَـاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَـةَ فَقَدْ أُوتِـيَ خَيْرًا كَثِيرًا)**([3]). وهذا الخير أكثر إذن من الخير الذى يؤتاه من يفقهه الله فى الدين فحسب، لأنه يؤت خيراً فحسب، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: **(من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين)**([4]).

١٩٩- وثالثاً: علم الحكمة ليس لازماً للقضاء فحسب، إنما هو أيضاً لازم للتعليم بوجه عام، وبالتالى فمن يؤتاه يكون مثاراً لحسد مشروع كاستثناء، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: **(لا حسد إلا فى اثنتين: رجل ... ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقتضى بها، ويُعلمها)**([5]).

بل هو لازم حتى للدعوة إلى سبيل الله، حتى لو كان الداعية هو خاتم الرسل، أو كان الداعية غيره من باب أولى، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(ادْعُ إِلِـى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَـةِ)**([6]). بل هو أكثر لزوماً لهذه

([1-3]) ٢/الجمعة، ١٥١/البقرة، ٢٦٩/ البقرة.
([4-5]) الألبانى: السابق – ص ١١٢٤ رقم ٦٦١١ ، ص ١٢٤٦ رقم ٧٤٨٨.
([6]) ١٢٥/ النحل.

الدعوة من الموعظة الحسنة، وبالتالى مُقدم عليها (١٢٥/النحل)، وأسبق فى الوجود منها تاريخياً منذ عصر لقمان (١٢-١٣/لقمان).

ورابعاً: الحكمة كعلم قائم بذاته، لا هى إذن الكتاب، ولا هى اللائحة التنفيذية للقرآن أى السنة ، لأن هذه الحكمة موجودة فى القرآن ذاته، وليست خارجة على الإطلاق، وشأنها فى ذلك شأن اللائحة التفصيلية للكتاب، أى اللائحة التفصيلية لكل شئ ورد فى هذا الكتاب (٨٩/النحل)، مصداقاً لقوله تعالى فى شأنها:(**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ ... وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**)([1]).

وبدهى أن هذه اللائحة التفصيلية للقرآن (أى القصص القرآنى)، لا هى أقل أهمية من لائحته التنفيذية (أى السنة)، ولا من علم الحكمة، ولو لم يحظ القصص القرآنى بعد بعلم له كلائحة تفصيلية للقرآن، ولا حظت الحكمة بعلم قائم بذاته فى دور التعليم، أو دور القضاء.

المطلب الثانى

مم تتكون سور القرآن؟

٢٠٠- مثنى السور القرآنية:

للسور القرآنية مثنى قائم بذاته، فلا هو مثنى القرآن على نحو ما تقدم بيانه، ولا هو مثنى آياته على نحو ما سنعرضه من بعد. فهذه السور، وإن كانت متشابهة كأحسن حديث إلهى أنزله الله كتاباً (٢٣/الزمر)، لكنها مثنى من الوجهة الموضوعية، أى مثنى من المثانى

([1]) ١١١/يوسف.

السبع التى نزل بها القرآن (٨٧/الحجر)، بل إن مثناها هو – حتى – المثنى الثانى ترتيباً من تلك المثانى.

وهذا المثنى للسور، لا هو تصنيفها إلى سور مكية وسور مدنية، ولا هو تصنيفها إلى سور طوال وسور قصار. إنما هو تصنيف قائم بذاته، لأنه تصنيفها إلى «سورة» واحدة مزدوجة الآيات في جانب، وباقى السور كلها مفردة الآيات في جانب آخر.

٢٠١- سورة واحدة مزدوجة الآيات :

هذه السورة هى سورة «الفاتحة». وعدد آياتها سبع، تدخل فيهن البسملة، مصداقاً لقول خاتم الرسل في هذا الشأن: **(إذا قرأتم «الحمد لله» فإقرأوا «بسم الله الرحمن الرحيم».إنها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى و «بسم الله الرحمن الرحيم» إحدى آياتها)**([1]).

لكن لا يدخل فيها لفظ «آمين»، أى أن هذا اللفظ ليس من آيات الفاتحة. إنما يجب على المصلين قوله خلف الإمام، حتى ولو لم يقوله الإمام، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: **(إذا قال الإمام: «غير المغضوب عليهم ولا الضالين» فقولوا آمين. فمن وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه)**([2]).

والفاتحة وحدها سورة مزدوجة الآيات. فهى، وإن كانت سبعاً من الوجهة الشكلية، إنما موضوعياً هى أكثر من ذلك، لما يُقابلها من آيات غير ظاهرة، لكونها ردوداً من جانب الله، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن:

([1-2]) الألبانى: السابق – ص ١٨٧ رقم ٧٢٩، ص ١٨٢ رقم ٧٠٧.

(قال الله تعالى: قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين، ولعبدى ما سأل. فإذا قال العبد: «الحمد لله رب العالمين»، قال الله: حمدنى عبدى، فإذا قال: «الرحمن الرحيم»، قال الله: أثنى علىَّ عبدى. فإذا قال: «مالك يوم الدين»، قال الله: مجدنى عبدى. فإذا قال: «إياك نعبد وإياك نستعين»، قال: هذا بينى وبين عبدى، ولعبدى ما سأل. فإذا قال: «إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين»، قال: هذا لعبدى، ولعبدى ما سأل)([1]).

وهى بهذا فاتحة القرآن ومقدمة الكتاب وسبع آيات مثانى، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: **(الحمد لله رب العالمين، أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثانى)**([2]).

وليس هناك من تشابه بين السبع «آيات» المثانى، وبين السبع «مثانى»، التى أوتيها الرسول مع القرآن العظيم، إلا من الوجهة العددية فحسب، وبالتالى يجب دائماً التمييز بدقة بين هذين الأمرين، ولا يجوز مطلقاً الخلط بينهما، ولو أن الخلط بينهما أمر شائع منذ العصور الوسطى لغاية الآن، وذلك أفضى إلى ما يلى: ١- التجهيل بالسبع المثانى التى أوتيها الرسول مع القرآن. ٢- تصور البعض – خطأ – أن الفاتحة تتجاوز القرآن، الذى يقتصر عندئذ على باقى السور، دون الفاتحة التى أعطيت على استقلال جنباً إلى جنب القرآن.

لكن كلتاهما سبع قائمة بذاتها، أى لها استقلالها عن الأخرى، ولا تقوم إحداها مقام الأخرى، ولا تستقل إحداها عن القرآن.

([1-2]) الألبانى: السابق – ص ٧٩٧ رقم ٤٣٢٦، ص ٦٠٧ رقم ٣١٨٤.

٢٠٢- سور مفردة الآيات :

هذه السور تضم باقى سور القرآن، وبالتالى عددها ١١٣ سورة، ولا تدخل البسملة فى عدد آيات أى سورة منها، ولو كانت هذه البسملة موجودة فى صدارة كل واحدة منها، كفاصل بين السورة وما قبلها، أى لمعرفة متى تنتهى آيات سورة ومتى تبدأ السورة التى تليها على الأقل.

وكل هذه السور، آياتها مفردة الجانب، أى ليست مزدوجة الآيات كالفاتحة، وبالتالى فهى ليست آيات مثانى. كما أن انتهاء قراءة السورة منها، لا يستوجب من المصلى ولا من المصلين قول «آمين»، إنما يستوجب منهم ومن غيرهم قول «صدق الله العظيم».

٢٠٣- أهمية التصنيف :

أولاً: البسملة واحدة من آيات القرآن، وموجودة كآية من آيات الفاتحة وحدها، لكنها ليست إسم الله الأعظم. فهذا الإسم موجود فى سور أخرى، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى شأنه: **(إسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب، فى ثلاث سور من القرآن: فى «البقرة» و «آل عمران» و «طه»)**(١).

وقوله أيضاً: **(إسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين: (وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)، وفاتحة آل عمران: (اللهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ))**(٢).

وثانياً: الفاتحة من قصار السور، لكنها ليست أقصر سورة، أى هناك من السور ما هى أقصر منها (العصر، والفيل، وقريش، والكوثر، والكافرون، والنصر، والمسد، والإخلاص، والفلق، والناس، والقدر). إنما

(١-٢) الألبانى: السابق – ص ٢٢٨ رقم ٩٧٩، ص ٢٢٩ رقم ٩٨٠.

ليست موجودة ترتيباً مع قصار السور، ولا حتى مع طوال السور، إنما هى موجودة ترتيباً قبل طوال وقصار السور.

والبسملة هى أول آياتها دون غيرها من السور، لكن ثانى آياتها هى «الحمد لله رب العالمين»، وذلك أمر موجود فى سور أخرى كثيرة مثل ٤٥/الأنعام، ١/يونس، ٦٥/غافر، ٣٦/الجاثية. بل إن «الحمد لله» موجودة فى سور أكثر وأكثر، ويُسبح بها المصلون فى أدبار صلواتهم صلاة بصلاة، وليس بالبسملة، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: **(أمرنا بالتسبيح فى أدبار الصلوات، ثلاثاً وثلاثين تسبيحة، وثلاثاً وثلاثين تحميدة ....)**(١).

فهذه «البسملة» تأويلياً، هى «صيغة إصدار» القرآن كله كشريعة (١٨/الجاثية)، وبالتالى لا تعنى اصطلاحياً إلا أن هذا القرآن كله **(تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)**(٢). وبالتالى فإن **(تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ)**(٣)، أى **(تَنزِيلُ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ)**(٤).

وكذا «الحمد لله» تأويلياً، أى ليس لها أكثر من مفهوم اصطلاحى واحد فى القرآن، مهما تكرر وجودها فيه. فمفهومها تأويلياً هو قوله تعالى: **(أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)**(٥).

---

(١) الألبانى: السابق – ص ٢٩٤ رقم ١٣٨١.

(٢-٥) ٢/فصلت، ٢/السجدة، ٨٠/الواقعة وكذا ٤٣/الحاقة، ١٢/لقمان.

٢٠٤- وثالثاً: للفاتحة أولوية فى ترتيب سور القرآن، وبالتالى فهى أول سورة فيه من حيث ترتيبها، فلا تسبقها أى سورة أخرى، إنما تليها باقى السور تباعاً.

وهذه الفاتحة هى سورة ثابتة ومكررة فى الصلاة، أى صلاة وكل صلاة بإطلاق. وهى مكررة فى الصلاة بقدر عدد ركعاتها. وثباتها وتكرارها فى الصلاة هو أمر وجوبى، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: **(لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن فصاعدا)**(١). وقوله أيضاً: **(لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب)**(٢).

فلا تقوم إذن مقام الفاتحة فى الصلاة أى سورة غيرها، ولا تكفى – حتى – قراءة بعض آياتها دون بعضها الآخر فى الصلاة، أى لابد من قراءة الفاتحة كاملة فى كل مرة. أما باقى السور فليست ثابتة فى الصلاة، إلا فى الركعتين الأول، بل حتى تكفى واحدة من هذه السور فى كل ركعة من هاتين الركعتين، ولا تلزم إذن قراءة السورة كاملة، إنما تكفى قراءة بعض آيات منها، لكنها لا تسبق الفاتحة فى الصلاة على الإطلاق.

وجدير بالذكر أن الفاتحة لم يكن لها أى نظير فى الكتب الإلهية السابقة تاريخياً على القرآن، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(والذى نفسى بيده، ما أنزل فى التوراة، ولا فى الإنجيل، ولا فى الزبور، ولا فى الفرقان مثلها «يعنى أم القرآن»)**(٣). والفاتحة بهذا وجه من أوجه اختلاف القرآن عن الشرع الإلهية السابقة عليه تاريخياً.

(١-٣) الألبانى: السابق – ص ١٢٤٩ رقم ٧٥١٢، ص ١٢٤٩ رقم ٧٥١٣، ص١١٩١ رقم ٧٠٧٩.

٢٠٥- معيار فهم القرآن موضوعياً:

هذا المعيار، لا هو مدى المهارة فى قراءة القرآن حرفياً، ولا مدى حفظه لفظياً ولغوياً، ولا مدى تحصيل «التراث» الذى هو مجرد «انطباعات» أناس عن القرآن، ولا هو كل هذه الأمور مجتمعات معاً.

إنما هو معيار آخر بسيط للغاية، بل هو حتى أقل معيار لقياس مدى فهم القرآن موضوعياً. فيكفى فيه مجرد فهم «فهرس» القرآن، أى فهم موضوع هذا الفهرس على الأقل، والذى موضوعه «عناوين» السور القرآنية.

فهذه العناوين هى «اصطلاحات قرآنية»، وكل عنوان له اصطلاحه، وله إذن مفهوم تأويلى واحد. وهذا الاصطلاح قائم بذاته، أى له استقلاله، لكنه مرتبط بالضرورة مع غيره من العناوين كلها أو بعضها بحسب الأحوال.

فالفاتحة مثلاً، هى فاتحة القرآن كله، وفاتحة لكل سورة من سوره، وبالتالى فالبسملة مثلاً هى فاتحة كل سورة على استقلال، ولو لم تكن هذه البسملة آية من آيات تلك السورة. ومن ثم، فعدد البسملة فى القرآن مطابق لعدد السور، وبالتالى حتى السورة التى ليست لها بسملة فى صدارتها، لها بسملتها على استقلال فى الآية ٣٠/النمل.

والمؤسف أن «عناوين» السور لا تزال غامضة ومبهمة ومجهولة لغاية الآن، بل حتى مهجورة، وكأنها ليست اصطلاحات قرآنية، وبالتالى لم يعد أحد يُفكر فى تأويل كل عنوان على استقلال، ثم تأويل علاقته

بغيره من العناوين، وذلك أمر لا ينال فقط من نقع قراءة القرآن، إنما ينال أيضاً من صوابها.

فكيف بالله يقرأ أحد أو يحفظ سورة «طه» وسورة «يس»، دون أن يعرف شيئاً عن هذا أو ذاك، ولا عن العلاقة بينهما تأويلياً؟. أو يقرأ سورة «القلم» وسورة «الدخان»، دون أن يعرف شيئاً عن العلاقة بينهما تأويلياً؟.. إلخ. علماً بأن هذه السور لم تأت إلا فى «ذكرى» القلم والدخان وطه ويس بحسب الأحوال وعلى نحو ما تقدم بيانه.

المطلب الثالث

مم تتكون الآيات؟

٢٠٦- مثنى الآيات القرآنية:

هذه الآيات، وإن كانت متشابهة كأحسن حديث أنزله الله كتاباً (٢٣/الزمر)، لكنها مثنى من الوجهة الموضوعية، أى مثنى من المثانى السبع التى أوتيها الرسول فى القرآن (٨٧/الحجر)، بل إن مثناها هو المثنى الثالث ترتيباً فى تلك المثانى، ولو أنه المثنى «الأول» للآيات القرآنية، أى هو مثناها الأساسى أو الأصلى أو الرئيسى.

على أن هذا المثنى للآيات، لا هو تصنيفها خطأ إلى «آيات ناسخة» و«آيات منسوخة» كما يجرى على ألسنة بعض الأئمة، ولا هو تصنيفها خطأ إلى «أحكام قطعية» و «أحكام ظنية» كما يجرى على ألسنة الأئمة تقليدياً، فالقرآن يخلو تماماً من التناقض فى داخله (١/الكهف، ٢٨/الزمر)، وكل ما فيه «يقينى» (٩٥/الواقعة)، فلا فيه شئ قطعى فحسب، ولا فيه من باب أولى شئ ظنى على الإطلاق.

إنما هو تصنيف قائم بذاته، أى له استقلاله. فهو تصنيفها إلى «آيات محكمات» فى جانب و «آيات مفصلات» فى جانب آخر، مصداقاً لقوله تعالى فى شأن هذين النوعين: (**الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**)([1]).

٢٠٧- الآيات المحكمات :

وهى الآيات «المبدئية» موضوعياً (١/هود)، أى الآيات التى يتعلق موضوعها بـ «المبادئ» principes تلك التى يقوم عليها القرآن كشريعة، أو الشريعة كقرآن، وبالتالى فهى بمثابة الآيات «الأساسية» بالنسبة للقرآن والشريعة، وذلك لكونها الآيات التى يتكون منها «أساس» القرآن، ولا يتكون أساس القرآن إلا منها، ومنها وحدها، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: (**هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ**)([2]).

وأم الكتاب كخلق من خلق الله، لم يخلق الله منها واحدة فحسب إنما خلق منها زوجين (٤٩/الذاريات)، ويجب إذن التمييز بين نشأتيها تاريخياً (٢٠/العنكبوت)، وذلك كما يلى:

فأولاً: أم الكتاب فى نشأتها الأولى تاريخياً، هى أم «كتاب الله» (٥٦/الروم)، الذى هو أول وأقدم الكتب الإلهية بإطلاق، أى الكتاب الذى كتبه القلم كأول خلق بإطلاق، وكتبه قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وذلك على نحو ما بيناه آنفاً.

([1-2]) ١/ هود، ٧/ آل عمران.

وهى بهذا أم الكتاب المحفوظ فوق عرش الرحمن، أى الكتاب المحفوظ لدى الله، مصداقاً لقوله تعالى فى شأنها: (**يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**)([1]). وقوله تعالى فى شأن هذا الكتاب:(**فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ**)([2])، وقوله تعالى: (**فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ**)([3]).

وثانياً: أم الكتاب فى نشأتها الآخرة تاريخيا، هى أم «الكتاب» الذى أنزله الله على خاتم الرسل (٧/آل عمران)، وبمعنى «مبادئ» القرآن أو «أسس» الشريعة. وأم الكتاب هذه هى التى تتكون من آيات محكمات (٧/آل عمران).

٢٠٨- الآيات المفصلات :

وهى الآيات القرآنية التى بُنيت على الآيات المحكمات كمبادئ، أى تفرعت عن الآيات الأخيرة، ومن ثم جاءت مفصلات لتلك المبادئ (١/هود)، وموضوعها بهذا لا يتعلق بالمبادئ مباشرة، إنما يتعلق بها بطريقة غير مباشرة، أى يتعلق موضوعها بتطبيق وتفريع تلك المبادئ، مصداقاً لقوله تعالى فى شأنها: (**كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**)([4]).

٢٠٩- أهمية التصنيف :

أولاً: هذا التصنيف هو تصنيف قائم بذاته، أى له استقلاله، فلا هو تصنيف للقرآن، ولا هو تصنيف لسور القرآن، إنما هو تصنيف لآيات القرآن فحسب.

([1-4]) ٣٩/الرعد، ٢٢/البروج، ٧٨/الواقعة، ٣/فصلت.

وهو تصنيف لآيات القرآن بحسب مدى تعلقها بمبادئ القرآن، أى هل تتعلق الآيات بتلك المبادئ بطريقة مباشرة أم بطريقة غير مباشرة؟ وهو بهذا تصنيف «مبدئى» للآيات القرآنية، وبالتالى فهو تصنيفها الأول والأصلى والأساسى، والذى لا غنى لها عنه، ولا غنى عنه – من باب أولى – حال دراسة تلك الآيات تأويلياً.

وثانياً: الآيات المحكمات باعتبارها الآيات المبدئية موضوعياً، هى الأقل عدداً فى القرآن من الآيات المفصلات، التى لا يتعلق موضوعها مباشرة بمبادئ القرآن، إنما يتعلق موضوعها مباشرة بتطبيق وتفريع تلك المبادئ، وبالتالى فهذه الآيات المفصلات هى الأكثر عدداً من الآيات المحكمات، والأكثر بكثير جداً.

وثالثاً: الآيات المفصلات إذ تشغل المساحة العريضة من القرآن، فإنها لا تُعرف إذن إلا بطريق الاستبعاد، أى هى الآيات التى ليست آيات محكمات، إنما هى آيات مفصلات على الأكثر.

لكن على الرغم من كثرتها عددياً فى القرآن، فهى مقيدة أصلاً بمبادئ القرآن، أى مقيدة بتلك المبادئ موضوعياً، وبالتالى يستحيل أن يوجد أى عوج فيما بينها، فلا عوج بين الآيات المفصلات والآيات المحكمات، ولا بين الآيات المفصلات بعضها البعض، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: (**قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ**)([1]). وقوله تعالى: (**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا**)([2]).

إذن يستحيل أن يكون بين الآيات المفصلات والآيات المحكمات، أى اختلاف، إلا بقدر اختلاف المحكمات عن المفصلات موضوعياً،

([1-2])٢٨/ الزمر، ١/ الكهف.

وبالتالى يستحيل أن يكون بينهما اختلافاً كثيراً، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: (**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا**)([1]).

المطلب الرابع

مم تتكون أم الكتاب؟

٢١٠- مثنى الآيات المُحكمات:

أم الكتاب تتكون من آياته الأساسية، أى من آياته المحكمات فحسب، أى من الآيات المحكمات وحدها باعتبارها الآيات المبدئية، بمعنى الآيات التى موضوعها مبادئ.

لكن الآيات المحكمات، وإن كانت متشابهة كأحسن حديث أنزله الله كتاباً (٢٣/الزمر)، إنما موضوعياً هى مثنى من المثانى السبع التى أوتيها خاتم الرسل فى القرآن، بل هو حتى المثنى الرابع ترتيباً فى تلك المثانى السبع. ولو أنه المثنى الثانى للآيات القرآنية، وبالتالى فهو مثنى تالٍ للمثنى الأول للآيات القرآنية.

وهذا المثنى يتكون من الآيات المحكمات التى موضوعها مبادئ أعم **communs** للقرآن فى جانب، ومن الآيات التى موضوعها مبادئ عامة **généraux** للقرآن فى جانب آخر.

٢١١- آيات المبادئ الأعم :

وموضوعها مبادئ السمو أو العلو، كمبدأ علو الله، مصداقاً لقوله تعالى: (**وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**)([2])، وقوله تعالى: (**وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ**)([3]). ومبدأ

([1-3]) ٨٢/ النساء، ٢٣/سبأ، ٤٥/العنكبوت.

علو القرآن، مصداقاً لقوله تعالى: (**وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا**)([1]). ومبدأ علو الدين الإلهى (الإسلام)، مصداقاً لقوله تعالى: (**لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ**)([2])، وقوله تعالى: (**وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه**)([3]). ومبدأ ضرورة القسط، وذلك على نحو ما تقدم بيانه.

٢١٢- آيات المبادئ العامة :

وموضوعها مبادئ أقل عمومية عن المبادئ الأعم، لكنها مبادئ عامة على أى الأحوال، كمبدأ: الأمر بالمعروف باعتباره شطراً من القسط، ومبدأ النهى عن المنكر باعتباره الشطر الآخر من القسط، ومبدأ العدل باعتباره شطراً من المعروف، ومبدأ الدعوة إلى سبيل الله مصداقاً لقوله تعالى: (**ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ**)([4]). وقول خاتم الرسل: (**بلغو عنى ولو آية**)([5]) ... وهكذا.

٢١٣- أهمية التصنيف :

أولاً: هذا التصنيف، لا هو تصنيف للقرآن ولا لسوره، ولا لآياته كافة، ومن ثم فهو ليس التصنيف الأساسى للآيات القرآنية، إنما هو تصنيف «تال» للتصنيف الأساسى للآيات القرآنية، لأنه تصنيف لطائفة من آيات القرآن، هى الآيات المحكمات فحسب، وبالتالى فهو تصنيف فرعى.

وثانياً: الآيات المحكمات، إذ تشغل أقل مما تشغله الآيات المفصلات من مساحة القرآن، فإن آيات المبادئ الأعم لا تشغل فقط مساحة أقل فى إطار القرآن، إنما أيضاً تشغل المساحة الأقل فى إطار

([1-4]) ٤٠/ التوبة، ٣٣/ التوبة، ٣٩/الأنفال، ١٢٥/النحل.

([5]) الألبانى: السابق – ص ٥٤٦ رقم ٢٨٣٧.

الآيات المحكمات، وبالتالى فهى الآيات الأقل عدداً من آيات المبادئ العامة، ولو أنها الأكثر «عمومية» من المبادئ الأخيرة.

وثالثاً: آيات المبادئ العامة، وإن كانت تشغل المساحة الأكبر فى إطار الآيات المحكمات، لكنها ليست من الآيات المفصلات، ولو أنها حلقة الوصل بين الآيات المحكمات والآيات المفصلات، أى هى تتوسط بينهما تأويلياً، لكونها أقل عمومية من آيات المبادئ الأعم، وأكثر عمومية من الآيات المفصلات.

٢١٤- موضوع الآيات المحكمات:

إذن موضوع أم الكتاب هى الآيات المحكمات (٧/آل عمران)، التى موضوعها هى المبادئ. ولفظ «مبادئ» ليس من اصطلاحات القرآن والسنة، إنما من اصطلاحات القانون الوضعى الذى هو بمثابة اللائحة الفرعية للقرآن والسنة، ولا يخلو القرآن من اصطلاح فى شأن المبادئ، هو «الزبر» التى جاءت بها الرسل تباعاً، وجنباً إلى جنب البينات والكتاب المنير، مصداقاً لقوله تعالى: **(جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ)**([1])، وقوله تعالى:**(جَآؤُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ)**([2]).

وهذه المبادئ، ليست فقط أم الكتاب الذى نزل على خاتم الرسل (٧/آل عمران)، إنما هى أيضاً أم الكتاب المحفوظ فى اللوح لدى الله، كما هو الشأن فى مبدأ: علو القرآن مثلاً، مصداقاً لقوله تعالى فى شأنه: **(إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ)**([3]).

([1-3]) ٢٥/فاطر، ١٨٤/آل عمران، ٣-٤/الزخرف.

بل إن هذه المبادئ، ليست فقط أساس القرآن كشريعة، أو أساس الشريعة كقرآن، إنما هى أيضاً أساس اللائحة التنفيذية للقرآن أى السنة، كما هى – حتى – أساس لائحتهما الفرعية وهى «القانون الوضعى»، أى هى أساس القانون بمعناه التأويلى فى القرآن، مصداقاً لقوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ... ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)**([1]).

لكن الملاحظ حالياً، أن مسألة المبادئ لا تزال غامضة ومبهمة ومجهولة لغاية الآن، بل حتى مهجورة، سواء من جانب دارسى القانون الإلهى (القرآن والسنة)، أو من جانب دارسى القانون الوضعى، سواء فى فرنسا([2])، أو حتى فى مصر ([3])، وبالتالى لا يزال هؤلاء يتصورون أن المبادئ القانونية نوع واحد من حيث الدرجة والقوة والنطاق، رغم أنها ثلاثة أنواع متدرجة يعلو بعضها بعضاً، أعلاها المبادئ الأعم وأوسطها المبادئ العامة وأدناها المبادئ.

المطلب الخامس

مم تتكون الآيات المفصلات؟

٢١٥- مثنى الآيات المفصلات:

هذه الآيات وإن كانت متشابهة كأحسن حديث أنزله الله كتاباً (٢٣/الزمر)، لكنها موضوعياً مثنى من المثانى السبع التى أوتيها خاتم

([1]) ٥٩/النساء.

([2-3]) انظر بالتفصيل، سمير عبد السيد تناغو: النظرية العامة للقانون – ١٩٩٩– منشأة المعارف – ص٢٤٦–٢٦٦ رقم ٧٩–٨٢.

الرسل بالقرآن (٨٧/الحجر)، بل إن مثناها هو المثنى الخامس ترتيباً من تلك المثانى السبع، أى هو مثنى قائم بذاته، ويتكون من:

١- آيات «بينات» فى جانب مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ)**(١). ٢- آيات «متشابهات» فى جانب آخر، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ ... وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ)**(٢).

فتأويلياً، لا تُصنف الآيات القرآنية إلى آيات محكمات وآيات متشابهات، إنما تُصنف إلى آيات محكمات وآيات مفصلات (١/هود) التى تُصنف بعدئذ إلى آيات بينات وآيات متشابهات على النحو السالف.

٢١٦- الآيات البينات :

وهى آيات الحلال البيّن والحرام البيّن، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: **(الحلال بيّن، والحرام بيّن، فدع ما يريبك إلى مالا يريبك)**(٣). وهى تشغل المساحة العريضة من الآيات المفصلات التى هى غالبية آيات القرآن، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ)**(٤) ، وقوله تعالى مرة أخرى: **(بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)**(٥).

وبذا فالأصل أن الحلال لا يتجاوز ما أحله الله فى كتابه، والحرام لا يتجاوز ما حرمه الله فى كتابه، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن:

(١-٢) ٩٩/ البقرة، ٧/ آل عمران.

(٣) الألبانى: السابق – ص ٦٠٩ رقم ٣١٩٤.

(٤-٥) ١٦/ الحج، ٤٩/ العنكبوت.

(الحلال ما أحل الله فى كتابه، والحرام ما حرم الله فى كتابه، وما سكت عنه فهو مما عفا عنه)([1]).

وبذا، لم يعد لأحد بعدئذ تحريم الحلال على الأقل، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ)**([2]). ومن باب أولى، لم يعد لأحد بعدئذ أن يُحرم الحلال ويحلل الحرام، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ)**([3]).

أما ما عفا الله عنه فى هذا الصدد، فهو العمل اللاإرادى، خطأً كان أو نسياناً أو استكراهاً، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)**([4]).

٢١٧- الآيات المتشابهات :

هذه الآيات يشتبه أمر موضوعاتها على كثير من الناس ، أى هل تتعلق بالحلال أم تتعلق بالحرام، ولو لم يشتبه أمر موضوعاتها على قليل من الناس، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(الحلال بيّن، والحرام بيّن، وبينهما أمور متشابهات لا يعلمها كثير من الناس)**([5]).

إذن موضوعاتها لا تشتبه على الناس كافة، ولو كانت تشتبه على الكثير منهم، الذى عليه عندئذ أن يتقى تلك الآيات، لكيلا يقع فيها ويقع بالتالى فى الحرام، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: **(فمن اتقى**

([1]) الألبانى: السابق – ص ٦٠٩ رقم ٣١٩٥.

([2-3]) ٨٧/ المائدة، ١١٦/ النحل.

([4-5]) الألبانى: السابق – ص ٦٥٩ رقم ٣٥١٥. ص ٦٠٨ رقم ٣١٩٣.

الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه. ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام. كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه. ألا لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله تعالى فى أرضه محارمه ...)([1]).

بل عليهم – حتى – الحذر من فتنة الذين تجذبهم حولها تلك المتشابهات دون علم، ولكن عن قصد الفتنة، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ)**([2]). وقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: **(ألا وإن فى الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب)**([3]).

فهؤلاء لا يخادعون أحداً إلا أنفسهم، وبالتالى فهم مفسدون ولو زعموا الإصلاح، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ. فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ. أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ)**([4]).

٢١٨- أهمية التصنيف :

أولاً: هذا التصنيف ليس تصنيفاً لكل آيات القرآن، وبالتالى ليس التصنيف الأساسى لآياته، إنما هو تصنيف «تال» لهذا التصنيف

([1]) الألبانى: السابق – ص ٦٠٨ رقم ٣١٩٣.

([2]) ٧/ آل عمران.

([3]) الألبانى: السابق – ص ٦٠٨ رقم ٣١٩٣.

([4]) ٩-١٢/ البقرة.

الأساسى، أى هو تصنيف فرعى، ولو أنه التصنيف الأساسى للآيات المفصلات، التى تشغل المساحة العريضة من آيات القرآن.

وثانياً: هو تصنيف للآيات المفصلات بحسب مدى «بيان» الحلال والحرام فى موضوعاتها، بالنسبة للمخاطبين بالقرآن. والأصل فى هذه الآيات هو بيان موضوعها للحلال أو الحرام بحسب الأحوال، أى أن المساحة العريضة منها هى الآيات البينات.

ومن ثم، فالآيات المتشابهات بمثابة استثناء فى إطار الآيات المفصلات، لأن موضوعها بيِّن لقليل من الناس، ولو لم يكن بيِّناً لكثير منهم، لكنه بيِّن للقلة على أى الأحوال.

وهذا الاستثناء، لا يجوز إذن التوسع فيه، ولا القياس عليه، ولا الإضافة إليه بطريق الاجتهاد أو القياس، إنما يجب التضييق منه، وذلك عملاً بالقاعدة العامة فى شأن أى استثناء وكل استثناء.

فمثلاً، توسع الأئمة فى المتشابهات بإضافتهم إليها قوله تعالى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ** ..)(١)، وذلك بزعمهم أن موضوعها لا يتجاوز مرحلة من مراحل تحريم الخمر تاريخياً، وكأن موضوعها لا يتعلق مباشرة بتحريم شرب الخمر.

بينما موضوعها، ليس فقط عدم جواز الجمع بين الصلاة والسكر وإلا فلا تقبل الصلاة مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: **(من شرب الخمر لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً)**(٢). إنما موضوعها أيضاً عدم

---

(١) ٤٣/ النساء.

(٢) الألبانى: السابق – ص ١٠٨١ رقم ٦٣١٢.

قبول صلاة من يقول فيها بقرآن لا يعلمه أصلاً، ولو لم يكن سكراناً مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ)**(١).

وثالثاً: كان العلم بالحلال والحرام فى البينات والمتشابهات على السواء، شرطاً أول لتولى القضاء، حال حياة الرسول، وبالتالى كان أول من عينه قاضياً آنذاك هو معاذ بن جبل، مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم فى هذا الشأن: **(أرحم أمتى بأمتى أبو بكر ... وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل)**(٢). ويجب إذن أن يكون شرطاً فى القضاة.

المطلب السادس

مم تتكون الآيات البينات؟

٢١٩- الآيات البينات مثنى :

هذه الآيات، وإن كانت متشابهة كأحسن حديث أنزله الله كتاباً (٢٣/الزمر)، لكنها موضوعياً مثنى من المثانى السبع التى أوتيها خاتم الرسل بالقرآن (٨٧/الحجر)، بل حتى مثناها هو المثنى السادس فى تلك المثانى.

وهذا المثنى يتكون من آيات العزائم فى جانب، وآيات الرخص فى جانب آخر. والأخيرة هى آيات خاصة من الوجهة الموضوعية، أى استثناءات، وبالتالى لها أولويتها على آيات العزائم من حيث التطبيق عملاً، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: **(إن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه، كما يحب أن تؤتى عزائمه)**(٣).

---

(١) ٢٩/ص.

(٢) الألبانى: السابق – ص ٢١٦ رقم ٨٩٥.

(٣) الألبانى: السابق – ص ٣٨٣ رقم ١٨٨٥

لكن كلتاهما (العزائم والرخص) هى آيات بينات على أى الأحوال.

٢٢٠- آيات العزائم :

هى الآيات التى تتضمن تكليفاً imperative juridique لأولى العزم عامة، فى الظروف العادية، وباعتبارهم المستوى العادى للمخاطبين بأى تكليف إلهى، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: (**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ**)([1]).

وذو العزم، هو من إذا عهد إليه بتكليف، فلا ينساه، ولا يتقاعس عنه، إنما العكس هو الصحيح، أى هو يتذكر هذا التكليف دوماً ويطيعه تلقائياً، وذلك من عزم الأمور، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: (**وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**)([2]).

أما إذا نسى هذا المُكلف ما كُلف به ومن ثم تقاعس عنه، فإنه يفتقد العزم على عدم نسيانه وعدم التقاعس عنه، كما هو شأن آدم قديماً فى الجنة مثلاً، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: (**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا**)([3]).

وليس معنى هذا بالبداهة، أن آيات العزائم تكلف المخاطبين بها بالمستحيل عليهم، لأن العكس هو الصحيح، ولو أنها تكلفهم على أى الأحوال، لكنها لا تكلفهم مطلقاً إلا بما فى طاقتهم العادية، أى تكلفهم بما فى وسعهم دوماً، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: (**لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**)([4]).

وهى بهذا لا تكلف أحداً إلا بالممكن عادة بالنسبة للغالبية العظمى من المخاطبين بها، ولو لم يكن هذا التكليف فى مكنة البعض فى الأحوال غير العادية، أى فى أحوال الضرورة، التى تقتضى أن يكون لها أحكامها الخاصة، وبحسب قدر هذه الضرورة.

([1-4]) ٣٥/ الأحقاف، ١٨٦/ آل عمران، ١١٥/ طه، ٢٨٦/ البقرة.

٢٢١- آيات الرخص :

هى الآيات التى تتضمن «إباحة» مخالفة التكليف الموجه إلى أولى العزم فى ظروفهم العادية، لكنها لا تبيح هذه المخالفة من جانبهم عامة، إنما تبيحها من جانب بعضهم فحسب، أى الموجود فى ظروف غير عادية، جعلت هذا التكليف تكليفاً بأمر غير ممكن بالنسبة له.

فهذه الآيات تبيح له ارتكاب تلك المخالفة التى تضطره ظروفه غير العادية إلى ارتكابها، قبل أن يرتكبها كمعصية تغضب الله، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: **(إن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته)**(١).

وهكذا فآيات الرخص لا تبيح مخالفة آيات العزائم، إلا كاستثناء، أى استثناء على آيات العزائم، واستثناء تقتضيه ضرورة دفع العسر عن المخاطبين بتلك الآيات، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: (**لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا**)(٢)، وقوله تعالى مرة أخرى: (**فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**)(٣).

٢٢٢- أهمية التصنيف :

أولاً: هذا التصنيف، لا هو تصنيف للآيات القرآنية كافة ولا – حتى – للآيات المفصلات كافة، إنما هو تصنيف للآيات البينات فحسب، وبالتالى فهو تصنيف فرعى الفرعى.

لكنه تصنيف للآيات البينات التى تشغل المساحة العريضة من الآيات المفصلات على الأقل، وبالتالى فهو تصنيف رئيسى للآيات البينات على الأكثر.

---

(١) الألبانى: السابق – ص ٣٨٣ رقم ١٨٨٦.

(٢-٣) ٧/ الطلاق، ٥-٦/ الشرح.

ثانياً: وهو تصنيف للآيات البينات بحسب الظروف التى يوجد فيها المخاطبون بها، هل هى ظروف عادية أم ظروف غير عادية؟

لذا فالأصل فى الآيات البينات هى آيات العزائم، التى تواجه المخاطبين بها فى الظروف العادية، ولا تواجههم فى ظروفهم غير العادية، وبالتالى تشغل آيات العزائم المساحة العريضة من الآيات البينات.

ثالثاً: أما آيات الرخص، فهى لا تواجه المخاطبين بها فى الظروف العادية، ولا تواجههم إلا فى ظروفهم غير العادية، وبالتالى فهى بمثابة استثناء فى إطار الآيات البينات، وبما يترتب على ذلك من آثار: ١- فهى الأقل عدداً من آيات العزائم، والأقل بكثير جداً.

٢- وهذا الاستثناء يخضع للقواعد العامة فى شأن أى استثناء، وكل استثناء، وبالتالى لا تتقرر الرخصة إلا بنص، عملاً بقاعدة: لا استثناء بغير نص.

٣- وحتى لو وجد نص، فإنه نص استثنائى، وبالتالى لا يجوز التوسع فى تفسيره، ولا القياس عليه، ولا الإضافة إليه بالاجتهاد أو بالقياس، إنما يجب التضييق منه، وذلك عملاً بالقاعدة العامة فى شأن الاستثناء، وإلا وقع اعتداء على آيات العزائم، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: (... **وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ**)([1]).

فمثلاً، رخصة أكل الميتة أو الدم أو لحم الخنزير أو ما أُهل به لغير الله، مقررة بالنص الصريح، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: (**إِنَّمَا**

([1-٤]) ١١٩/ الأنعام، ١٧٣/ البقرة، ١٢/الحجرات، ١٨/الجاثية.

حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)(٢). لكن هذه الرخصة لا تخول أكل لحم الإنسان ميتاً، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: (**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ**)(٣). وهى لا تخول – من باب أولى – أكل لحم الإنسان حياً.

المطلب السابع

مم تتكون آيات العزائم؟

٢٢٣- آيات العزائم مثنى :

هذه الآيات، وإن كانت متشابهة كأحسن حديث أنزله الله كتاباً (٢٣/الزمر)، لكنها موضوعياً مثنى من المثانى السبع التى أوتيها الرسول بالقرآن (٨٧/الحجر)، بل هو المثنى السابع والأخير ترتيباً.

وهذا المثنى مكون من آيات الإلزام بالقرآن منفرداً فى جانب، وآيات الإلزام بغير القرآن فى جانب آخر.

٢٢٤- آيات الإلزام بالقرآن منفرداً :

كافة آيات القرآن ملزمة لكافة المخاطبين بها، وملزمة كشريعة لهم، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: (**ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**)(٤).

٢٢٥- آيات الإلزام بغير القرآن :

وهى آيات ملزمة بلائحتى القرآن، أى لائحته التنفيذية (السنة) ولائحته الفرعية (التشريع الوطنى)، وملزمة بهما على استقلال مصداقاً

لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ)**([1]).

أو ملزمة بهما جنباً إلى جنب القرآن، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ...)**([2]).

أو ملزمة بلائحة القرآن التنفيذية (السنة) على استقلال، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا)**([3])، وقوله تعالى: **(مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ)**([4])، وقول خاتم الرسل فى هذا الشأن: **(من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله)**([5]).

أو ملزمة باللائحة الفرعية للقرآن والسنة، أى ملزمة بالتشريع الوطنى على استقلال، وملزمة به كعمل أولى الأمر والنهى فى البرلمان الوطنى كأمة تشريعية، أى أمة اختصاراً، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)**([6]).

٢٢٦- أهمية التصنيف :

أولاً: هذا التصنيف، لا هو تصنيف للآيات القرآنية كافة ولا للآيات المفصلات كافة، ولا للآيات البينات كافة، إنما هو تصنيف لآيات العزائم فحسب، وبالتالى فهو تصنيف فرعى الفرعى.

لكنه تصنيف للآيات التى تشغل المساحة العريضة من الآيات البينات، وبالتالى فهو تصنيف رئيسى لآيات العزائم على الأكثر. وهو

([1-4]) ٨٣/ النساء، ٥٩/ النساء، ٧/ الحشر، ٨٠/ النساء.
([5]) الألبانى: السابق – ص ١٠٤٤ رقم ٦٠٤٤.
([6]) ١٠٤/ آل عمران.

تصنيف لهذه الآيات بحسب مدى الإلزام فيها، أى هل يقتصر هذا الإلزام على القرآن أم يطال غيره؟

وثانياً: الأصل فى آيات العزائم هى آيات الإلزام الذى يقتصر على القرآن منفرداً، وبالتالى فآيات الإلزام المنفرد تشغل المساحة العريضة فى إطار آيات العزائم.

أما آيات الإلزام الذى يطال غير القرآن، أو يطال القرآن وغيره، فهى استثناء، وبالتالى فهى الآيات الأقل عدداً فى إطار آيات العزائم، لكنها من آيات العزائم على أى الأحوال.

وهذا الاستثناء يخضع للقواعد العامة فى شأن الاستثناء، حيث قاعدة: لا استثناء إلا بنص صريح. وقاعدة: لا يجوز التوسع فى تفسير الاستثناء، ولا القياس عليه، ولا الإضافة إليه بطريق الاجتهاد أو بطريق القياس، إنما يجب التضييق من نطاقه.

ثالثاً: ومن ثم فالنظام الأمثل للحياة القانونية فى الكون لا يتجاوز القرآن ولائحته التنفيذية (السنة)، بينما النظام الأمثل للحياة القانونية لكل وطن فى هذا الكون لا يتجاوز القرآن ولائحته التنفيذية (السنة) ولائحتهما الفرعية (التشريع الوطنى)، وبالتالى فلا محل فى هذا النظام أو ذاك لما يسمى تجوزاً بـ «الفقه» أو «الفقه الإسلامى» أو «التشريع الإسلامى» أو «إجماع علماء الأمة» ... إلخ. فهى كلها مسميات متباينة لشئ واحد الذى لم يتجاوز قط فتاوى المفتين «الفقهاء» وهى فتاوى معدومة القيمة، قانوناً، وحتى أدبياً، مصداقاً لقول خاتم الرسل فى شأنها: **(استفت نفسك وإن أفتاك المفتون)**(١).

خاتمة

---

(١) الألبانى: السابق – ص ٢٢٤ رقم ٩٤٨.

٢٢٧- **أولاً:** ما الحاجة حالياً إلى بيان مبادئ خلق الكون، التى هى «مبادئ» **principes** على أى الأحوال؟

١- هى ليست مبادئ للقرآن وحده، إنما هى أيضاً مبادئ للائحته التنفيذية أى السنة، بل هى – حتى – مبادئ للائحتهما الفرعية أى القانون الوضعى. وهى إذن مبادئ للقانون بمعناه التأويلى، الذى يضم القرآن والسنة والقانون الوضعى معاً، مصداقاً لقوله تعالى بشأنه: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ .... ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)**(١).

فالمقصود بأولى الأمر، هم أولوا الأمر والنهى قانوناً، أى الأمة التشريعية واختصاراً «الأمة»، التى يجب وجودها فى كل شعب على استقلال، مصداقاً لقوله تعالى بشأنها: **(وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)**(٢).

٢- وهى بهذا «مبادئ قانونية»، يجب على كل مخاطب بالقرآن أن يعرفها، لولا أنها قد توارت قروناً طويلة وراء ثرثرة المتكلمين وتشدقات المفسرين اللغويين وفتاوى المتفيهقين، وبالتالى لا تزال متوارية لغاية الآن.

٢٢٨- **ثانياً:** ما الحاجة إلى المؤلف الراهن، الذى يختلف عن مؤلفات أخرى كثيرة للغاية، بعضها متداول – حتى – من قبل نزول القرآن، وبعضها موجود بعد نزوله ولغاية الآن؟. لأنه لا يختلف عنها موضوعياً فحسب، إنما أيضاً اختلاف منهجى وذلك من ناحيتين كما يلى:

(١-٢) ٥٩/ النساء، ١٠٤/ آل عمران.

١- فهو لا يتجاوز القرآن قط إلا إلى السنة، أى يلتزم بهذا القرآن كاملاً، خاصة ما صححه هذا القرآن من الأمور لبنى إسرائيل الذين كانوا يخطئون فيها ويختلفون حولها، وهى أمور كثيرة، مصداقاً لقوله تعالى فى هذا الشأن: **(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ. وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ)** (١).

٢- وهو لا يتجاوز قط علم تأويل القرآن، أى يلتزم بعلم التأويل، ويلتزم به وحده، أى دون غيره مما اصطنع اصطناعاً وسمى تجوزاً «علم التفسير اللغوى» أو «علم الكلام» أى اللاهوت أو «علم أصول الإفتاء» أى أصول الفقه، وبحسب الأحوال.

فعلم التأويل، علم نزل بنشأتيه سلطاناً من الله فى القرآن ذاته، ولم ينزل حال نشأته الأولى تاريخياً إلا فى مصر، وفى منتصف القرن الثالث عشر قبل الميلاد، إنما فى كل الأحوال نزل على استقلال تام عن التوراة (٦٥، ٧٨، ٨٢/ الكهف).

٢٢٩- **ثالثاً:** ما ضرورة إثارة «موضوع» خلق الكون حالياً، ولو لم تسبق إثارته من قبل، أى أن المؤلف الراهن يثير هذا الموضوع لأول مرة تاريخياً؟

---

(١) ٧٦-٧٧/ النمل.

١- لأنه يتمخض عن مسائل «جغرافية/ تاريخية»، ومعرفتها ضرورة علمية عصرية ملحة للغاية وملحة على الدوام وإلى مالا نهاية، أى يجب دائماً على كل مخاطب بالقرآن أن يعرفها.

٢- ولأن تقزيم موضوعات القرآن، وحصرها تقليدياً فى «العبادات والمعاملات»، هو ردة إلى عصر «إسحق» أى «شعيب»، الذى انحصرت دعوته قديماً فى هذين الموضوعين وحدهما دون غيرهما، مصداقاً لقوله تعالى على لسان المخاطبين بدعوته وقتذاك: **(يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ)** (١).

وفى ظل هذه الردة، لم يعد أحد يعرف – حتى – أن إسحق هو شعيب وشعيب هو إسحق، مثلما يعقوب هو إسرائيل وإسرائيل هو يعقوب. أو يعرف – من باب أولى – أن ذو الكفل شأنه شأن إدريس من ذرية آدم، وبالتالى لم يرد ذكرهما ضمن ذرية نوح وإبراهيم فى الآيات ٨٤-٨٦ من سورة الأنعام. أو يعرف أن أيوب من ذرية نوح، وشأنه فى ذلك شأن لوط بعدئذ، وشأن إبراهيم ذاته، ولو أن أيوب أسبق فى الوجود تاريخياً منهما معاً.

فما بالنا إذن بتمثال رأس الإنسان الأول ومسجد أصحاب الكهف فى مصر، وأعلى وأدنى الأرض، وبناء الكعبة لأول مرة تاريخياً، وبناء بيت المقدس لأول مرة تاريخياً، وما كان موجوداً من الجغرافية قبل خلق السموات

---

(١) ٨٧/ هود.

والأرض، وأول من فجر ماء زمزم التى فجرها لثانى مرة تاريخياً إسماعيل طفلاً رضيعاً ... إلخ؟

٢٣٠- **رابعاً:** ما مدى حاجة كل مخاطب بالقرآن، أن يُبين له على استقلال، كيف يتعامل بنفسه ولنفسه مع هذا القرآن، ولو فى غير مجال الإفتاء، أو – من باب أولى – فى مجال الإفتاء لنفسه، الذى هو واجب عليه مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(استفت نفسك وإن أفتاك المفتون)**([1])؟.

١- فلا يجوز أن يقعد أى مُخاطب بالقرآن عن طلب العلم لنفسه وبنفسه من هذا القرآن مباشرة، ثم يسأل الناس المعلومة أعطوها له أو منعوها عنه بحسب الأحوال، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(لا تسأل الناس شيئاً، ولا سوطك وإن سقط منك، حتى تنزل إليه فتأخذه)**([2]).

٢- والقاعدة الأولى فى هذا الصدد، مفادها ما يلى: أ – لا يجوز مطلقاً التعامل علمياً مع القرآن، بمعزل عن لائحته التنفيذية أى السنة، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته، يأتيه الأمر من أمرى، مما أمرت به أو نهيت عنه، فيقول لا أدرى ما وجدناه فى كتاب الله اتبعناه)**([3]).

ب – ولا يجوز – من باب أولى – التعامل مع لائحة القرآن التنفيذية أى السنة، بمعزل عن القرآن ذاته، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(أبشروا، فإن هذا القرآن طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم، فإنكم لن تهلكوا، ولن تضلوا بعده أبداً)**([4]). وقوله أيضاً: **(إنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا**

([1-5]) الألبانى: السابق – ص ٢٢٤ رقم ٩٤٨، ص ١٢٢١ رقم ٧٣٠٧، ص ١٢٠٤ رقم ٧١٧٢، ص ٦٩ رقم ٣٤، ص ٤٨٢ رقم ٢٤٥٨.

بعدى، أحدهما أعظم من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض)([٥]).

جـ – ويجب دائماً التعامل علمياً مع القرآن ولائحته التنفيذية أى السنة، ككل يكمل بعضه بعضاً، ودون أى تفريق بينهما منذ نزول القرآن وإلى مالا نهاية، مصداقاً لقول خاتم الرسل: **(تركت فيكم شيئين، لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتى. ولن يتفرقا حتى يردا علىَّ الحوض)**([١]).

٣– وعلى أى الأحوال، لا القرآن كتاب لغة حتى لو نزل بلسان عربى. ولا هو كتاب مطالعة أى كتاب للتدريب على القراءة، حتى لو نزل مصحوباً بطريقة مُثلى لقراءته شكلياً.

إنما هو جملة وتفصيلاً، كتاب شريعة، وموضوعه التزام مفروض على الناس كافة، حتى لو كانوا أميين (٢/الجمعة)، ونزل مصحوباً بطريقة «مُثلى» لفهم موضوعه تأويلياً، أى مصحوباً بعلم التأويل، الذى نزل بنشأتيه الأولى والآخرة سلطاناً من الله فى القرآن ذاته.

والكلام بعدئذ عن «وجود أئمة» بعد وفاة خاتم الرسل، أى منذ وفاته لغاية يوم القيامة، إنما هو لهو حديث (٦/لقمان)، فلا أئمة بعده على الإطلاق، وإلا فمآلهم حتماً النار، شأنهم فى ذلك شأن القردة الخاسئين تاريخياً، مصداقاً لقوله: **(ستكون أئمة من بعدى، يقولون فلا يرد عليهم قولهم، يتقاحمون فى النار، كما تقاحم القردة)**([٢]).

وهم بهذا أبغض الناس إلى خاتم الرسل، وأبعدهم منه فى الآخرة، وأسوؤهم أخلاقاً بإطلاق، سواء كانوا متكلمين ثرثارين أو مفتين متفيهقين أو

([١-٣])الألبانى: السابق – ص ٥٦٦ رقم ٢٩٣٧، ص ٦٧٦ رقم ٣٦١٥، ص ٣٢٠ رقم ١٥٣٥.

مفسرين متشدقين، مصداقاً لقوله: **(إن أبغضكم إلىَّ، وأبعدكم منى فى الآخرة، أسوؤكم أخلاقاً، الثرثارين المتفيهقون المتشدقون)**[٣].

(وما توفيقى إلا بالله)

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الى القارئ	٢
١- تنبيه	٤
مقدمة	٥
المبحث الأول جغرافية ما قبل الأرض	١١
المطلب الأول: نظام الخلق	١٦
مبدأ الرب الخالق	١٦
مقتضيات المبدأ	١٨
المطلب الثانى: الجغرافية الأولى تاريخياً	٢٢
الفرع الأول: البيئة المائية الأولى	٢٣
الفرع الثانى: نشأة أولى للبحر المسجور	٢٦
الفرع الثالث: نشأة آخرة للبحر المسجور	٣٠
المطلب الثالث: متى تزول السموات والأرض؟	٣٤
المطلب الرابع: إسما إبنى آدم	٣٩
الفرع الأول: من هو طه؟	٤٠
الفرع الثانى: من هو يس؟	٤٣
الفرع الثالث: ما هى ص~؟	٤٧

المطلب الخامس: دور أيوب	٥١
المطلب السادس: دور عمران	٥٧
المبحث الثانى جغرافية نشأة الأرض	٦٣
المطلب الأول: نشأتا السموات والأرض	٦٦
الفرع الأول: أول نشأة للسموات والأرض	٦٦
الفرع الثانى: آخر نشأة للسموات والأرض	٦٩
المطلب الثانى: بنيان الأرض شكلياً	٧٤
الفرع لأول: سبع أرضين	٧٤
الفرع الثانى: ملامح الأرض	٧٨
الفرع الثالث: ملكوت الله	٨٣
المطلب الثالث: رؤية ملكوت الله	٨٧
الفرع الأول: نشأتا رؤية الملكوت	٨٧
الفرع الثانى: نشأتا إمام الناس	٨٩
الفرع الثالث: نشأتا خليل الله	٩١
المطلب الرابع: النفاذ من أقطار الملكوت	٩٥
الفرع الأول: استنهاض الهمة للنفاذ	٩٥
الفرع الثانى: طريقا النفاذ من الملكوت	٩٨
المبحث الثالث جغرافية معالم الأرض	١٠٣
المطلب الأول: عاصمة الأرض	١٠٦
المطلب الثانى: أعلى الأرض	١١٧
الفرع الأول: ما هو أعلى الأرض؟	١١٨

الفرع الثانى: طوى والجودى	١٢١
الفرع الثالث: جانب الطور الأيمن	١٢٥
الفرع الرابع: قصة الخضر	١٣٠
الفرع الخامس: مشكلتا سيناء مؤخراً	١٣٥
المطلب الثالث: أدنى الأرض	١٤٠
الفرع الأول: القدس	١٤٠
الفرع الثانى: مدين	١٤٤
الفرع الثالث: دور مدين فى الطوفان	١٤٩
المطلب الرابع: الأحقاف	١٥١
الفرع الأول: الأحقاف قبل طوفان نوح	١٥٢
الفرع الثانى: الأحقاف بعد الطوفان	١٥٥
الفرع الثالث: الأحقاف بعد عاد	١٥٧
الفرع الرابع: الأحقاف بعد ثمود	١٥٩
المبحث الرابع جغرافية العصر الحجرى	١٦٥
المطلب الأول: أول منشآت حجرية	١٦٧
الفرع الأول: أول بيت للناس	١٦٨
الفرع الثانى: ثانى بيت حجرى	١٧٣
الفرع الثالث: تمثال رأس أول إنسان	١٧٧
الفرع الرابع: مسجد أصحاب الكهف	١٨٥
المطلب الثانى: عصر الشجرة الخبيثة	١٩٣
الفرع الأول: أول شجرة خبيثة	١٩٤

الفرع الثانى: آخر شجرة خبيثة	١٩٨
المبحث الخامس جغرافية القرآن	٢٠٥
المطلب الأول: مم يتكون القرآن؟	٢٠٨
المطلب الثانى: مم تتكون سور القرآن؟	٢١١
المطلب الثالث: مم تتكون الآيات؟	٢١٨
المطلب الرابع: مم تتكون أم الكتاب؟	٢٢٢
المطلب الخامس: مم تتكون الآيات المفصلات؟	٢٢٥
المطلب السادس: مم تتكون الآيات البينات؟	٢٣٠
المطلب السابع: مم تتكون آيات العزائم؟	٢٣٤
خاتمة	٢٣٧
الفهرس	٢٤٢
للمؤلف	٢٤٦

للمؤلف

١- التنظيم القضائى من زاوية أشخاصه – دار النهضة العربية – ٢٠٠٧.

٢- التنظيم القضائى فى ضوء مبدأ سمو القانون الإلهى على التشريع – ٢٠٠٦.
٣- فكرة المحكمة العليا للأسلمة – ط ٢ – دار النهضة العربية – ٢٠٠٤.
٤- نظرية القوة التنفيذية لسند التنفيذ – دار الفكر العربى – ٢٠٠٢.
٥- طبيعة المهمة التحكيمية – دار الفكر العربى – ٢٠٠١.
٦- أساس الوظيفة القضائية – دار النهضة العربية – ١٩٩٩.
٧- المفهوم القانونى للبيئة – ط ٢ – دار الفكر العربى – ٢٠٠١.
٨- القوة التنفيذية لحكم التحكيم – دار الفكر العربى – ٢٠٠١.
٩- مبدأ عدم جواز تناقض الأحكام – دار النهضة العربية – ١٩٩٧.
١٠- اعتبار الحجز كأن لم يكن – دار النهضة العربية – ١٩٩٥.
11- The System of attacks on judgments, Comparative Study– 1989.
١٢- تطور قانون المرافعات واتجاهاته – ١٩٨٧.
13- The Legal theory, 2001.
١٤- فكرة الوسطية فى العمل الإنسانى – مصر المعاصرة – س٩٦ – ع ٤٧٩ – ٢٠٠٥.
١٥- أزمة قاعة البحث القانونى – مصر المعاصرة – س ٩٦ – ع ٤٨٠ – ٢٠٠٥.
١٦- فكرة الوساطة الإجرائية – ورقة بحثية لمؤتمر حقوق طنطا – فبراير ٢٠٠٢.
١٧- أساس التنفيذ الجبرى – دار النهضة العربية – ١٩٩٦.
١٨- الدفع بعدم القبول فى قانون المرافعات – رسالة إسكندرية – آلة كاتبة – ١٩٦٨.

١٩- الوجيز فى قانون القضاء المدنى – ط ١ – دار النهضة العربية – ٢٠٠١.
٢٠- التنفيذ الجبرى – ط ٨ – دار النهضة العربية – ٢٠٠١.
٢١- أثر الصفة الأجنبية لعناصر الدعوى المدنية – مجلة روح القوانين – ع٤ – ص ٢٢٥ – ٣٨٣ – سنة ١٩٩١.
٢٢- اعتبار الحجز كأن لم يكن – مجلة روح القوانين ع ٣ – ١٩٩٠ ، ع ٦ – ١٩٩١.
٢٣- الهيئة القضائية وأعوانها – فى ضوء مبدأ سمو القانون الإلهى – دار النهضة العربية – ٢٠٠٩.
٢٤- مركز الشعب والدولة والرئاسة والبرلمان واللغة العربية – فى ضوء مبدأ سمو القانون الإلهى – دار النهضة العربية، ٢٠١٠.
٢٥- مبادئ المحاكم الاقتصادية – فى ضوء مبدأ سمو القانون الإلهى – دار النهضة العربية – ٢٠١٠.
٢٦- إعتلال صحة التقاضى فى مصرنا – فى ضوء مبدأ سمو القانون الإلهى – مجلة الحقوق (إسكندرية) عدد خاص – مارس ٢٠١٠.
٢٧- الضوابط القانونية للتعليم المصرى وفق قانون جودته ولائحته – فى ضوء مبدأ سمو القانون الإلهى – دار النهضة العربية – ٢٠١٠.
٢٨- انتهاك مبدأ التخصص القضائى فى ضوء مبدأ سمو القانون الإلهى، بحث قدم فى مشروع كلية الحقوق جامعة الإسكندرية، بشأن إحياء ذكرى أساتذتنا فى تخصص المرافعات المدنية والتجارية، بكتابات فى موضوع «التخصص القضائى».
٢٩- أساس حقوق وواجبات المرأة فى ضوء مبدأ سمو القانون الإلهى، بحث مقدم لمؤتمر كلية الحقوق جامعة الإسكندرية، فى أول ديسمبر ٢٠١٠.

٣٠- مبادئ التنفيذ الجبرى فى قانون المرافعات – دار النهضة العربية – ٢٠١١.
٣١- مشكلات النظام القضائى المصرى فى ضوء مبدأ سمو القانون الإلهى – دار النهضة العربية – ٢٠١١.
٣٢- مشكلات النظام الدستورى المصرى – فى ضوء مبدأ سمو القانون الإلهى – دار النهضة العربية – ٢٠١٢.
٣٣- نظام البرلمان المصرى – دراسة انتقاديه وتصحيحيه – مقالة بمجلة «روح القوانين» – حقوق طنطا – ٢٠١١.
٣٤- أسباب تخلف الدساتير العربية – دراسة انتقاديه وتصحيحيه – مقالة «روح القوانين» – حقوق طنطا – ٢٠١١.
٣٥- الدور البيئى والمجتمعى للطالب الحقوقى – مقالة «روح القوانين» – حقوق طنطا – ٢٠١٢.
٣٦- تعريف الدولة المصرية دستورياً – مقالة «روح القوانين» – حقوق طنطا – ٢٠١٢.
٣٧- القوة التنفيذية لحكم التحكيم – ط ٨ – دار النهضة العربية – ٢٠١٢.
٣٨- نظرية البشر القانونية فى ضوء مبدأ سمو القانون الإلهى – دار النهضة العربية – ٢٠١٢.
٣٩- أول وآخر درس فى القانون الإلهى – مقالة – مجلة روح القوانين (حقوق طنطا) ٢٠١٣.
٤٠- مبادئ التنفيذ الجبرى – دار النهضة العربية، ٢٠١٣.
٤١- ا لنكبة العلمية للمسلمين عرباً وعجماً – دار النهضة العربية – ٢٠١٣.
٤٢- أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب – دار النهضة العربية – ٢٠١٣.
٤٣- دور مبادئ الشريعة أمام القضاء الوطنى – دار النهضة العربية – ٢٠١٤.

٤٤- قانون القضاء المدنى – القسم الثانى – دار النهضة العربية -٢٠١٤.
٤٥- دور القضاء الوطنى نحو مبادئ الشريعة – مجلة روح القوانين – جامعة طنطا – ص ٢٠١٥.
٤٦- دور مبادئ الشريعة أمام القضاء – طبعة ثانية منقحة – دار النهضة العربية – ٢٠١٥.
٤٧- المدخل المصرى إلى القانون – دار النهضة العربية – ٢٠١٥.
٤٨- نحو تطوير الثقافة القرآنية – دار النهضة العربية – ٢٠١٥.
٤٩- نحو تطوير الثقافة القانونية – دار النهضة العربية – ٢٠١٥.
٥٠- مبادئ قانون المرافعات – ٢٠١٥ – دار النهضة العربية.
٥١- تطبيقات عملية للتنفيذ الجبرى– دار النهضة العربية – ٢٠١٥.
٥٢- التنفيذ الجبرى التطبيقى – دار النهضة العربية – ٢٠١٥.
٥٣- مبادئ قانون المرافعات – جزءان – دار النهضة العربية – ٢٠١٥.
٥٤- قاعة البحث العلمى القانونى – دار النهضة العربية – ٢١٠٥.
٥٥- النظام القضائى المصرى – دار النهضة العربية – ٢٠١٥.
٥٦- دور القضاء المصرى نحو الشريعة – دار النهضة العربية – ٢٠١٦.
٥٧- تمصير العلم والعمل بالشريعة – دار النهضة العربية – ٢٠١٦.
٥٨- مستلزمات الشريعة فى الحياة القانونية المصرية – دار النهضة العربية – ٢٠١٦.
٥٩- نظرية القانون فى مصر – دراسة انتقادية – مقالة فى مجلة روح القوانين – ٢٠١٥.
٦٠- دور القضاء المصرى نحو الشريعة – دار النهضة العربية – ٢٠١٦.
٦١- نظرية القضاء فى مصر – دراسة انتقادية – مقالة فى مجلة روح القوانين – ٢٠١٦.

٦٢- مبادئ التنفيذ الجبرى فى قانون المرافعات – طبعة ثانية – ٢٠١٦ – دار النهضة العربية.
٦٣- نظرية القضاء الوقتى فى مصر – دار النهضة العربية – ٢٠١٦.
٦٤- مبادئ قانون المرافعات المصرى – دار النهضة العربية – ٢٠١٦.
٦٥- نحو تمصير مؤلفات المرافعات – مقالة بمجلة روح القوانين – تصدرها حقوق طنطا.
٦٦- مبادئ قانون المرافعات المصرى – ط ٢ – دار النهضة العربية – ٢٠١٧.
٦٧- حقوق تكريم الإنسان – دار النهضة العربية – ٢٠١٧.
٦٨- علم تأويل القانون (إلهياً ووضعياً) – دار النهضة العربية – ٢٠١٨.
٦٩- أبو الهول ولغته في القرآن – دار النهضة العربية- ٢٠١٨.
٧٠- قصة الحرب الأخيرة في سيناء – دار النهضة العربية – ٢٠١٨.
٧١- اقتصاديات التنظيم القضائى المصرى – دار النهضة العربية – ٢٠١٨.
٧٢- مبادئ خلق الكون فى القانون- دار النهضة العربية – ط١ – ٢٠١٩.
٧٣-مبادئ خلق الكون فى القانون- طبعة ثانية – دار النهضة العربية – ط١ – ٢٠٢٠.

رقم الإيداع: ٢٠١٧/٢٧٢٦٦

ترقيم دولى:
970-977-04-8562-0